
المكتبة الصوفية
عوارف المعارف
للسهروردي
(المتوفى سنة ٦٣٢هـ)
تحقيق وضبط
أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح
المستشار/ توفيق علي وهبة
المجلد الثاني
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

المكتبة الصوفية

عوارف المعارف

للسهروردي

(المتوفى سنة ٦٣٢ هـ)

تحقيق وضبط

أ. د / أحمد عبد الرحيم السايح
المستشار / توفيق علي وهبة

المجلد الثاني

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية



الطبعـة الأولـى

١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦م

الناشـــر

مكتبة الثقافة الدينيـة

٥٢٦ شارع بورسعيـد / القاهـرة

ت : ٠٥٩٢٣٦٢٠ ـ ٠٥٩٢٨٤١١ / فاكس ٠٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة

E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com

رقم الإيداع	٢٠٠٦/٥٦٠٤
الترقيم الدولي I.S.B.N.	977-341-264-4

الباب الثانى والثلاثون
فى آداب الحضرة الإلهية

هكل الأدب تتلقى من رسول الله ﷺ، فإنه عليه السلام مجمع الآداب ظاهرا وباطنا.

واخبر الله تعالى عن حسن ادبه فى الحضرة بقوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[1].

وهذه غامضة من غوامض الأدب اختص بها رسول الله ﷺ.

اخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه للقدس فى الإعراض والإقبال، أعرض عما سوى الله، وتوجه إلى الموثرك وراء ظهره الأرضين والدار العاجلة بحظوظها، والسموت والدار الآخرة بحظوظها.

فما التفت إلى ما أعرض عنه، ولا لحقه الأسف على الغائب فى إعراضه، قال الله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾[2].

فهذا الخطاب للعموم، وما زاغ البصر إخبار عن حال النبى عليه السلام بوصف خاص من معنى ما خاب به العموم.

فكان ما زاغ البصر حاله فى طرف الإعراض، وفى طرف الإقبال تلقى ما ورد عليه فى مقام قاب قوسين بالروح والقلب.

ثم فر من الله تعالى حياء منه وهيبة وإجلالا، وطوى نفسه بفراره فى مطاوى انكساره والتقاره، لكيلا تنبسط النفس فتطغى.

فإن الطغيان عند الاستغناء وصف النفس، قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[3].

---

(١) سورة النجم، الآية ١٧.

(٢) سورة الحديد، الآية ٢٣.

(٣) سورة العلق، الآيات ٦ ـ ٧.

والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع، ومتى نالت قسطا من المنح استغنت وطغت، والطغيان يظهر منه فرط البسط، والإفراط في البسط يسد باب المزيد، وطغيان النفس لضيق وعائها عن المواهب.

فموسى عليه السلام صح له في الحضرة أحد طرفي ما زاغ البصر، وما التفت إلى ما فاته، وما طغى متأسفا لحسن أدبه، ولكن امتلأ من المنح، واسترقت النفس السمع، وتطلعت إلى القسط والحظ.

فلما حظيت النفس استغنت، وطفح عليها ما وصل إليها، وضاق نطاقها، فتجاوز الحد من فرط البسط وقال: ﴿ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾(1). فمنع ولم يطلق في فضاء المزيد، وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام.

وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية، فكل قبض يوجد عقوبة، لأن كل قبض سد في وجه باب الفتوح، والعقوبة بالقبض أوجبت الإفراط في البسط.

ولو حصل الاعتدال في البسط ما وجبت العقوبة بالقبض، والاعتدال في البسط بإيقاف النازل من المنح على الروح والقلب، والإيقاف على الروح والقلب بما ذكرناه من حال النبي عليه السلام من تغييب النفس في مطاوي الانكسار.

فذلك الفرار من الله إلى الله وهو غاية الأدب حظي به رسول الله ﷺ، فما قوبل بالقبض، فدام مزيده وكان قاب قوسين أو أدنى.

ويشاكل الشرح الذي شرحناه قول أبي العباس ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ ﴾(2).

---

(1) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.
(2) سورة النجم، الآية ١٧.

قال: لم يره بطغيان يميل بل رآه على شروط اعتدال القوى.

وقال سهل بن عبد الله التسترى: لم يرجع رسول الله ﷺ إلى شاهد نفسه ولا إلى مشاهدتها، وإنما كان مشاهدا بكليته لربه، يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل.

وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز فى ذلك عن سهل ابن عبد الله.

ويؤيد ذلك أيضا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة قال: أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار النيسابورى، قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت أبا نصر بن عبد الله بن على السراج قال أنا أبو الطيب العكى عن أبى محمد الجريرى.

قال: التسرع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة، والوقوف على حد الانحسار نجاة، واللياذ بالهرب من علم الدنو وصلة، واستقباح ترك الجواب ذخيرة، والاعتصام من قبول دواعى استماع الخطاب تكلف، وخوف فوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم فى حيز الإقبال مساءة، والإصغاء إلى تلقى ما ينفصل عن معدنه بعد، والاستسلام عند التلاقى جراءة، والانبساط فى محل الأنس غرة. وهذه الكلمات كلها من آداب الحضرة لأربابها.

وفى قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[1].

وجه آخر ألطف مما سبق (ما زاغ البصر) حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر (وما طغى) لم يسبق البصر البصيرة، فيتجاوز حده، ويتعدى مقامه، بل استقام البصر مع البصيرة، الظاهر مع الباطن، والقلب مع القالب، والنظر مع القدم.

---

(١) سورة النجم الآية ١٧.

ففى تقدم النظر على القدم طغيان، وللعنى بالنظر علم، وبالقدم حال القالب، فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانا، ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون تقصيرا.

فلما اعتدلت الأحوال، صار قلبه كقالبه، وقالبه كقلبه، وظاهره كباطنه، وباطنه كظاهره، وبصره كبصيرته، فحيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله، ولهذا المعنى انعكس حكم معناه، ونوره على ظاهره، وأتى البراق ينتهي خطوه حيث ينتهي نظره، لا يتخلف قدم البراق عن موضع نظره.

كما جاء فى حديث المعراج، فكان البراق بقالبه مشاكلا لمعناه، ومتصفا بصفته، لقوة حاله ومعناه.

وأشار فى حديث المعراج إلى مقامات الأنبياء، ورأى فى كل سماء بعض الأنبياء إشارة إلى تعويقهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته، ورأى موسى بعض السموات، فمن هو فى بعض السموات يكون قوله: ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾[1].

تجاوزا للنظر عن حد القدم، وتخلفا للقدم عن النظر، وهذا هو الإخلال بأحد الوصفين من قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[2].

فرسول الله حمل مقترنا قدمه ونظره فى حجال الحياء والتواضع ناظرا إلى قدمه، قادما على نظره، ولو خرج عن حجال الحياء والتواضع، وتطاول بالنظر متعديا حد القدم، تعوق فى بعض السموات كتعوق غيره من الأنبياء، فلم يزل ﷺ متجلس حجاله فى خفارة أدب حاله.

حتى خرق حجب السموات، فانصبت إليه أقسام القرب انصبابا، وانقشعت عنه سحائب الحجب حجابا حجابا، حتى استقام على

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.
(٢) سورة النجم، الآية ١٧.

صراط: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ ﴾[1]. فمر كالبرق الخاطف إلى مخدع الوصل واللطائف، وهذا غاية في الأدب، ونهاية في الأرب.

قال ابو محمد بن رويم حين سئل عن ادب المسافر فقال: لا يجاوز همه قدمه، فحيث وقف قلبه يكون مقره.

اخبرنا شيخنا ضياء الدين ابو النجيب اجازة، قال: انا عمر بن احمد قال انا ابو بكر بن خلف قال انا ابو عبد الرحمن السلمى قال حدثنا القاضى ابو محمد يحيى بن منصور قال حدثنا ابو عبد الله محمد بن على الترمذى قال حدثنا محمد بن رزام الأبلى قال حدثنا محمد بن عطاء الهجيمى قال حدثنا محمد بن نصير عن عطاء بن ابى رباح عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾[2].

قال: «يا موسى إنه لا يرانى حى إلا مات، ولا يابس إلى تدهده، ولا رطب إلى تفرق، إنما يرانى اهل الجنة الذين لا تموت اعينهم ولا تبلى اجسادهم».

ومن أدب الحضرة ما قال الشبلى: الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب. وهذا يختص ببعض الأحوال والأشياء دون البعض، ليس هو على الإطلاق.

لأن الله تعالى امر بالدعاء وإنما الإمساك عن القول كما امسك موسى عن الانبساط فى طلب المآرب والحاجات الدنيوية حتى رفعه الحق مقاما فى القرب، واذن له فى الانبساط وقال: اطلب منى ولو ملحا لعجينك، فلما بسط وقال:﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾[3].

---

(١) سورة النجم، الآية ١٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.
(٣) سورة القصص، الآية ٢٤.

لأنه كان يسأل حوائج الآخرة، ويستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها، وهو فى حجاب الحشمة عن سؤال المحقرات.

ولهذا مثال فى الشاهد. فإن للملك المعظم يسأل المعظمات، ويحتشم فى طلب المحقرات، فلما رفع بساط حجاب الحشمة، صار فى مقام خاص مُن القرب، يسأل الحقير كما يسأل الخطير.

قال ذو النون المصرى: أدب العارف فوق كل أدب، لأن معروفه مؤدب قلبه.

وقال بعضهم: يقول الحق سبحانه وتعالى: من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الأدب، ومن كشفت له عن حقيقة ذاتى ألزمته العطب، فاختر أيهما شئت الأدب أو العطب.

وقول القائل هذا يشير إلى أن الأسماء والصفات تستقل بوجود محتاج إلى الأدب، لبقاء رسوم البشرية وحظوظ النفس، ومع لمان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالأنوار، ويكون معنى العطب التحقق بالفناء، وفى ذلك العطب نهاية الأرب.

وقال أبو على الدقاق فى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[1]. لم يقل ارحمنى لأنه حفظ أدب الخطاب.

وقال عيسى عليه السلام: «إن كنت قلته فقد علمته» ولم يقل لم أقل رعاية لأدب الحضرة.

وقال أبو نصر السراج: أدب أهل الخصوصية من أهل الدين فى طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.

الخواطر والعوارض والبوادى والعوائق، واستواء السر والعلانيـة، وحسن الأدب فى مواقف الطلب، ومقامات القرب، وأوقات الحضور.

والأدب أدبان: أدب قول، وأدب فعل. فمن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعله منحه محبة القلوب.

قال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

وقال أيضا: الأدب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف.

وقال النووى: من لم يتأدب للوقت فوقته مقت.

وقال ذو النون: إذا خرج المريد عن حد استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء.

وقال ابن المبارك أيضا: قد أكثر الناس فى الأدب ونحن نقول هـو معرفة النفس. وهذه إشارة منه إلى أن النفس هى منبع الجهالات، وترك الأدب من مخامرة الجهل.

فإذا عرف النفس صادف نور العرفان على ما ورد «من عرف نفسه فقد عرف ربه» ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة إلا ويقمعها بصريح العلم.

وحينئذ يتأدب، ومن قام بأدب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر.

الباب الثالث والثلاثون
فى آداب الطهارة ومقدماتها

قال الله تعالى فى وصف أصحاب الصفة: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾[1].

قيل فى التفسير: يحبون أن يتطهروا من الأحداث والجنابات والنجاسات بالماء.

قال الكلبى: هو غسل الأدبار بالماء.

وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء، ولا ينامون بالليل على الجنابة.

روى أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء لما نزلت هذه الآية: «إن الله تعالى قد أثنى عليكم فى الطهور فما هو؟ قالوا إنا نستنجى بالماء».

وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله ﷺ «إذا أتى أحدكم الخلاء فليستنج بثلاثة أحجار».

وهكذا كان الاستنجاء فى الابتداء حتى نزلت الآية فى أهل قباء.

قيل لسلمان: قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة.

فقال سلمان: أجل نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، أو نستنجى باليمين، أو يستنجى أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار، أو نستنجى برجيع أو عظم.

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال أنا أبو منصور الحريمى قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمرو الهاشمى قال أنا أبو على اللؤلؤى قال أنا أبو داود قال حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا ابن المبارك

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٨.

عن ابن عجلان عن القعقاع عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ أنه قال، قال ﷺ «إنما أنا بمنزلة الوالد لعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطيب بيمينه».

وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرمة.

والفرض في الاستنجاء شيئان، إزالة الخبث، وطهارة النبل، وهو ألا يكون رجيما وهو الروث، ولا مستعملا مرة أخرى، ولا رمة، وهي عظم الميتة. ووتر الاستنجاء سنة، فإما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع، واستعمال الماء بعد الحجر سنة.

وقد قيل في الآية، ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾[1].

ولما سئلوا عن ذلك قالوا، كنا نتبع الماء الحجر.

والاستنجاء بالشمال سنة، ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة، وهكذا يكون في الصحراء إذا كانت أرضا طاهرة وترابا طاهرا.

وكيفية الاستنجاء أن يأخذ بيساره ويضعه على مقدم المخرج قبل ملاقاة النجاسة ويمره بالمسح، ويدير الحجر في مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع إلى موضع.

يفعل ذلك إلى أن ينتهي إلى مؤخر المخرج، ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمسح إلى المقدمة، ويأخذ الثالث ويديره حول المسربة. وإن استجمر بحجر ذي ثلاث شعب جاز.

وأما الاستبراء إذا انقطع البول فيمد ذكره من أصله ثلاثا إلى الحشفة برفق لئلا ينطلق بقية البول، ثم ينثره ثلاثا، ويحتاط في الاستبراء بالاستنقاء وهو أن يتنحنح ثلاثا، لأن العروق ممتدة من الحلق إلى الذكر.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٨.

وبالتنحنح تتحرك وتقذف ما في مجرى البول، فإن مشى خطوات وزاد في التنحنح فلا بأس، ولكن يراعي حد العلم، ولا يجعل للشيطان عليه سبيلا بالوسوسة فيضيع الوقت، ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر إلى أن يرى الرطوبة.

وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال: لا يزال تهر منه الرطوبة مادام يمد، فيراعي الحد في ذلك، ويراعي الوتر في ذلك أيضا.

والمسحات تكون على الأرض الطاهرة أو حجر طاهر، وإن احتاج إلى أخذالحجر لصغره فليأخذ الحجر باليمين والذكر باليسار ويمسح على الحجر، وتكون الحركة باليسار لا باليمين لئلا يكون مستنجيا باليمين.

وإذا أراد استعمال الماء انتقل إلى موضع آخر وينفع الحجر ما لم ينتشر البول على الحشفة.

وفي ترك الاستنقاء في الاستبراء وعيد ورد فيما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال: ((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما هذا فكان لا يستبرئ من البول، وأما هذا فكان يمشي بالنميمة. ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)).

والعسيب الجريد. وإذا كان في الصحراء يبعد عن العيون.

روى جابر ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أراد البراز انطلق حتى لا يراه أحد

وروى المغيرة بن شعبة ﷺ قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأتى النبي عليه السلام حاجته فأبعد في المذهب.

وروى أن النبي عليه السلام كان يتبوأ لحاجته كما يتبوأ الرجل المنزل، وكان يستتر بحائط أو نشز من الأرض، أو كوم من الحجارة.

ويجوز أن يستتر الرجل براحلته في الصحراء أو بذيله إذا حفظ الثوب من الرشاش.

ويستحب البول في أرض دمثة، أو على تراب مهيل.

قال أبو موسى: كنت مع رسول الله ﷺ فأراد أن يبول، فأتى دمثا في أصل جدار فبال ثم قال: ((إذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله)).

وينبغي ألا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستقبل الشمس والقمر، ولا يكره استقبال القبلة في البنيان، والأول اجتنابه لذهاب بعض الفقهاء إلى كراهية ذلك في البنيان أيضا، ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض، ويتجنب مهاب الرياح احترازا من الرشاش.

قال رجل لبعض الصحابة من الأعرب وقد خاصمه: لا أحسبك تحسن الخراءة، فقال بلى وأبيك إني بها لحاذق. قال فصفها لي.

فقال: أبعد الشر، وأعد المدر، وأستقبل الشيح، وأستدبر الريح، وأقعى إقعاء الظبي، وأجفل إجفال النعام، يعني أستقبل أصول النبات من الشيح وغيره، وأستدبر الريح احترازا من الرشاش والإقعاء ههنا أن يستوفز على صدور قدميه. والإجفال أن يرفع عجيزه.

يقول عند الفراغ من الاستنجاء: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وطهر قلبي من الرياء، وحصن فرجي من الفواحش.

ويكره أن يبول الرجل في المغتسل.

روى عبد الله بن مغفل أن النبي عليه السلام نهى ن يبول الرجل في مستحمه وقال: ((إن عامة الوسواس منه)).

وقال ابن المبارك: يوسع في البول في المستحم إذا جرى فيه الماء.

وإذا كان فى البنيان يقدم رجله اليسرى لدخول الخلاء ويقول قبل الدخول: بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث.

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام ابو النجيب السهروردى قال انا ابو منصور القرى قال انا ابو بكر الخطيب قال انا ابو عمرو الهاشمى قال انا ابو على اللؤلؤى قال انا ابو داود قال حدثنا عمر وهو ابن مرزوق البصرى قال حدثنا شعبة عن قتادة عن النضر بن انس عن زيد بن ارقم عن النبى ﷺ انه قال: «إن هذه الحشوش محتضرة فإذا اتى احدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث».

وأراد بالحشوش الكنف، واصل الحش جماعة النخل الكثيف، كانوا يقضون حوائجهم إليها قبل ان تتخذ الكنف فى البيوت. وقوله محتضرة اى يحضرها الشياطين.

وفى الجلوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى، ولا يتولغ بيده، ولا يخط الأرض والحائط وقت قعوده، ولا يكثر النظر إلى عورته إلا للحاجة إلى ذلك، ولا يتكلم، فقد ورد ان رسول الله ﷺ قال: «لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عورتهما يتحدثان، فإن الله تعالى يمقت على ذلك».

ويقول عند خروجه: غفرانك الحمد لله الذى اذهب عنى ما يؤذينى وابقى على ما ينفعنى».

ولا يستصحب معه شيئا عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره، ولا يدخل حاسر الرأس.

روت عائشة رضى الله عنها عن ابيها ابى بكر ﷺ انه قال: استحيوا من الله فإنى لأدخل الكنيف فألزق ظهرى واغطى راسى استحياء من ربى عز وجل.

الباب الرابع والثلاثون
فى آداب الوضوء وأسراره

إذا أراد الوضوء يبتدئ بالسواك.

حدثنا شيخنا ابو النجيب قال انا ابو عبد الله الطائى قال انا الحافظ الفراء قال انا عبد الواحد بن احمد المليحى قال انا ابو منصور محمد بن احمد ابن عبد الجبار قال ثنا حميد بن زنجويه قال ثنا يعلى بن عبيد قال ثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن ابى سلمة بن عبد الرحمن عن زيد بن خالد الجهنى قال، قال رسول الله ﷺ: «لولا ان اشق على امتى لأخرت العشاء إلى ثلث الليل، ولأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة».

وروت عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله ﷺ قال: «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب».

ويستحب السواك عند كل صلاة، وعند كل وضوء، وكلما تغير الفم من أزم وغيره، وأصل الأزم إمساك الأسنان بعضها على بعض. وقيل للسكوت أزم لأن الأسنان تنطبق وبذلك يتغير الفم، ويكره للصائم بعد الزوال.

ويستحب له قبل الزوال. وأكثر استحببه مع غسل الجمعة، وعند القيام من الليل. ويندى السواك اليابس بالماء. ويستاك عرضا وطولا، فإن اقتصر فعرضا.

فإذا فرغ من السواك يغسله ويجلس للوضوء. والأولى أن يكون مستقبل القبلة، ويبتدئ ببسم الله الرحمن الرحيم ويقول: رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون.

ويقول عند غسل اليد، اللهم إني أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ويقول عند المضمضة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك.

ويقول عند الاستنشاق: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأوجدني رائحة الجنة وأنت عني راض.

ويقول عند الاستنثار: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وأعوذ بك من روائح النار سوء الدار.

ويقول عند غسل الوجه: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبيض وجهي يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي يوم تسود وجوه أعدائك.

وعند غسل اليمين: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وآتني كتابي بيميني وحاسبني حسابا يسيرا.

وعند غسل الشمال: اللهم إني أعوذ بك أن تؤتيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري.

وعند مسح الرأس: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وغشني برحمتك وأنزل علي من بركاتك وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظل عرشك.

ويقول عند مسح الأذنين: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلني ممن يسمع القول فيتبع أحسنه، اللهم أسمعني منادي الجنة مع الأبرار.

ويقول في مسح العنق: اللهم فك رقبتي من النار، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال.

ويقول عند غسل قدمه اليمنى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين.

ويقول عند غسل قدمه اليمنى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين.

ويقول عند اليسرى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وأعوذ بك أن تزل قدمي عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين.

وإذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه إلى السماء ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوء وظلمت نفسي، أستغفرك وأتوب إليك فاغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني صبورا شكورا واجعلني أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا.

وفرائض الوضوء: النية عند غسل الوجه، وحد الوجه تستطيع الوجه إلى منتهى الذقن. وما ظهر من اللحية، وما استرسل منها، من مبتدأ ومن الأذن عرضا، ويدخل في الغسل البياض الذي بين الأذنين واللحية، وموضع الصلع، وما انحسر عنه الشعر، وهما النزعتان من الرأس.

ويستحب غسلهما مع الوجه، ويوصل الماء إلى شعر التحذيف، وهو القدر الذي يزيله النساء من الوجه، ويوصل الماء إلى العنفقة والشارب والحاجب والعذار، وما عدا ذلك لا يجب، ثم اللحية إن كانت خفيفة يجب إيصال الماء إلى البشرة.

وحد الخفيف أن ترى البشرة من تحته، وإن كانت كثيفة فلا يجب، ويجتهد في تنقية مجتمع الكحل من مقدم العين.

الواجب الثالث: غسل اليدين إلى المرفقين، ويجب إدخال المرفقين في الغسل، ويستحب غسلهما إلى انصاف العضدين، وإن طالت الأظافر حتى خرجت من رءوس الأصابع يجب غسل ما تحتها على الأصح.

الواجب الرابع: مسح الرأس ويكفى ما يطلق عليه اسم المسح، واستيعاب الرأس بالمسح سنة، وهو أن يلصق رأس أصابع اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدم الرأس، ويمدهما إلى القفا، ثم يردهما إلى الموضع الذى بدأ منه، وينصف بلل الكفين مستقبلا ومستدبرا.

الواجب الخامس: غسل القدمين، ويجب إدخال الكعبين فى الغسل، ويستحب غسلهما إلى انصاف الساقين، ويقنع غسل القدمين من الكعبين، ويجب تخليل الأصابع الملتفة، فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم، ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ويختم بخنصر اليسرى.

وإن كان فى الرجل شقوق يجب إيصال الماء إلى باطنها، وإن ترك فيها عجينا أو شحما يجب إزالة عين ذلك الشيء.

الواجب السادس: الترتيب على النسق المذكور فى كلام الله تعالى.

الواجب السابع: التتابع فى القول القديم عند الشافعى رحمه الله تعالى. وحد التفريق الذى يقطع التتابع نشاف العضو مع اعتدال الهواء.

وسنن الوضوء ثلاثة عشر: التسمية فى أول الطهارة، وغسل اليدين إلى الكوعين، والمضمضة، والاستنشاق، والمبالغة فيهما، فيغرغر فى المضمضة حتى يرد الماء إلى الغلصمة، ويستمد فى الاستنشاق الماء بالنفس إلى الخياشيم، ويرفق فى ذلك إن كان صائما.

وتخليل اللحية الكثيفة، وتخليل الأصابع المنفرجة، والبدء بالميامن، وإطالة الغرة، واستيعاب الرأس بالمسح، ومسح الأذنين، والتثليث، وفي القول الجديد التتابع. ويجتنب أن يزيد على الثلاثة ولا ينفض اليد، ولا يتكلم في أثناء الوضوء، ولا يلطم وجهه بالماء لطما.

وتجديد الوضوء مستحب بشرط أن يصلي بالوضوء ما تيسر، وإلا فمكروه.

الباب الخامس والثلاثون
فى آداب أهل الخصوص والصوفية فى الوضوء
آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الأحكام

آدابهم فى الوضوء: حضور القلب فى غسل الأعضاء.

سمعت بعض الصالحين يقول: إذا حضر القلب فى الوضوء يحضر فى الصلاة، وإذا دخل السهو فيه دخلت الوسوسة فى الصلاة.

ومن آدابهم: استدامة الوضوء سلاح المؤمن. والجوارح إذا كانت فى حماية الوضوء الذى هو أثر شرعى يقل طروق الشيطان عليها.

قال عدى بن حاتم: ما أقيمت صلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء.

وقال أنس بن مالك: قدم النبى ﷺ المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين، فقال لى «يا بنى إن استطعت ألا تزال على الطهارة فافعل فإنه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطى الشهادة».

فشأن العاقل أن يكون أبدا مستعدا للموت، ومن الاستعداد لزوم الطهارة.

وحكى عن الحصرى أنه قال: مهما انتبه من الليل لا يحملنى النوم إلا بعد ما أقوم وأجدد الوضوء لئلا يعود إلى النوم وأنا على غير طهارة.

وسمعت عن صحب الشيخ على بن الهيتمى أنه كان يقعد الليل جميعه، فإن غلبه النوم يكون قاعدا كذلك وكلما انتبه يقول: لا أكون أسأت الأدب، فيقوم ويجدد الوضوء ويصلى ركعتين.

وروى ابو هريرة ان رسول الله ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر ((يا بلال حدثني بارجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة.

. قال ما عملت عملا في الإسلام أرجى عندي انى لم اتطهر طهرا في ساعة ليل او نهار إلى صليت لربي عز وجل بذلك الطهور ما كتب لي ان اصلي)).

ومن آدابهم في الطهارة، ترك الإسراف في الماء، والوقوف على حد العلم.

اخبرنا الشيخ العلام ضياء الدين بعد الوهاب بن على قال انا ابو الفتح الهروي قال انا ابو نصر الترياقي قال اخبرنا ابو محمد الجراحي قال انا ابو العباس المحبوبي قال انا ابو عيسى الترمذي قال حدثنا محمد بن بشار.

قال حدثنا ابو داود قال حدثنا خارجة بن مصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن عن يحيى بن ضمرة السعدي عن ابي بن كعب عن النبي ﷺ انه قال، ((للوضوء شيطان يقال له الولهان، فاتقوا وساوس الماء)).

قال ابو عبد الله الروذباري، إن الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع اعمال بني آدم، فلا يبالي ان يأخذ نصيب بأن يزدادوا فيما امروا به او ينقصوا عنه.

وحكى عن ابن الكرتبي أنه اصابته جنابة ليلة من الليالي، وكانت عليه مرقعة ثخينة غليظة، فجاء إلى الدجلة وكان برد شديد، فحرنت نفسه عن الدخول في الماء لشدة البرد، فطرح نفسه في الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال، عقدت ألا انزعها من بدني حتى تجف علي.

فمكثت عليه شهرا لثخانتها وغلظها. ادب بذلك نفسه لما حرنت عن الائتمار لأمر الله تعالى.

وقيل: إن سهل بن عبد الله كان يحث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلة صبه على الأرض، وكان يرى أن في الإكثار من شرب الماء ضعف النفس، وإماتة الشهوات، وكسر القوة.

ومن أفعال الصوفية الاحتياط في استبقاء الماء للوضوء.

قيل: كان إبراهيم الخواص إذا دخل البادية لا يحمل معه إلا ركوة من الماء، وربما كان لا يشرب منها إلا القليل، يحفظ الماء للوضوء.

وقيل: إنه كان يخرج من مكة إلى الكوفة ولا يحتاج إلى التيمم، يحفظ الماء للوضوء، ويقنع بالقليل للشرب.

وقيل: إذا رأيت الصوفي ليس معه ركوة أو كرز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى.

وحكى عن بعضهم أنه أدب نفسه في الطهارة إلى حد أنه أقام بين ظهراني جماعة من النساك وهم مجتمعون في دار، فما رآه أحد منهم أنه دخل الخلاء لأنه كان يقضي حاجته إذا خلا الموضع في وقت يريد تأديب نفسه.

وقيل: مات الخواص في جامع الري في وسط الماء، وذلك أنه كان به علة البطن، وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه، فدخله مرة ومات فيه، كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة.

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم به قيام، فقام في ليلة واحدة نيفا وسبعين مرة، كل مرة يجدد الوضوء ويصلي ركعتين.

وقيل: إن بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الريح إلا وقت البراز، يراعي الأدب في الخلوات.

واتخاذ المنديل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا إن الوضوء يوزن.

واجازه بعضهم، ودليلهم ما اخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال انا ابو الفتح الهروى قال انا ابو نصر قال انا ابو محمد قال انا ابو العباس قال انا ابو عيسى الترمذى.

قال حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا عبد الوهاب بن وهب عن زيد بن حيان عن ابى معاذ عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت، كان لرسول الله ﷺ خرقة ينشف بها اعضاءه بعد الوضوء.

وروى معاذ بن جبل قال، رايت رسول الله ﷺ إذا توضا مسح وجهه بطرف ثوبه.

واستقصاء الصوفية فى تطهير البواطن من الصفات الرديئة والأخلاق المذمومة، لا الاستقصاء فى طهارة الظاهر إلى حد يخرج عن حد العلم.

وتوضا عمر ﷺ من جرة نصرانية مع كون النصارى لا يحترزون عن الخمر، واجرى الأمر على الظاهر واصل الطهارة.

وقد كان اصحاب رسول الله ﷺ يصلون على الأرض من غير سجادة، ويمشون حفاة فى الطرق، وقد كانوا لا يجعلون وقت النوم بينهم وبين الترب حائلا.

وقد كانوا يقتصرون على الحجر فى الاستنجاء فى بعض الأوقات. وكان امرهم فى الطهارة الظاهرة على التساهل، واستقصاؤهم فى الطهارة الباطنة.

وهكذا شغل الصوفية. وقد يكون فى بعض الأشخاص تشدد فى الطهارة، ويكون مستندا ذلك رعونة النفس، فلو اتسخ ثوبه تحرج ولا يبالى بما فى باطنه من الغل والحقد والكبر والعجب والرياء والنفاق، ولعله ينكر على الشخص لو داس الأرض حافيا مع وجود رخصة الشرع، ولا ينكر عليه ان يتكلم بكلمة غيبة يخرب بها دينه.

وكل ذلك من قلة العلم وترك التأدب بصحبة الصادقين من العلماء الراسخين.

وكانوا يكرهون كثرة الدلك في الاستبراء، لأنه ربما يسترخي العرق ولا يمسك البول، ويتولد منه القطر المفرط.

ومن حكاية المتصوفة في الوضوء والطهارات، أن أبا عمرو الزجاجي جاور بمكة ثلاثين سنة، وكان لا يتغوط في الحرم، ويخرج إلى الحل، وأقل ذلك فرسخ.

وقيل، كان بعضهم على وجهه قرح لم يندمل اثنتي عشرة سنة، لأن الماء كان يضره، وكان مع ذلك لا يدع تجديد الوضوء عند كل فريضة.

وبعضهم نزل في عينه الماء، فحملوا إليه المداوي، وبذلوا له مالا كثيرا ليداويه، فقال المداوي يحتاج إلى ترك الوضوء أياما، ويكون مستلقيا على قفاه، فلم يفعل ذلك، واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء.

الباب السادس والثلاثون
فى فضيلة الصلاة وكبر شأنها

روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما انه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله تعالى جنة عدن، وخلق فيها ما لا عين رات، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال لها تكلمى، فقالت: (قد افلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) ثلاثا».

وشهد القران المجيد بالفلاح للمصلين.

وقال رسول الله ﷺ «اتانى جبريل لدلوك الشمس حي زالت وصلى بى الظهر».

واشتقاق الصلاة قيل فى المصلى وهو النار، والخشبة المعوجة اذا ارادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوم. وفى العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمارة بالسوء، وسبحات وجه الله الكريم التى لو كشف حجابها احرقت من ادركته يصيب بها المصلى من وهج السطوة الإلهية والعظمة الربانية ما يزول به اعوجاجه.

بل يتحقق به معراجه. فالمصلى كالمصطلى بالنار، ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لا يعرض على نار جهنم إلا تحلة القسم.

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين احمد بن إسماعيل القزوينى إجازة قال انا ابو سعيد محمد بن أبى العباس بن محمد بن ابى العباس الخليلى قال انا ابو سعيد الفرخزاذى قال انا ابو إسحاق احمد بن محمد قال انا ابو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن.

قال انا ابو زكريا يحيى بن محمد بن العنبرى قال حدثنا جعفر بن احمد بن الحافظ قال انا أحمد بن نصير قال حدثنا ادم بن أبى اياس عن ابن

سمعان عن العلاء ابن عبد الرحمن عن ابيه عن ابى هريرة ﷺ ان النبى ﷺ قال: «يقول الله عز وجل، قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فإذا قال العبد بسم الله الرحمن الرحيم.

قال الله عز وجل، مجدنى عبدى.

فإذا قال الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى، حمدنى عبدى، فإذا قال الرحمن الرحيم، قال الله تعالى، اثنى على عبدى، فإذا قال مالك يوم الدين، قال فوض إلى عبدى.

فإذا قال، إياك نعبد وإياك نستعين، قال هذا بيني وبين عبدى.

فإذا قال، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال الله تعالى، هذا لعبدى ولعبدى ما سأل».

فالصلاة صلة بين الرب والعبد، وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعا لصولة الربوبية على العبودية.

وقد ورد أن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له، ومن يتحقق بالصلة فى الصلاة تلمع له طوالع التجلى فيخشع. والفلاح للذين هم فى صلاتهم خاشعون، وبانتفاء الخشوع ينتفى الفلاح.

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[1]. وإذا كانت الصلاة للذكر، فكيف يقع فيها النسيان. قال الله تعالى: ﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[2].

فمن قال ولا يعلم ما يقول، فكيف يصلى وقد نهاه الله عن ذلك، فالسكران يقول الشيء لا بحضور عقل، والغافل يصلى لا بحضور عقل، فهو كالسكران.

---

(١) سورة طه، الآية ١٤.
(٢) سورة النساء، الآية ٤٣.

وقيل في غرائب التفسير في قوله تعالى: ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[1] قيل: نعليك همك بامرأتك وغنمك، فالاهتمام بغير الله تعالى سكر في الصلاة.

وقيل، كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، وينظرون يمينا وشمالا، فلما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[2].

جعلوا وجوههم حيث يسجدن، وما رؤي بعد ذلك أحد منهم ينظر إلا إلى الأرض.

وروى أبو هريرة ﷺ عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين يدي الرحمن، فإذا التفت قال له الرب، إلى من تلتفت؟ إلى من هو خير لك مني؟ ابن آدم أقبل إلي فأنا خير لك ممن تلتفت إليه».

وأبصر رسول الله ﷺ رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه».

وقد قال رسول الله ﷺ «إذا صليت فصل صلاة مودع».

فالمصلي سائر إلى الله تعالى بقلبه، يودع هواه ودنياه وكل شيء سواه. والصلاة في اللغة هي الدعاء.

فكان المصلي يدعو الله تعالى بجميع جوارحه، فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعو بها ظاهرا وباطنا، ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والتقلب والهيئات في تملقات متضرع سائل محتاج.

فإذا دعا بكليته أجابه مولاه لأنه وعده فقال: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1].

---

(١) سورة طه، الآية ١٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآية ٢

كان خالد الربعي يقول عجبت لهذه الآية: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ليس بينهما شرط.

والاستجابة والإجابة هي نفوذ دعاء العبد، فإن الداعي الصادق العالم بمن يدعوه بنور يقينه، فتخرق الحجب، وتقف الدعوة بين يدي الله تعالى متقاضية للحاجة.

وخص الله تعالى هذه الأمة بإنزال فاتحة الكتاب، وفيها تقديم الثناء على الدعاء، ليكون أسرع إلى الإجابة، وهي تعليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء.

وفاتحة الكتاب هي السبع المثاني والقرآن العظيم. قيل: سميت مثاني لأنها نزلت على رسول الله ﷺ مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة، وكان لرسول الله ﷺ بكل مرة نزلة منها فهم آخر، بل كان لرسول الله ﷺ بكل مرة يقرؤها على الزياد مع طول الزمان فهم آخر.

وهكذا المصلون المحققون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها، وتقذف لهم كل مرة درر بحارها.

وقيل: سميت مثاني لأنها استثنيت من الرسل وهي سبع آيات.

وروت أم رومان قالت: رآني أبو بكر وأنا أتميل في الصلاة فزجرني زجرا كدت أن أنصرف عن صلاتي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود، فإن سكوت الأطراف من تمام الصلاة».

وقال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: خشوع البدن ونفاق القلب».

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٢.

فأما تميل اليهود، قيل كان موسى يعامل بني إسرائيل على ظاهر الأمور لقلة ما في باطنهم، فكان يهيئ الأمور ويعظمها.

ولهذا المعنى أوحى الله تعالى إليه أن يحلي التوراة بالذهب، ووقع لي والله أعلم أن موسى كان يرد عليه الوارد في صلاته ومحال مناجاته، فيموج به باطنه كبحر ساكن، تهب عليه الريح فتتلاطم الأمواج، فكان تمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب إذا هب عليه نسمات القلب.

وربما كانت الروح تتطلع إلى الحضرة الإلهية فتهم الاستعلاء وللقالب بها تشبك وامتزاج، فيضطرب القلب ويتمايل، فرأى اليهود ظاهرة فتمايلوا من غير حظ لبواطنهم من ذلك.

ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ إنكارا على أهل الوسوسة: «هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بني إسرائيل حتى شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم، لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه، وإن الرجل على صلاته دائم، ولا يكتب له عشرها إذا كان قلبه ساهيا لاهيا».

واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس، وقد قال رسول ﷺ: «الصلاة عماد الدين، فمن ترك الصلاة فقد كفر».

فالصلاة تحقيق العبودية، وأداء حق الربوبية، وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة.

قال سهل بن عبد الله: يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتكميل الفرائض، ويحتاج إلى النوافل لتكميل السنن، ويحتاج إلى الآدب النوافل، ومن الأدب ترك الدنيا.

والذي ذكره سهل هو معنى ما قال عمر على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله صلاة، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقبالها على الله فيها.

وقد ورد في الأخبار، أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه، وواجهه بوجهه الكريم، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه.

وإن المصلي لينتثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المصلي من يناجي ما التفت أو ما انفتل.

وقد جمع الله تعالى للمصلين في كل ركعة ما فرق على أهل السموات، فلله ملائكة في الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة.

وهكذا في السجود والقيام والقعود، والعبد المتيقظ يتصف في ركوعه بصفة الراكعين منهم، وفي السجود بصفة الساجدين، وفي كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم.

وفي غير الفريضة ينبغي للمصلي أن يمكث في ركوعه متلذذا بالركوع، غير مهتم بالرفع منه.

فإن طرقته سآمة بحكم الجبلة استغفر منها، ويستديم تلك الهيئة، ويتطلع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة، ليصير قلبه بلون الهيئة.

وربما يتراءى للراكع المحقق أنه أن سبق همه في حال الركوع أو السجود إلى الرفع منه ما وفى الهيئة حقها، فيكون همه الهيئة، مستغرقا فيها، مشغولا بها عن غيرها من الهيئات فبذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة.

فإن السرعة التي يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتوح، ويقف في هاب النفحات الإلهية، حتى يتكامل حظ العبد فتتمحى آثاره بحسن الاسترسال، ويستقر في مقعد الوصال.

وقيل، في الصلاة اربع هيئات، وستة اذكار. فالهيئات الأربع، القيام، والقعود، والركوع، والسجود.

والأذكار الستة، التلاوة، والتسبيح، والحمد، والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام.

فصارت عشرة كاملة، تفرق هذه العشرة على صفوف من الملائكة فكل صف عشرة الاف، فيجتمع في الركعتين ما يفرق على ما الف من الملائكة.

الباب السابع والثلاثون
فى وصف صلاة أهل القرب

ونذكر فى الفصل كيفية الصلاة بهيئاتها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على الكمال، بأقصى ما ينتهى إليه فهمنا وعلمنا على الوجه، مع الإعراض عن نقل الأقوال فى كل شيء من ذلك.

إذ فى ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والإيجاز المقصود، فنقول وبالله التوفيق:

ينبغى للعبد أن يستعد للصلاة قبل دخول وقتها بالوضوء، ولا يوقع الوضوء فى وقت الصلاة، فذلك من المحافظة عليها.

ويحتاج فى معرفة الوقت إلى معرفة الزوال، وتفاوت الأقدام لطول النهار وقصره.

ويعتبر الزوال بأن الظل مادام فى الانتقاص فهو النصف الأول من النهار، فإذا أخذ الظل فى الازدياد فهو النصف الآخر وقد زالت الشمس.

وإذا عرف الزوال وأن الشمس على كم قدم تزول يعرف أول الوقت وآخره ووقت العصر. ويحتاج إلى معرفة المنازل ليعلم طلوع الفجر ويعلم أوقات الليل، وشرح ذلك يطول ويحتاج أن يفرد له باب.

فإذا دخل وقت الصلاة يقدم السنة الراتبة، ففى ذكر سر، وحكمة ذلك والله أعلم أن العبد تشعث باطنه، وتفرق همه، لما يلى به من المخالطة من الناس، وقيامه بمهام المعاش، أو سهو جرى بوضع الجبلة.

أو صرف هم إلى أكل أو نوم بمقتضى العادة.

فإذا قدم السنة ينجذب باطنه إلى الصلاة، ويتهيأ للمناجاة، ويذهب بالسنة الراتبة أثر الغفلة والكدورة من الباطن، فيتصلح الباطن ويصير مستعداً للفريضة.

فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات، وتطرق النفحات، ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله.

ومن الذنوب عامة وخاصة، فالعامة، الكبائر والصغائر مما أومأ إليه الشرع، ونطق به الكتاب والسنة، والخاصة ذنوب حال الشخص، فكل عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرفها صاحبها. وقيل، حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ثم لا يصلي إلا جماعة. قال رسول الله ﷺ «تفضل صلاة الجماعة صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة».

ثم يستقبل القبلة بظاهره، والحضرة الإلهية باطنه، ويقرأ قل أعوذ برب الناس، ويقرأ في نفسه آية التوجه.

وهذا التوجه قبل الصلاة، والاستفتاح قبل الصلاة لوجهه الظاهر بانصرافه إلى القبلة، وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة، ثم يرفع يديه حذو منكبيه، بحيث تكون كفاه حذو منكبيه، وإبهاماه عند شحمة أذنيه، ورءوس الأصابع مع الأذنين، ويضم الأصابع، وإن نشرها جاز، والضم أولى.

فإنه قيل، النشر نشر الكف لا نشر الأصابع.

ويكبر، ولا يدخل بين باء أكبر وراءه ألفا، ويجزم أكبر، ويجعل المد في الله، ولا يبالغ في ضم الهاء من الله ولا يبتدئ بالتكبير إذا استقرت اليدان حذو المنكبين، ويرسلهما مع التكبير من غير نفض.

فالوقار إذا سكن القلب تشكلت به الجوارح وتأيدت بالأولى والأصوب، ويجمع بين نية الصلاة والتكبير، بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلي الصلاة بعينها.

وحكى عن الجنيد أنه قال: لكل شيء صفوة وصفة الصلاة التكبيرة الأولى.

وإنما كانت التكبيرة صفوة لأنها موضع النية وأول الصلاة.

قال أبو نصر السراج: سمعت ابن سالم يقول: النية بالله لله ومن الله، والآفات التي تدخل في صلاة العبد بعد النية من العدو، ونصيب العدو وإن كثر لا يوازن بالنية التي هي لله بالله وإن قل.

وسئل أبو سعيد الخراز: كيف الدخول في الصلاة؟ فقال: هو أن تقبل على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة، ووقوفك بين يدي الله ليس بين يدي الله ليس بينك وبين ترجمان، وهو مقبل عليك، وأنت تناجيه وتعلم بين يدي من أنت واقف، فإنه الملك العظيم.

وقيل لبعض العارفين: كيف تكبر التكبيرة الأولى؟

فقال: ينبغي إذا قلت الله أكبر أن يكون مصحوبك في الله التعظيم مع الألف، والهيبة مع اللام، والمراقبة والقرب مع الهاء.

واعلم أن من الناس من إذا قال الله أكبر غاب في مطالعة العظمة والكبرياء، وامتلأ باطنه نوراً، وصار الكون بأسره في فضاء شرح صدره كخردلة بأرض فلاة، ثم تلقى الخردلة فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس، وما يتخايل في الباطن من الكون الذي صار بمثابة الخردلة فألقيت فكيف تزاحم الوسوسة، وحديث النفس مثل هذا العبد.

وقد تزاحم مطالعة العظمة والغيبوبة فى ذلك كون النية غير انه لغاية لطف الحال يختص الروح بمطالعة العظمة.

والقلب يتميز بالنية فتكون النية موجودة بالطف صفاتها، مندرجة فى نور العظمة اندراج الكواكب فى ضوء الشمس، ثم يقبض بيده اليمنى يده اليسرى ويجعلها بين السرة والصدر، واليمنى لكرامتها تجعل فوق اليسرى، ويمد المسبحة والوسطى على الساعد، ويقبض بالثلاثة البواقى اليسرى من الطرفين.

وقد فسر امير المؤمنين على ﷺ قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾[1]. قال إنه وضع اليمنى على الشمال تحت الصدر، وذلك أن تحت الصدر عرقا يقال له الناحر، اى ضع يدك على الناحر.

وقال بعضهم: (وانحر) اى استقبل القبلة بنحرك.

وفى ذلك سر خفى يكاشف به من وراء أستار الغيب، وذلك أن الله تعالى بلطيف حكمته خلق الآدمى وشرفه وكرمه، وجعله محل نظره ومورد وحيه، ونخبة ما فى أرضه وسمائه روحانيا وجسمانيا، أرضيا سماويا منتصب القامة.

مرتفع الهيئة، فنصفه الأعلى من حسد الفؤاد مستودع أسرار السموات، ونصفه الأسفل مستودع اسرار الأرض، فمحل نفسه ومركزها النصف الأسفل، ومحل روحه الروحانى والقلب والنصف الأعلى.

فجواذب الروح مع جواذب النفس يتطاردان ويتجاذبان، وباعتبار تطاردهما وتغالبهما تكون لمة الملك ولمة الشيطان.

---

(١) سورة الكوثر، الآية ٢.

ووقت الصلاة يكثر التطارد لوجود التجانب بين الإيمان والطبع، فيكاشف المصلي الذي صار قلبه سماويا مترددا بين الفناء والبقاء لجوانب النفس، متصاعدة من مركزها.

وللجوارح وتصرفها وحركتها مع معاني الباطن ارتباط وموازنة، فيوضع اليمنى على الشمال حصر النفس، ومنع من صعود جوانبها. وأثر ذلك يظهر بدفع الوسوسة، وزوال حديث النفس في الصلاة.

ثم إذا استوت جوانب الروح، وتملكت من الغرق إلى القدم عند كمال الأنس، وتحقق قرة العين واستيلاء سلطان المشاهدة، تصير النفس مقهورة ذليلة، ويستنير مركزها بنور الروح، وتنقطع حينئذ جوانب النفس.

وعلى قدر استنارة مركز النفس يزول كل العادة، ويستغني حينئذ عن مقاومة النفس ومنع جوانبها بوضع اليمين على الشمال، فيسهل حينئذ.

ولعل ذلك الله أعلم ما نقل عن رسول الله ﷺ أنه كان مسبلا، وهو مذهب مالك رحمه الله.

ثم يقرأ: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾[1] الآية. وهذا التوجه إبقاء لوه قلبه، والذي قبل الصلاة لوجه قالبه. ثم يقول: سبحانك الله وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي.

فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك فالخير كله بيديك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٧٩.

ويطرق رأسه في قيامه، ويكون نظره إلى موضع السجود، ويكمل القيام بانتصاب القامة ونزع يسير الانطواء عن الركبتين والخواصر ومعاطف البدن، ويقف كأنه ناظر بجميع جسده إلى الأرض، فهذا من خشوع سائر الأجزاء.

ويتكون الجسد بتكون القلب من الخشوع، ويراوح بين القدمين بمقدار أربع أصابع، فإن ضم الكعبين هو الصفد المنهي عنه، ولا يرفع إحدى الرجلين فإنه الصفن المنهي عنه. نهى رسول الله ﷺ عن الصفن والصفد. وإذا كان الصفن منهيا عنه ففي زيادة الاعتماد على إحدى الرجلين دون الأخرى معنى من الصفن، فالأولى رعاية الاعتدال في الاعتماد على الرجلين جميعا، ويكره اشتمال الصماء.

وهو أن يخرج يده من قبل صدره، ويجتنب السدل، وهو أن يرخي أطراف الثوب إلى الأرض، ففيه معنى الخيلاء، وقيل هو الذي يلتفت بالثوب ويجعل يديه من داخل، فيركع ويسجد كذلك. وفي معناه ما إذا جعل يديه داخل القميص.

ويجتنب الكف، وهو أن يرفع ثيابه بيده عند السجود.

ويكره الاختصار، وهو أن يجعل يده على الخاصرة.

ويكره الصلب، وهو وضع اليدين جميعا على الخصرين وتجافي العضدين.

فإذا وقف في الصلاة على الهيئة التي ذكرناها مجتنبا للمكاره فقد تمم القيام وكمله، فيقرأ آية التوجه والدعاء كما ذكرناه ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقولها في كل ركعة أمام القراءة، ويقرأ الفاتحة وما بعدها بحضور قلب وجمع هم.

ومواطأة بين القلب واللسان، بحظ وافر من الصلة والدنو، والهيبة والخشوع، والخشية والتعظيم والوقار، والمشاهدة والمناجاة. وإن قرأ بين الفاتحة وما يقرأ بعدها إذا كان إماما في السكتة الثانية: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب.

ونقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد، فحسن، وإن قالها في السكتة الأولى فحسن.

روى عن النبي عليه السلام أنه قال ذلك. وإن كان منفردا يقولها قبل القراءة.

ويعلم العبد أن تلاوته نطق اللسان، ومعناها نطق القلب. وكل مخاطب لشخص يتكلم بلسانه، ولسانه يعبر عما في قلبه، ولو أمكن المتكلم إفهام من يكلمه من غير لسان فعل، ولكن حيث تعذر الإفهام إلا بالكلام جعل اللسان ترجمانا.

فإذا قال باللسان من غير مواطأة القلب فما اللسان ترجمانا، ولا القارئ متكلما قاصدا إسماع الله حاجته، ولا مستمعا إلى الله فاهما عنه سبحانه ما يخاطبه، وما عنده غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد ما يقول.

فينبغي أن يكون متكلما مناجيا أو مستمعا واعيا، فأقل مراتب أهل الخصوص في الصلاة الجمع بين القلب واللسان في التلاوة، ووراء ذلك أحوال للخواص يطول شرحها.

قال بعضهم: ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها غير ما أقول.

وقيل لعامر بن عبد الله: هل تجد في الصلاة شيئا من أمور الدنيا؟ فقال: لأن تختلف على الأسنة أحب إلي من أن أجد في الصلاة ما تجدون.

وقيل لبعضهم: هل تحدث نفسك فى الصلاة بشيء من أمور الدنيا؟ فقال: لا فى الصلاة ولا فى غيرها.

ومن الناس من إذا أقبل على الله فى صلاته يتحقق بمعنى الإنابة، لأن الله تعالى قدم الإنابة وقال ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[1]. فينيب إلى الله تعالى ويتقى الله تعالى بالتبرى عما سواه.

ويقيم الصلاة بصدر منشرح بالإسلام، وقلب منفتح بنور الإنعام، فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه، ويسمعها بقلبه، فتقع الكلمة فى فضاء قلب ليس فيه غيرها، فيتملكها القلب بحسن الفهم، ولذيذ نعمة الإصغاء ويتشربها بحلاوة الاستماع وكمال الوعى، ويدرك لطيف معناها وشريف فحواها.

معانى تلطف عن تفصيل الذكر، وتتشكل بخفى الفكر، ويصير الظاهر من معانى القرآن قوت النفس.

فالنفس المطمئنة متعوضة بمعانى القرآن عن حديثها، لكونها معانى ظاهرة متوجهة إلى عالم الحكمة والشهادة، تقرب مناسبتها من النفس المكونة لإقامة رسم الحكمة.

ومعانى القرآن الباطنة التى يكاشف بها من الملكوت قوت القلب، وتختص إلى الروح المقدس إلى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم، وبمثل هذه المطالعة يكون كمال الاستغراق فى لجج الأشواق.

كما نقل عن مسلم بن يسار أنه صلى ذات يوم فى مسجد البصرة فوقعت اسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق وهو واقف فى الصلاة لم يعلم بذلك.

---

(١) سورة الروم، الآية ٣١

ثم إذا أراد الركوع يفصل بين القراءة والركوع، ثم يرجع مستوى القامة والنصف الأسفل بحاله في القيام من غير انطواء الركبتين، ويجافي مرفقيه عن جنبيه، ويمد عنقه مع ظهره، ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الأصابع.

روى مصعب بن سعد قال: صليت إلى جنب سعد بن مالك فجعلت يدي بين ركبتي وبين فخذي وطبقتهما، فضرب بيدي وقال اضرب بكفيك على ركبتيك، وقال يا بني إنا كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نضرب بالأكف على الركب.

ويقول: سبحان ربي العظيم ثلاثا، وهو أدنى الكمال، والكمال أن يقول إحدى عشرة، وما يأتي به من العدد يكون بعد التمكن من الركوع، ومن غير أن يمزج آخر ذلك بالرفع، ويرفع يديه للركوع والرفع من الركوع.

ويكون في ركوعه ناظرا نحو قدميه، فهو أقرب إلى الخشوع من النظر إلى موضع السجود، وإنما ينظر إلى موضع سجوده في قيامه، ويقول بعد التسبيح: اللهم لك ركعت، ولك خشعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري وعظمي ومخي وعصبي، ويكون قلبه في الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والإخبات، ثم يرفع رأسه قائلا: سمع الله لمن حمده، عالما بقلبه ما يقول؟

فإذا استوى قائما يحمد ويقول ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، ثم يقول: أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد؟

فإن أطال في النافلة القيام بعد الرفع من الركوع فليقل لربي الحمد، مكررا ذلك مهما شاء، فأما في الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحد زيادة بينة، ويقنع في الرفع من الركوع بتمام الاعتدال بإقامة الصلب.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا ينظر الله إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود».

ثم يهوى ساجدا، ويكون فى هوية مكبرا مستيقظا حاضرا خاشعا عالما بما يهوى فيه وإليه وله. فمن الساجدين من يكاشف له بهوى إلى تخوم الأرضين، متغيبا فى أجزاء الملك لامتلاء قلبه من الحياء، واستشعار روحه عظيم الكبرياء.

كما ورد أن جبريل عليه السلام تستر بخافية من جناحه حياء من الله تعالى. ومن الساجدين من يكاشف أنه يطوى بسجوده بساط الكون والمكان، ويسرح قلبه فى فضاء الكشف والعيان، فيهوى دون هوية أطباق السموات، وتتمحى لقوة لشهوده تماثيل الكائنات، ويسجد على طرف رداء العظمة، وذلك أقصى ما ينتهى إليه طائر الهمة البشرية، وتفى بالوصول إليه القوى الإنسانية، ويتفاوت الأنبياء والأولياء فى مراتب العظمة، واستشعار كنهها، لكل منهم على قدره حظ من ذلك، وفوق كل ذى علم عليم.

ومن الساجدين من يتسع وعاؤه، وينتشر ضياؤه، ويحظى بالصنفين، ويبسط الجناحين، فيتواضع بقلبه إجلالا، ويرفع بروحه إكراما وإفضالا، فيجتمع له الأنس والهيبة، والحضور والغيبة، والفرار والقرار، والإسرار والجهار.

فيكون فى سجوده سابحا فى بحر شهوده، لم يتخلف منه عن السجود شعرة، كما قال سيد البشر فى سجوده «سجد لك سوادى وخيالى» ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[1]. الطوع للروح والقلب لما فيه من الأهلية، والكره من النفس لما فيه من الأجنبية.

---

(١) سورة الرعد، الآية ١٥

ويقول في سجوده، سبحان ربي الأعلى ثلاثا إلى العشر الذي هو الكمال، ويكون في السجود مفتوح العينين، لأنهما يسجدان.

وفي الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه، ويكون ناظرا نحو أرنبة أنفه في السجود، فهو أبلغ في الخشوع للساجد، ويباشر بكفيه المصلى، ولا يلفهما في الثوب، ويكون رأسه بين كفيه، ويداه حذو منكبيه، غير متيامن ومتياسر بهما.

ويقول بعد التسبيح، اللهم لك سجدت وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وروى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده ذلك. وإن قال «سبوح قدوس رب الملائكة والروح» فحسن.

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده ذلك. ويجافي مرفقيه عن جنبيه، ويوجه أصابعها في السجود نحو القبلة، ويضم أصابع كفيه مع الإبهام، ولا يفرش ذراعيه على الأرض، ثم يرفع رأسه مكبرا، ويجلس على رجله اليسرى، وينصب اليمنى موجها بالأصابع إلى القبلة، ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف ضمهما وتفريجهما.

ويقول، رب اغفر لي، وارحمني، واهدني، واجبرني، وعافني، واعف عني، ولا يطيل هذه الجلسة في الفريضة، أما في النافلة فلا بأس مهما أطال قائلا، رب اغفر وارحم مكررا ذلك.

ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا.

ويكره الإقعاء في القعود، وهو ههنا أن يضع أليتيه على عقبيه

ثم إذا أراد النهوض إلى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة، ويفعل في بقية الركعات هكذا ثم يتشهد.

وفى الصلاة سر المعراج، وهو معراج القلوب، والتشهد مقر الوصول بعد قطع مسافات الهيئات على تدريج طبقات السموات والتحيات سلام على رب البريات، فليذهبن لما يقول، ويتأدب مع من يقول، ويدور كيف يقول، ويسلم على النبى ﷺ، ويمثله بين عينى قلبه، ويسلم على عباد الله الصالحين.

فلا يبقى عبد فى السماء ولا فى الأرض من عباد الله إلا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصية الفطرية، ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى مقبوضة الأصابع إلا المسبحة، ويرفع المسبحة فى الشهادة فى إلا الله لا فى كلمة النفى، ولا يرفعها منتصبة بل مائلة برأسها إلى الفخذ منطوية، فهذه هيئة خشوع المسبحة.

ودليل سراية خشوع القلب إليها. ويدعو فى آخر صلاته لنفسه وللمؤمنين، إن كان إماما ينبغى أن لا ينفرد بالدعاء بل يدعو لنفسه ولمن ورائه، فإن الإمام المتيقظ فى الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراءه أصحاب الحوائج يسأل لهم ويعرض حاجاتهم، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا.

وبهذا وصفهم الله تعالى فى كلامه بقوله سبحانه ، ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝ ﴾[1].

وفى وصف هذه الأمة فى الكتب السالفة صفهم فى صلاتهم كصفهم فى قتالهم.

حدثنا بذلك شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء قال أنا أبو عبد الرحمن محمد بن عيسى بن شعيب الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد المظفر الواعظ قال أنا محمد عبد الله بن أحمد السرخسى قال أنا أبو عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى قال أنا أبو محمد

---

(١) سورة الصف الآية ٤

عبد الله ابن عبد الرحمن الدارمي قال أنا مجاهد بن موسى قال حدثنا معن هو ابن عيسى انه سأل كعب الأحبار كيف تجد نعت رسول الله ﷺ فى التوراة؟

قال، نجد محمد بن عبد الله يولد بمكة، ويهاجر لطيبة، ويكون ملكه بالشام، وليس بفحاش ولا سخاب فى الأسواق، ولا يكافئ بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، أمته الحمادون، يحمدون الله فى كل سراء، ويكبرون الله على كل نجد، يوضئون أطرافهم، ويأتزرون فى أوساطهم، يصفون فى صلاتهم كما يصفون فى قتالهم، دويهم فى مساجدهم كدوى النحل، يسمع مناديهم فى جو السماء.

فالإمام فى الصلاة مقدمة الصف فى محاربة الشيطان، فهو أولى المصلين بالخشوع والإتيان بوظائف الأدب ظاهرا وباطنا.

والمصلون المتيقظون كلما اجتمعت ظواهرهم تجتمع بواطنهم، وتتناصر وتتعاضد، وتسرى من البعض إلى البعض أنوار وبركات، بل جميع المسلمين المصلين فى أقطار الأرض بينهم تعاضد وتناصر بحسب القلوب ونسب الإسلام ورابطة الإيمان، بل يمدهم الله تعالى بالملائكة الكرام كما أمد رسول الله ﷺ بالملائكة المؤمنين.

فحاجاتهم إلى محاربة الشيطان أمس من حاجاتهم إلى محاربة الكفار، ولهذا كان يقول رسول الله ﷺ «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» فتدركهم الأملاك، بل بأنفاسهم الصادقة تتماسك الأفلاك، فإذا أراد الخروج من الصلاة يسلم على يمينه وينوى مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على الملائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمنى الجن.

ويجعل خده مبينا لمن على يمينه بالتواء عنقه، ويفصل بين هذا السلام والسلام عن يسار، فقد ورد النهى عن المواصلة، والمواصلة خمس، اثنان

تختص بالإمام، وهو ألا يوصل القراءة بالتكبير، والركوع بالقراءة. واثنان على المأموم، وهو ألا يوصل تكبيره الإحرام بتكبيره الإمام، ولا تسليمه بتسليمه، وواحدة على الإمام والمأمومين، وهو أن يوصل تسليم الفرض بتسليم النفل، ويجزم التسليم ولا يمد مدا.

ثم يدعو بعد التسليم بما شاء من أمر دينه ودنياه، ويدعو قبل التسليم أيضا في صلب الصلاة فإنه يستجاب.

ومن أقام الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة. وكل المقامات والأحوال زينتها الصلوات الخمس في جماعة، وهي سر الدين، وكفارة المؤمن، وتمحيص للخطايا على ما أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام ضياء الدين أبو النجيب السهروردي رحمه الله إجازة.

قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون قال لنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أنا أبو عمر محمد بن العباس بن زكريا قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي قال أنا عبد الله بن المبارك.

قال أنا يحيى بن عبد الله قال سمعت أبي يقول: سمعت أبا هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ ((الصلوات الخمس كفارات للخطايا، واقرءوا إن شئتم ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾[1].

(١) سورة هود، الآية ١١٤

الباب الثامن والثلاثون
في ذكر آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آدب المصلى أن لا يكون مشغول القلب بشيء قل أو كثر، لأن الأكياس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما أمروا.

لأن الدنيا واشتغالها لما كانت شاغلة للقلب رفضوها غيرة على محل المناجاة، ورغبة في أوطان القربات، وإذعانا بالباطن لرب المربات، لأن حضور الصلاة بالظاهر إذعان الظاهر، وفراغ القلب في الصلاة عما سوى الله تعالى إذعان الباطن.

فلم يروا حضور الظاهر وتخلف الباطن، حتى لا يختل إذعانهم، فتنخرم عبوديتهم، فيجتنب أن يكون باطنه مرهنا بشيء ويدخل الصلاة.

وقيل: من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة، ولهذا ورد «إذا حضر العشاء والعشاء فقدموا العشاء على العشاء».

ولا يصلي وهو حاقن يطالبه البول، ولا حازق يطالبه الغائط، والحزق أيضا ضيق الخلق. ولا يصلي أيضا من وخفه ضيق يشغل قلبه.

فقد قيل: لا رأى لحازق. قيل: الذي يكون معه ضيق.

وفي الجملة: ليس من الأدب أن يصلي وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التي ذكرناها والاهتمام للفرط والغضب.

وفي الخبر: لا يدخل أحدكم في الصلاة وهو مقطب، ولا يصلين أحدكم وهو غضبان.

فلا ينبغي أن يتلبس بالصلاة إلا وهو على أتم الهيئات.

واحسن لبسة للمصلى سكون الأطراف، وعدم الالتفات، والإطراق، ووضع اليمين على الشمال، فما أحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدى ملك عزيز

وفى رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز، وأرباب العزيمة يتركون الحركة فى الصلاة جملة.

وقد حركت يدى فى الصلاة وعندى شخص من الصالحين، فلما انصرفت من الصلاة انكر على وقال: عندنا أن العبد إذا وقف فى الصلاة ينبغى أن يبقى جمادا لا يتحرك منه شيء.

وقد جاء فى الخبر: سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان: الرعاف، والنعاس، والوسوسة، والتثاؤب، والحكاك، والالتفات، والعبث بالشيء من الشيطان أيضا وقيل: السهو والشك.

وقد روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إن الخشوع فى الصلاة الا يعرف المصلى من على يمينه وشماله.

ونقل عن سفيان انه قال: من لم يخشع فسدت صلاته.

وروى عن معاذ بن جبل أشد من ذلك قال: من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمدا فلا صلاة له.

وقال بعض العلماء: من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة. قال بعضهم: لأن ذلك عدوه عملا

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[1].

قيل: هو سكون الأطراف والطمأنينة.

---

(١) سورة المعارج: الآية ٢٣.

قال بعضهم: إذا كبرت التكبيرة الأولى فاعلم أن الله ناظر إلى شخصك، عالم بما فى ضميرك، ومثل فى صلاتك الجنة عن يمينك، والنار عن شمالك.

وإنما ذكرنا أن تمثل الجنة والنار لأن القلب إذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه الوسواس، فيكون هذا التمثيل تداويا للقلب لدفع الوسوسة.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة قال أنبأنا عمر ابن أحمد الصفار قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا الحسين الفارسى يقول سمعت محمد بن الحسين يقول.

قال سهل: من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان، فأما من باشر باطنه صفو اليقين ونور المعرفة، فيستغنى بشاهده عن تمثيل مشاهده.

قال أبو سعيد الخراز: إذا ركع فالأدب فى ركوعه أن ينتصب ويدنو ويتدلى فى ركوعه حتى لا يبقى منه مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش العظيم، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون فى قلبه شيء أعظم من الله تعالى، ويصغر فى نفسه حتى يكون أقل من الهباء.

وإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك.

وقال أيضا: ويكون معه فى الخشية ما يكاد يذوب به.

قال السراج: إذا أخذ العبد فى التلاوة فالأدب فى ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى، أو كأنه يقرأ على الله تعالى.

وقال السراج أيضا: من أدبهم قبل الصلاة المراقبة، ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض، ونفى كل شيء غير الله تعالى.

فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة، فيكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا في الصلاة بهما، فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب، فكأنهم أبدا في الصلاة، فهذا هو أدب الصلاة.

وقيل: كان بعضهم لا يتهيأ له حفظ العدد من كمال استغراقه، وكان يجلس واحد من أصحابه يعدد عليه كم ركعة صلى.

وقيل: للصلاة أربع شعب: حضور القالب في المحراب، وشهود العقل عند الملك الوهاب، وخشوع القلب بلا ارتياب، وخضوع الأركان بلا ارتقاب.

لأن عند حضور القلب رفع الحجاب، وعند شهود العقل رفع العتاب، وعند حضور النفس فتح الأبواب، وعند خضوع الأركان وجود الثواب.

فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصل لاه، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مصل ساه، ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مصل خاطئ، ومن أتاها بلا خشوع الأركان فهو مصل جاف، ومن أتاها كما وصف فهو مصل واف.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «إذا قام العبد إلى الصلاة المكتوبة، مقبلا على الله بقلبه وسمعه وبصره، انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

وإن الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصابها، وبغسل يديه خطيئة أصابها، وبغسل رجليه خطيئة أصابها، حتى يدخل في صلاته وليس عليه وزر».

وذكرت السرقة عند رسول الله ﷺ فقال: «أي السرقة أقبح فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: إن أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته، قالوا:

كيف يسرق الرجل من صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها».

وروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قدم للإمامة فقال: لا أصلح، فلما ألحوا عليه كبر فغشي عليه، فقدموا إماما آخر، فلما أفاق سئل فقال: لما قلت استووا هتف بي هاتف هل استويت أنت مع الله قط.

وقال عليه السلام «إن العبد إذا أحسن الوضوء، وصلى الصلاة لوقتها، وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها، قالت: حفظك الله كما حفظتني، ثم صعدت ولها نور حتى تنتهي إلى السماء.

وحتى تصل إلى الله فتشفع لصاحبها، وإذا أضاعها قالت: ضيعك الله كما ضيعتني، ثم صعدت ولها ظلمة حتى تنتهي إلى أبواب السماء فتغلق دونها، ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها».

وقال أبو سليمان الدراني: إذا وقف العبد في الصلاة يقول الله تعالى: «ارفعوا الحجب فيما بيني وبين عبدي، فإذا التفت يقول الله: أرخوها فيما بيني وبينه، وخلوا عبدي وما اختار لنفسه».

وقال أبو بكر الوراق: ربما أصلي ركعتين فانصرف منهما وأنا أستحي من الله حياء رجل انصرف من الزنا. قوله هذا لعظيم الأدب عنده. ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب.

وقيل لموسى بن جعفر: إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بممرهم بين يديك، قال: إن الذي أصلي له أقرب إلى من الذي يمشي بين يدي.

وقيل: كان زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يعرف من تغير لونه، فيقال له ذلك فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقف؟.

وروى عمار بن يسار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما يعقل».

قد ورد في لفظ آخر «منكم من يصلي الصلاة كاملة، ومنكم من يصلي النصف، والثلث، والربع، والخمس، حتى يبلغ العشر».

وقال الخواص: ينبغي للرجل أن ينوي نوافله لنقصان فرائضه، فإن لم ينوها لم يحسب له منها شيء.

بلغنا أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة. يقول الله تعالى: «بدأ بالهدية قبل قضاء الدين».

وقال أيضا: انقطع الخالق عن الله تعالى بخصلتين: إحداهما أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض، والثانية أنهم عملوا أعمالا بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها.

وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملا إلا بالصدق وإصابة الحق.

وفتح العين في الصلاة أولى من تغميض العين، إلا أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع.

وإن تثاءب في الصلاة يضم شفتيه بقدر الإمكان، ولا يلزق ذقنه بصدره، ولا يزاحم في الصلاة غيره.

قيل: ذهب المزحوم بصلاة المزاحم.

وقيل: من ترك الصف الأول مخافة أن يضيق على أهله فقام في الثاني لأعطاه الله مثل ثواب الصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

وقيل: إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل.

وروت عائشة رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل، حتى كان يسمع فى بعض سكك المدينة.

وسئل الجنيد، ما فريضة الصلاة؟ قال: قطع العلائق، وجمع الهم، والحضور بين يدى الله.

وقال الحسن: ماذا يعز عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء فقال «إذا دخلت الصلاة فهب لى من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع، فإنى قريب».

وقال ابو الخير الأقطع، رأيت رسول الله ﷺ فى المنام.

فقلت يا رسول الله اوصنى، فقال «يا ابا الخير عليك بالصلاة فإنى استوصيت ربى فأوصانى بالصلاة وقال لى إن اقرب ما اكون وأنت تصلى».

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ركعتان فى تفكر خير من قيام ليلة.

وقيل إن محمد بن يوسف الفرغانى رأى حاتما الأصم واقفا يعظ الناس فقال له يا حاتم أراك تعظ الناس أفتحسن ان تصلى؟

قال: نعم.

قال: كيف تصلى؟

قال: أقوم بالأمر، وأمشى بالخشية، وادخل بالهيبة، وأكبر بالعظمة واقرأ بالترتيل، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، واقعد للتشهد بالتمام، واسلم على السنة، وأسلمها إلى ربى، وأحفظها أيام حياتى، وارجع باللوم على نفسى، وأخاف ألا تقبل منى، وأرجو ان تقبل منى، وانا بين الخوف والرجاء، وأشكر من علمنى، وأعلمها من سألنى، وأحمد ربى إذ هدانى.

فقال محمد بن يوسف: مثلك يصلح أن يكون واعظاً.

وقوله تعالى: ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾[1].

قيل: من حب الدنيا، وقيل من الاهتمام.

وقال عليه السلام: «من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه».

وقال «إن الصلاة تمسكن وتواضع، وتضرع وتنادم، وترفع يديك وتقول اللهم اللهم، فمن لا يعمل ذلك فهي خداج» أي ناقصة.

وقد ورد أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان في أقطار الأرض خوفاً منه، لأنه تأهب للدخول على الملك، فإذا كبر حجب عنه إبليس.

قيل: يضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه، فإذا قال الله أكبر، اطلع ذلك في قلبه، فإذا لم يسكن في قلبه أكبر من الله تعالى يقول صدقت الله في قلبك كما تقول، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش.

ويكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات.

وإن الجاهل الغافل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشياطين، كما تحتوش الذباب على نقطة العسل، فإذا كبر اطلع الله على قلبه، فإذا كان شيء في قلبه أكبر من الله تعالى عنده يقول له كذبت ليس الله تعالى أكبر في قلبك كما تقول.

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٣.

فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه من الملكوت، فيزداد ذلك الحجاب صلابة، ويلتقم الشيطان قلبه، فلا يزال ينفخ فيه، وينفث ويوسوس إليه ويزين، حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه.

وفي الخبر «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء».

والقلوب الصافية التي كمل أدبها لكمال أدب قوالبها، تصير سماوية تدخل بالتكبير في السماء كما تدخل في الصلاة، والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين، فالقلب السماوي لا سبيل للشيطان إليه، فتبقى هواجس نفسانية عند ذلك لا تنقطع بالتحصن بالسماء كانقطاع تصرف الشيطان.

والقلوب المرادة بالقرب تدرج بالتقريب، وتعرج في طبقات السموات، وفي كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شيء من ظلمة النفس، وبقدر ذلك يقل الهاجس إلى أن يتجاوز السموات، ويقف أمام العرش، فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش.

وتندرج ظلمات النفس في نور القلب اندراج الليل في النهار، وتتأدى حينئذ حقوق الأدب على وجه الصواب.

وما ذكرنا من أدب الصلاة يسير من كثير، وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكمل من ذكرنا، وقد غلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى.

وإذا حصل الذكر فأي حاجة إلى الصلاة، وسلكوا طرقا من الضلال، وركنوا إلى أباطيل الخيال، ومحوا الرسوم والأحكام ورفضوا الحلال والحرام.

وقوم آخرون سلكوا في ذلك طريقا أدتهم إلى نقصان الحال، حيث سلموا من الضلال، لأنهم اعترفوا بالفرائض، وأنكروا فضل النوافل واغتروا بيسير روح الحال، أعملوا فضل الأعمال، ولم يعلموا أن لله في كل هيئة من الهيئات، وكل حركة من الحركات أسرارا وحكما لا توجد في شيء من الأذكار.

فالأحوال والأعمال روح وجسمان، ومادام العبد في دار الدنيا إعراضه عن الأعمال عين الطغيان، فالأعمال تزكو بالأحوال والأحوال تنمو بالأعمال.

الباب التاسع والثلاثون
فى فضل الصوم وحسن أثره

روى عن رول الله ﷺ انه قال: «الصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر».

وقيل: ما فى عمل ابن آدم شيء إلا ويذهب برد للظالم إلا الصوم فإنه لا يدخله قصاص.

ويقول الله تعالى يوم القيامة: هذا لى فلا يقتص أحد منه شيئا

وفى الخبر «الصوم لى وانا أجزى به».

قيل: اضافه إلى نفسه، لأن فيه خلقا من اخلاق الصمدية. وايضا لأنه من أعمال السر من قبيل التروك، لا يطلع عليه أحد إلا الله.

وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾[1]. الصائمون، لأنهم ساحوا إلى الله تعالى بجوعهم وعطشهم.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

هم الصائمون، لأن الصبر اسم من أسماء الصوم، ويفرغ للصائم افراغا، ويجارف له مجازفة.

وقيل: أحد الوجوه فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾[3] كان عملهم الصوم.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١٢.
(٢) سورة الزمر، الآية ١٠
(٣) سورة السجدة، الآية ١٧.

وقال يحيى بن معاذ: إذا ابتلى المريد بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له، ومن ابتلى بحرص الأكل فقد أحرق بنار الشهوة.

وفى نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها فى كف الشيطان متعلق بها، فإذا جوع بطنه، وأخذ حلقه، وراض نفسه، يبس كل عضو أو احترق بنار الجوع، وفر الشيطان من ظله.

وإذا أشبع بطنه، وترك حلقه فى لذائذ الشهوات، فقد رطب أعضاءه، وأمكن للشيطان. والشبع نهر فى النفس ترده الشياطين، والجوع نهر فى الروح ترده الملائكة، وينهزم الشيطان من جائع نائم، فكيف إذا كان قائما ويعانق الشيطان شبعانا قائما، فكيف إذا كان نائما. فقلب المريد الصادق يصرخ إلى الله تعالى من طلب النفس الطعام والشراب.

دخل رجل إلى الطيالسي وهو يأكل خبزا يابسا قد بله بالماء مع ملح جريش، فقال له كيف تشتهي هذا؟ قال: أدعه حتى أشتهيه.

وقيل: من أسرف فى مطعمه ومشربه، يعجل الصغار والذل إليه فى دنياه قبل آخرته.

وقال بعضهم: الباب العظيم الذى يدخل منه إلى الله تعالى قطع الغذاء.

وقال بشر: إن الجوع يصفى الفؤاد، ويميت الهوى، ويورث العلم الدقيق.

وقال ذو النون: ما أكلت حتى شبعت ولا شربت حتى رويت، إلا عصيت الله أو هممت بمعصية.

وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان يأتى علينا الشهر ونصف الشهر ما تدخل بيتنا نار لا لمصباح ولا لغيره.

قال: قلت سبحان الله فبأى شيء كنتم تعيشون؟ قالت: بالتمر والماء. وكان لنا جيران من الأنصار جزاهم الله خيرا كانت لهم منائح فربما واسونا بشيء.

وروى أن حفصة بنت عمر رضى الله عنهما قالت لأبيها: إن الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعاما أكثر من طعامك، ولبست ثيابا ألين من ثيابك؟

فقال إنى أخاصمك إلى نفسك، ألم يكن من أمر رسول الله ﷺ كذا يقول مرارا، فبكت، فقال قد أخبرتك والله لأشاركنه فى عيشه الشديد لعلى أصيب عيشة الرخاء.

وقال بعضهم: ما نخلت لعمر دقيقا إلا وأنا له عاصز

وقالت عائشة رضى الله عنها: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام من خبز بر حتى مضى لسبيله.

وقالت عائشة رضى الله عنها: أديموا قرع باب الملكوت يفتح لكم قالوا: كيف نديم؟ قالت: بالجوع والعطش والظمأ.

وقيل: ظهر إبليس ليحيى بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق، فقال ما هذه؟

قال: الشهوات التى أصيب بها ابن آدم. قال هل تجد لى فيها شهوة؟ قال: لا غير أنك شبعت ليلة فثقلناك عن الصلاة والذكر.

فقال: لا جرم أنى لا أشبع أبدا. قال إبليس: لا جرم أنى لا أنصح أحدا أبدا.

وقال شقيق: العبادة حرفة، وحانوتها الخلوة، وآلاتها الجوع.

وقال لقمان لابنه: إذا ملئت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال الحسن: لا تجمعوا بين الأدمين فإنه من طعام المنافقين.

وقال بعضهم: نعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الأغذية.

فيكره للمريد أن يوالي في الإفطار أكثر من أربعة أيام، فإن النفس عند ذلك تركن إلى العادة، وتتسع بالشهوة.

وقيل: الدنيا بطنك، فعلى قدر زهدك في بطنك زهدك في الدنيا.

وقال عليه السلام: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

وقال فتح الموصلي: صحبت ثلاثين شيخا كل يوصيني عند مفارقتي إياه بترك عشرة الأحداث، وقلة الأكل.

الباب الأربعون
فى اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار

جمع من المشايخ الصوفية كانوا يديمون الصوم فى السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى.

وكان أبو عبد الله بن جابار قد صام نيفا وخمسين سنة لا يفطر فى السفر والحضر، فجهد به أصحابه يوما فأفطر فاعتل من ذلك أياما.

فإذا رأى المريد صلاح قلبه فى دوام الصوم فليصم دائما ويدع للإفطار جانبا، فهو عون حسن له على ما يريد.

روى أبو موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ «من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا» وعقد تسعين، أى لم يكن له فيها موضع.

وكره قوم صوم الدهر، هو ألا يفطر العيدين وأيام التشريق فهو الذى يكره. وإذا أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذى كرهه رسول الله ﷺ.

ومنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما. وقد ورد «أفضل الصيام صوم أخى داود عليه السلام، كان يصوم يوما ويفطر يوما».

واستحسن ذلك قوم من الصالحين، ليكون بين حال الصبر وحال الشكر.

ومنهم من كان يصوم يومين ويفطر يوما، أو يصوم يوما ويفطر يومين ومنهم من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة.

وقيل: كان سهل بن عبد الله يأكل فى كل خمسة عشر يوما مرة، وفى رمضان يأكل أكلة واحدة، وكان يفطر بالماء القراح للسنة.

وحكى عن الجنيد أنه كان يصوم على الدوام، فإذا دخل عليه إخوانه أفطر معهم ويقول: ليس فضل المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم غير أن هذا الإفطار يحتاج إلى علم.

فقد يكون الداعي إلى ذلك شره النفس لا نية الموافقة. وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب.

وسمعت شيخنا يقول: لي سنين ما أكلت شيئا بشهوة نفس ابتداء واستدعاء، بل يقدم إلي الشيء فأراه من فضل الله ونعمته وفعله، فأوافق الحق في فعله.

وذكر أنه في ذات يوم اشتهى الطعام ولم يحضر، ومن عادته تقديم الطعام إليه. قال ففتحت باب البيت الذي فيه الطعام وأخذت رمانة لآكلها.

فدخلت السنور وأخذت دجاجة كانت هناك، فقلت: هذا عقوبة لي على تصرفي في أخذ الرمانة.

ورأيت الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام في اليوم مرات أي وقت أحضر الطعام أكل منه، ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق، لأن حاله مع الله كان ترك الاختيار في مأكوله وملبوسه وجميع تصاريفه.

وكان حاله الوقوف مع فعل الحق، وقد كان له في ذلك بداية يعز مثلها، حتى نقل أنه كان يبقى أياما لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه، ولا يتسبب إلى تناول شيء، وينتظر فعل الحق ليساقة الرزق إليه، ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان.

ثم إن الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتلامذة، وكانوا يتكلمون الأطعمة ويأتون بها إليه، وهو يرى في ذلك فضل الحق والموافقة. سمعته يقول: أصبح كل يوم وأحب ما إلى الصوم، وينقض الحق على محبتي الصوم بفعله فأوافق الحق في فعله.

وحكي عن بعض الصادقين من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة، وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا في رمضان.

وقال أبو نصر السراج: أنكر قوم هذه المخالفة وإن كان الصوم تطوعاً، واستحسنه آخرون، لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع، وألا يتمتع برؤية الصوم.

ووقع لي أن هذا إن قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم فقد تمتع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم وهذا يتسلسل، والأليق بموافقة العلم إمضاء الصوم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ ﴾[1].

ولكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون، والصدق محمود لعينه كيف كان، والصادق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون.

والصدق محمود لعينه كيف كان، والصادق في خفارة صدقه كيف تقلب.

وقال بعضهم: إذا رأيت الصوفي يصوم صوم التطوع فاتهمه فإنه قد اجتمع معه شيء من الدنيا.

وقيل: إذا كان جماعة متوافقين أشكالا وفيهم مريد يحثونه على الصيام، فإن لم يساعدوه يهتموا لإفطاره ويتكلفوا له رفقا به، ولا يحملوا حاله على حالهم وإن كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه ويفطرون لإفطاره إلا من يأمره الشيخ بغير ذلك.

وقيل: إن بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه، حتى ينظر الشاب إليه فيتأدب به ويصوم بصيامه.

---

(١) سورة محمد: الآية ٣٣.

وحكى عن ابى الحسن المكى انه كان يصوم الدهر وكان مقيما بالبصرة، وكان لا يأكل الخبز إلا ليلة الجمعة، وكان قوته فى كل شهر اربع دوانيق، يعمل بيده حبال الليف ويبيعها.

وكان الشيخ ابو الحسن بن سالم يقول: لا اسلم عليه إلا ان يفطر ويأكل. وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية له فى ذلك لأنه كان مشهورا بين الناس.

وقال بعضهم، ما اخلص لله عبد قط إلا احب ان يكون فى جب لا يعرف، ومن اكل فضلا من الطعام اخرج فضلا من الكلام.

وقيل، اقام ابو الحسن التنيسى بالحرم مع اصحاب سبعة ايام لم يأكلوا، فخرج بعض اصحابه ليتطهر فرأى قشر بطيخ فاخذه واكله، فرآه إنسان فاتبع اثره وجاء برفق فوضعه بين يدى القوم، فقال الشيخ، من جنى منكم هذه الجناية؟

فقال الرجل انا وجدت قشر بطيخ فاكلته، فقال، كن انت مع جنايتك ورفقك، فقال، انا تائب من جنايتى، فقال لا كلام بعد التوبة.

وكانوا يستحبون صيام ايام البيض، وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

روى ان آدم عليه السلام لما اهبط إلى الأرض اسود جسده من اثر المعصية، فلما تاب الله عليه امره ان يصوم ايام البيض فابيض ثلث جسده بكل يوم صامه، حتى ابيض جميع جسده بصيام ايام البيض.

ويستحبون صوم النصف الأول من شعبان، والافطار نصفه الأخير، وان واصل بين شعبان ورمضان فلا بأس به، ولكن ان لم يكن صام فلا يستقبل رمضان بيوم او يومين.

وكان يكره بعضهم أن يصام رجب جميعه كراهة المضاهاة برمضان.

ويستحب صوم العشر من ذى الحجة، والعشر من المحرم، ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن يصام من الأشهر الحرم.

وورد فى الخبر «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت بعد من النار سبعمائة عاما».

الباب الحادي والأربعون
في آداب الصوم

أدب الصوفية في الصوم ضبط الظاهر والباطن، وكف الجوارح عن الآثام، كمنع النفس عن الطعام، ثم كف النفس عن الاهتمام بالأقسام.

سمعت أن بعض الصالحين بالعراق كان طريقه وطريق أصحابه أنهم كانوا يصومون، وكلما فتح عليهم قبل وقت الإفطار يخرجونه.

ولا يفطرون إلا على ما فتح لهم وقت الإفطار، وليس من الأدب أن يمسك المريد عن المباح ويفطر بحرام الآثام.

قال أبو الدرداء، يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون قيام الحمقى وصيامهم، ولذرة من ذى يقين وتقوى أفضل من أمثال الجبال من أعمال المغتربين.

ومن فضيلة الصوم وأدبه أن يقلل الطعام عن الحد الذى كان يأكله وهو مفطر، وإلا فإذا جمع الأكلات بأكلة واحدة فقد أدرك بها ما فوت.

ومقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع، وأخذهم من الطعام قدر الضرورة لعلمهم أن الاقتصار على الضرورة يجذب النفس من سائر الأفعال والأقوال إلى الضرورة.

والنفس من طبعها أنها إذا قهرت لله تعالى فى شيء واحد على الضرورة تأدى ذلك إلى سائر أحوالها، فيصير بالأكل النوم ضرورة، والقول والفعل ضرورة، وهذا باب كبير من أبواب الخير لأهل الله تعالى يجب رعايته وافتقاده.

ولا يخص بعلم الضرورة وفائدتها وطلبها إلا عبد يري الله تعالى أن يقر به ويدنيه، ويصطفيه ويربيه. ويمتنع في صومه من ملاعبة الأهل بالملامسة. فإن ذلك أنزه للصوم، ويتسحر استعمالا للسنة.

وهو أدعى إلى إمضاء الصوم لمعنيين، أحدهما عود بركة السنة عليه، والثاني التقوية بالطعام على الصيام.

روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «تسحروا فإن في السحور بركة».

ويعجل الفطر عملا بالسنة، فإن لم يرد تناول الطعام إلا بعد العشاء ويريد إحياء ما بين العشاءين يفطر بالماء أو على أعداد من الزبيب أو التمر، أو يأكل لقيمات إن كانت النفس تنازع ليصفو له الوقت بين العشاءين، فإحياء ذلك له فضل كثير، وإلا فيقتصر على الماء لأجل السنة.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي.

قال حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ حكاية عن ربه: «قال الله عز وجل: أحب عبادي إلي أعجلهم فطرا».

وقال عليه السلام: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر».

والإفطار قبل الصلاة سنة، كان رسول الله ﷺ يفطر على جرعة من ماء، أو مذقة من لبن، أو تمرات.

وفي الخبر: كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش.

قيل: هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على الحرام.

وقيل: هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغيبة.

قال سفيان: من اغتاب فسد صومه.

وعن مجاهد: خصلتان تفسدان الصوم: الغيبة، والكذب.

قال الشيخ أبو طالب المكى: قرن الله الاستماع إلى الباطل والقول بالإثم بأكل الحرام، فقال ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[1].

وورد فى الخبر أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تهلكا، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ تستأذنانه فى الإفطار.

فأرسل إليهما قدحا وقال قولوا لهما قيئا فيه ما أكلتما، فقاءت أحدهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه، فعجب الناس من ذلك فقال رسول الله ﷺ: ((هاتان صامتا وأفطرتا على ما حرم الله عليهما)).

وقال عليه الصلاة والسلام: ((إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه فليقل إنى صائم)).

وفى الخبر: إن الصوم أمانة، فليحفظ أحدكم أمانته.

والصوفى الذى لا يرجع إلى معلوم، ولا يدرى متى يساق إليه الرزق، فإذا ساق الله الرزق تناوله الأدب، وهو دائم المراقبة لوقته.

وهو فى إفطاره أفضل من الذى له معلوم معد، فإن كان مع ذلك يصوم فقد أكمل الفضل.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٢.

حكى عن رويم قال: اجتزت في الهاجرة ببعض سكك بغداد، فعطشت، فتقدمت إلى باب دار فاستسقيت فإذا جارية قد خرجت ومعها كوز جديد ملآن من الماء للبرد، فلما أردت أن أتناوله من يدها قالت: صوفي ويشرب بالنهار؟ وضربت بالكوز على الأرض وانصرفت.

قال رويم: فاستحييت من ذلك ونذرت ألا أفطر أبدا.

والجماعة الذين كرهوا دوام الصوم كرهوه لكان أن النفس إذا ألفت الصوم وتعودته اشتد عليها الإفطار، وهكذا بتعودها الإفطار تكره الصوم، فيرون الفضل في ألا تركن النفس إلى عادة، ورأوا أن إفطار يوم وصوم يوم أشد على النفس.

ومن أدب الفقراء أن الواحد إذا كان بين جمع وفي صحبة جماعة لا يصوم إلا بإذنهم، وإنما كان ذلك لأن قلوب الجمع متعلقة بفطوره وهم على غير معلوم.

فإن صام بإذن الجمع وفتح عليهم بشيء لا يلزمهم ادخاره للصائم، مع العلم بأن الجمع المفطرين يحتاجون إلى ذلك فإن الله تعالى يأتي للصائم برزقه، إلا أن يكون الصائم يحتاج إلى الرفق لضعف حاله أو ضعف بنيته لشيخوخة أو غير ذلك.

وهكذا الصائم لا يليق أن يأخذ نصيبه فيدخره، لأن ذلك من ضعف الحال، فإن كان ضعيفا يعترف بحاله وضعفه فيدخره.

والذي ذكرناه لأقوام هم على غير معلوم، فأما الصوفية المقيمون في رباط على معلوم فالأليق بحالهم الصيام، ولا يلزمهم موافقة الجمع مع الإفطار، وهذا يظهر في جمع منهم لهم معلوم يقدم لهم بالنهار.

فأما إذا كانوا على غير معلوم فقد قيل: مساعدة الصوام للمفطرين أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوام.

وأمر القوم مبناه على الصدق، ومن الصدق انتقاد النية وأحوال النفس، فكل ما صحت النية فيه من الصوم والإفطار والموافقة وترك الموافقة هو الأفضل.

فأما من حيث السنة فمن يوافق له وجه إذا كان صائما والفطر للموافقة، وإن صام ولم يوافق فله وجه.

فأما وجه من يفطر ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أبيه أبي الفضل الحافظ المقدسي.

قال أنا أبو الفضل محمد بن عبد الله قال أنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي قال أنا أبو بكر محمد بن حمدويه قال حدثنا عبد الله بن حماد قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثني عطاء بن خالد عن حماد أب حميد عن محمد بن المنكدر عن أبي سعيد الخدري قال: اصطنعت لرسول الله ﷺ «دعاكم أخوكم وتكلف لكم ثم تقول إني صائم، افطر واقض يوما مكانه».

وأما وجه من لا يوافق فقد ورد أن رسول الله ﷺ وأصحابه أكلوا وبلال صائم، فقال رسول الله ﷺ «نأكل رزقنا، ورزق بلال في الجنة».

فإذا علم أن هنالك قلبا يتأذى أو فضلي يرجى من موافقة من يعتنم موافقته يفطر بحسن النية لا بحكم الطبع وتقاضيه.

فإذا لم يجد هذا المعنى لا ينبغي أن يلتبس عليه الشره وداعية النفس فليتم صومه. وقد تكون الإجابة لداعية النفس لا لقضاء حق أخيه.

ومن أحسن آداب الفقير الطالب أنه إذا أفطر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيرا عن هيئته، ونفسه متثبطة عن أداء وظائف العبادة، فيعالج مزاج القلب المتغير بإذهاب التغير عنه.

ويذيب الطعام بركعات يصليها أو بآيات يتلوها، أو بأذكار واستحمد يأتي به، فقد ورد في الخبر: أذيبوا طعامكم بالذكر

ومن مهام أدب الصوم كتمانه مهما أمكن إلا أن يكون متمكنا من الإخلاص فلا يبالي ظهر أم بطن.

الباب الثانى والأربعون
فى ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة

الصوفى بحسن نيته، وصحة مقصده، ووفور علمه، وإتيانه بآدابه، تصير عاداته عبادة.

والصوفى موهوب وقته لله، ويريد حياته لله، كما قال الله تعالى لنبيه آمرا له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[1].

فتدخل على الصوفى أمور العادة لموضع حاجته، وضرورة بشريته، ويحف بعاداته نور يقظته، وحسن نيته، فتتنور العادات، وتتشكل بالعبادات، ولهذا ورد: نوم العالم عبادة، ونفسه تسبيح هذا مع كون النوم عين الغفلة.

ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة. فتناول الطعام أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية، وتعلق أثره بالقلب والقالب، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك، والقالب مركب القلب، وبهما عمارة الدنيا والآخرة.

وقد ورد: أرض الجنة قيعان نباتها التسبيح والتقديس والقالب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا، والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة، وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين.

والله تعالى ركب الآدمى بلطيف حكمته من أخص جواهر الجسمانيات والروحانيات، وجعله مستودع خلاصة الأرضين والسموات،

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٦٢

وجعل عالم الشهادة وما فيها من النبات والحيوان لقوام بدن الآدمي. قال الله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[١].

فكون الطبائع وهي الحرارة والرطوبة، والبرودة واليبوسة، وكون بواسطتها النبات، وجعل النبات قواما للحيوانات، وجعل الحيوانات مسخرة للآدمي، يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه.

فالطعام يصل إلى المعدة وفي المعدة طباع أربع.

فإذا أراد الله اعتدال مزاج البدن اخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام، فتأخذ الحرارة البرودة، والرطوبة لليبوسة، فيعتدل المزاج، ويأمن الاعوجاج.

وإذا أراد الله تعالى لإفناء قالب وتخريب بنية، اخذت كل طبيعة جنسها من المأكول، فتميل الطبائع، ويضطرب المزاج، ويقسم البدن ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ ﴾[٢].

روى عن وهب بن منبه قال: وجدت في التوراة صفة آدم عليه السلام: إني خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء: من رطب، ويابس وبارد وسخن.

وذلك لأني خلقته من التراب وهو يابس، ورطوبته من الماء، وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح، وخلقت في الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق هن ملاك الجسم، بإذني وبهن قوامه، فلا يقوم الجسم إلا بهن، ولا تقوم منهن واحدة إلا بأخرى منهن، المرة السوداء، والمرة الصفراء، والدم، والبلغم.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٩
(٢) سورة الأنعام: آية ٩٦.

ثم أسكنت بعض هذا الخلق فى بعض، فجعلت مسكن اليبوسة فى المرة السوداء، ومسكن الرطوبة فى المرة الصفراء، ومسكن الحرارة فى الدم، ومسكن البرودة فى البلغم.

فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التى جعلتها ملاكه وقوامه، فكانت كل واحدة منهن ربعا لا يزيد ولا ينقص، كملت صحته، واعتدلت بنيته.

فإن زادت منهن ربعا لا يزيد ولا ينقص، كملت صحته، واعتدلت بنيته، فإن زادت منهن واحدة عليهن هزمتهن ومالت بهن، ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها، حتى يضعف عن طاقتهن، ويعجز عن مقدارهن.

فأهم الأمور فى الطعام أن يكون حلالا، وكل ما لا يذمه الشرع حلال رخصة ورحمة من الله لعباده، ولولا رخصة الشرع كبر الأمر واتعب طلب الحلال.

ومن أدب الصوفية رؤية المنعم على النعم، وأن يبتدئ بغسل اليد قبل الطعام. قال رسول الله ﷺ «الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر».

وإنما كان موجبا لنفى الفقر لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالأدب، وذلك من شكر النعمة.

والشكر يستوجب المزيد، فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة، مذهبا للفقر.

وقد روى أنس بن مالك ﷺعن النبى ﷺ أنه قال: «من أحب أن يكثر خير بيته، فليتوضأ إذا حضر غداؤه، ثم يسمى الله تعالى».

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[1]. تفسيره تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان. واختلف الشافعي وابو حنيفة رحمهما الله في وجوب ذلك.

وفهم الصوفي من ذلك بعد القيام بظاهر التفسير الا يأكل الطعام إلا مقرونا بالذكر. فقرونه فريضة وقته وادبه، ويرى ان تناول الطعام وبناء ينتج من إقامة النفس ومتابعة هواها، ويرى ذكر الله تعالى دواءه وترياقه.

روت عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأكل الطعام في ستة نفر من اصحابه، فجاء اعرابي فأكله بلقمتين، فقال رسول الله ﷺ: ((اما إنه لو كان يسمي الله لكفاكم، فإذا أكل احدكم طعاما فليقل بسم الله فإن نسي ان يقول بسم الله فليقل بسم الله اوله وآخره)).

ويستحب ان يقول في اول لقمة بسم الله، وفي الثانية بسم الله الرحمن، وفي الثالثة يتم، ويشرب الماء بثلاثة انفاس، يقول في اول نفس الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم.

وكما ان للمعدة طباعا تتغير كما ذكرناه بموافقة طباع الطعام، فللقلب ايضا مزاج وطباع لأرباب التفقد والرعايا واليقظة، يعرف انحراف مزاج القلب من اللقمة المتناولة.

تارة تحدث من اللقمة حرارة الطيش بالنهوض الى الفضول.

وتارة تحدث في القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت، وتارة تحدث رطوبة السهو والغفلة.

وتارة يبوسة الهم والحزن بسبب الحظوظ العاجلة.

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٢١.

فهذه كلها عوارض يتفطن لها المتيقظ ويرى تغير القالب بهذه العوارض تغير مزاج القلب عن الاعتدال، والاعتدال كما هو مهم طلبه للقالب فللقلب أهم وأولى، وتطرق الانحراف إلى القلب أسرع منه إلى القالب. ومن الانحراف ما يسقم به القلب فيموت لموت القالب. واسم الله تعالى دواء نافع مجرب يقي الأسواء، ويذهب الداء، ويجلب الشفاء.

حكي، أن الشيخ محمدا الغزالي لما رجع إلى طوس وصف له في بعض القرى عبد صالح، فقصده زائرا، فصادفه وهو في صحراء له يبذر الحنطة في الأرض.

فلما رأى الشيخ محمدا جاء إليه وأقبل عليه، فجاء رجل من أصحابه وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ في ذلك وقت اشتغاله بالغزالي، فامتنع ولم يعطه البذر.

فسأله الغزالي عن سبب امتناعه، فقال: لأني أبذر هذا البذر بقلب حاضر، ولسان ذاكر، أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئا.

فلا أحب أن أسلمه إلى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر.

وكان بعض الفقراء عند الأكل يشرع في تلاوة سورة من القرآن تحضر الوقت بذلك حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر، ولا يعقب الطعام مكروه، ويتغير مزاج القلب.

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي يقول: أنا آكل وأنا أصلي، يشير إلى حضور القلب في الطعام.

وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله لئلا يتفرق همه وقت الأكل، ويرى للذكر وحضور القلب في الأكل أثرا كبيرا لا يسعه الإهمال له.

ومن الذكر عند الأكل الفكر فيما هيأ الله تعالى من الأسنان للعينة على الأكل، فمنها الكاسرة، ومنها القاطعة، ومنها الطاحنة، وما جعل الله تعالى من الماء الحلو في الفم حتى لا يتغير الذوق.

كما جعل ماء العين مالحا لما كان شحما حتى لا يفسد، وكيف جُعل الندوة تنبع من أرجاء اللسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ، وكيف جعل القوة الهاضمة مسلطة على الطعام تفصله وتجزئه متعلقا مددها بالكبد.

والكبد بمثابة النار، والمعدة بمثابة القدر، وعلى قدر فساد الكبد تقل الهاضمة، ولا يفسد الطعام ولا ينفصل، ولا يصل إلى كل عضو نصيبه. وهكذا تأثير الأعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين، ويطول شرح ذلك.

فمن أراد الاعتبار فليطالع تشريح الأعضاء ليرى العجب من قدرة الله تعالى من تعاضد الأعضاء وتعاونها، وتعلق بعضها بالبعض في إصلاح الغذاء واستجذب القوة منه للأعضاء، وانقسامه إلى الدم والثفل واللبن، لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فالفكر في ذلك وقت الطعام، وتعرف لطيف الحكم والقدر فيه من الذكر.

ومما يذهب داء الطعام المغير لمزاج القلب أن يدعو في أول الطعام، ويسأل الله تعالى أن يجعله عونا على الطاعة.

ويكون من دعائه: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وما رزقتنا مما نحب اجعله عونا لنا على ما تحبه وما زويت عنا مما نحب اجعله فراغا لنا فيما تحب.

الباب الثالث والأربعون
فى آداب الأكل

فمن ذلك أن يبتدى بالملح ويختتم به.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلى رضى الله عنه، «يا على ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح، فإن للملح شفاء من سبعين داء منها الجنون والجذام والبرص ووجع البطن ووجع الأضراس».

وروت عائشة رضى الله عنها قالت، لدغ رسول الله ﷺ فى إبهامه من رجله اليسرى لدغة فقال، «على بذلك الأبيض الذى يكون فى العجين».

فجئنا بملح فوضعه فى كفه، ثم لعق منه ثلاث لعقات ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه.

ويستحب الاجتماع على الطعام، وهو سنة الصوفية فى الربط وغيرها.

روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال «من أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدى».

وروى أنه قيل يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع، قال «لعلكم تتفرقون على طعامكم، اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه»..

ومن عادة الصوفية الأكل على السفر، وهو سنة رسول الله ﷺ.

أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن المقومى بإسناده إلى ابن ماجة الحافظ القزوينى قال أنبأنا محمد بن المثنى قال حدثنا معاذ بن هشام قال حدثنا أبى عن يونس بن الفرات عن قتادة عن أنس بن مالك قال، ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا فى سكرجة. قال، فعلام كانوا يأكلون؟

قال، على السفر.

ويصغر اللقمة، ويجود الأكل بالمضغ، وينظر بين يديه، ولا يطالع وجوه الآكلين، ويقعد على رجله اليسرى، وينصب اليمنى، ويجلس جلسة التواضع غير متكئ ولا متعزز. نهى رسول الله ﷺ أن يأكل الرجل متكئا.

وروى أنه أهدى لرسول الله ﷺ شاة، فجثا رسول الله ﷺ على ركبتيه يأكل.

فقال أعرابى: ما هذه الجلسة يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله خلقنى عبدا ولم يجعلنى جبارا عنيدا».

ولا يبتدئ بالطعام حتى يبدأ المقدم أو الشيخ.

روى حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعاما لم يضع أحدنا يده حتى يبدأ رسول الله ﷺ.

ويأكل باليمين.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال «ليأكل أحدكم بيمينه، وليشرب بيمينه، وليأخذ بيمينه، وليعط بيمينه، وليعط بيمينه.

فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله، ويأخذ بشماله، ويعطى بشماله».

وإن كان المأكول تمرا أو ماله عجم، لا يجمع من ذلك ما يرمى وما يؤكل على الطبق ولا فى كفه، بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه.

ولا يأكل من ذروة الثريد.

روى عبد الله بن عباس عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه، فإن البركة تنزل فى وسطه».

ولا يعيب الطعام.

روى أبو هريرة ﷺ قال: ما عاب رسول ﷺ طعاما قط إن اشتهاه أكله، وإلا تركه.

وإذا سقطت اللقمة يأكلها.

فقد روى أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال «إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان».

ويلعق أصابعه.

فقد روى جابر عن النبي ﷺ قال «إذا أكل أحدكم الطعام فليمتص أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة».

وهكذا أمر عليه السلام بإسلات القصعة، وهو مسحها من الطعام.

قال أنس ﷺ: أمر رسول ﷺ بإسلات القصعة.

ولا ينفخ في الطعام.

فقد روت عائشة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال «النفخ في الطعام يذهب بالبركة».

وروى عبد الله بن عباس أنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ ينفخ في طعام ولا في شراب.

ولا يتنفس في الإناء، فليس من الأدب ذلك.

والخل والبقل على السفرة من السنة. قيل إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل.

روت أم سعد رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها وأنا عندها فقال «هل من غداء؟

فقالت: عندنا خبز وتمر وخل، فقال عليه السلام: نعم الإدام الخل،

اللهم بارك في الخل فإنه كان إدام الأنبياء قبلي، ولم يفقر بيت فيه خل».

ولا يصب على الطعام، فهو من سيرة الأعاجم.

ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين، ففيه نهي.

ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجمع، فقد ورد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «إذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة، ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم وليعتذر، فإن الرجل يخجل جليسه فيقبض يده وعسى أن يكون له في الطعام حاجة».

وإذا وضع الخبز لا ينتظر غيره.

فقد روى أبو موسى الأشعرى قال، قال رسول الله ﷺ «أكرموا الخبز، فإن الله تعالى سخر لكم بركات السماء والأرض والحديد والبقر وابن آدم».

ومن أحسن الأدب وأهمه ألا يأكل إلا بعد الجوع، ويمسك عن الطعام قبل الشبع.

فقد رى عن رسول الله ﷺ «ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه».

ومن عادة الصوفية أن يلقم الخادم إذا لم يجلس مع القوم، وهو سنة.

روى أبو هريرة ﷺ قال: قال أبو القاسم ﷺ «إذا جاء أحدكم خادمه بطعام فإن لم يجلسه معه فليناوله أكلة أو أكلتين فإنه ولى حره ودخانه».

وإذا فرغ من الطعام تحمد الله تعالى.

روى أبو سعيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاما قال «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين».

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «من أكل طعاما فقال «الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه».

ويتخلل، فقد روى عن رسول الله ﷺ «تخللوا فإنه نظافة، والنظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه فى الجنة».

ويغسل يديه، فقد روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من بات وفى يده غمر لم يغسل فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه».

ومن السنة غسل الأيدى فى طست واحد.

روى ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال قال رسول الله ﷺ «اترعوا الطسوس وخالفوا المجوس».

ويستحب مسح العينين ببلل اليد.

روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا توضأتم فأشربوا أعينكم الماء، ولا تنفضوا فإنها مراوح الشياطين، قيل لأبى هريرة فى الوضوء وغيره؟ قال: نعم فى الوضوء وغيره.

وفى غسل اليد يأخذ الأسنان باليمين، وفى الخلال لا يزدرد ما يخرج بالخلال من الأسنان. وأما ما يلوكه باللسان فلا بأس به.

ويجتنب التصنع فى أكل الطعام، ويكون أكله بين الجمع كأكله منفردا، فإن الرياء يدخل فى العبد فى كل شيء.

وصف لبعض العلماء بعض العباد فلم يثن عليه، قيل له تعلم به بأسا؟ قال: نعم، رأيته يتصنع فى الأكل، ومن تصنع فى الأكل، لا يؤمن عليه التصنع فى العمل.

وإن كان الطعام حلالا فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وتنزل البركات، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.

اللهم أطعمنا طيبا، واستعملنا صالحا. وإن كان شبهة يقول: الحمد لله على كل حال، اللهم صل على محمد ولا تجعله عونا على معصيتك. وليكثر الاستغفار والحزن، ويبكى على أكل الشبهة ولا يضحك، فليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك.

ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد، ولإيلاف قريش.

ويجتنب الدخول على قوم فى وقت أكلهم، فقد ورد «من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما» وسمعنا لفظا آخر «دخل سارقا وخرج مغيرا» إلا أن يتحقق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته.

ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار. ولا يخرج الضيف بغير إذن صاحب الدار، ويجتنب للضيف التكلف، إلا أن يكون له نية فيه من كثرة الإنفاق، ولا يفعل ذلك حياء وتكلفا.

وإذا أكل عند قوم طعاما فليقل عند فراغه إن كان بعد الغروب «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة».

وروى أيضا: عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا بآثمين ولا فجار، يصلون بالليل ويصومون بالنهار. كان بعض الصحابة يقول ذلك.

ومن الأدب ألا يستحقر ما يقدم له من طعام.

وكان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقول: ما ندرى أيهم أعظم وزرا، الذى يحتقر ما يقدم إليه، أو الذى يحتقر ما عنده أن يقدمه.

ويكره أكل المباهاة، وما تكلفه للأعراس والتعازى، فما عمل للنوائح لا يؤكل، وما عمل للعزاء لا بأس به وما يجرى مجراه.

وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانبساط إليه في التصرف في شيء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذنه. قال الله تعالى: ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾[1].

قيل: دخل قوم على سفيان الثوري فلم يجدوه، ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وأكلوا، فدخل سفيان ففرح وقال: ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا.

ومن دعي إلى طعام فالإجابة من السنة، ولاسيما تلك الوليمة. وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبرا وذلك خطأ، وإن عمل ذلك تصنعا ورياء فهو أقل من التكبر.

روي أن الحسن بن علي مر بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق، وقد نثروا كسرا على الأرض وهو على بغلته، فلما مر بهم سلم عليهم، فردوا عليه السلام وقالوا: هلم الغداء يا بن رسول الله.

فقال: نعم إن الله لا يحب المتكبرين، ثم ثنى وركه، فنزل عن دابته وقعد معهم على الأرض وأقبل يأكل، ثم سلم عليهم وركب.

وكان يقال: الأكل مع الإخوان أفضل من الأكل مع العيال.

وروي أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير وأمر أن يقدم له طعام فلما أكل صب الرشيد على يده في الطست.

فلما فرغ قال: يا أبا معاوية تدري من صب على يدك؟ قال: لا، قال: أمير المؤمنين، قال: يا أمير المؤمنين إنما أكرمت أهل العلم وأجللته فأجلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم.

---

(١) سورة النور آية ٦١.

الباب الرابع والأربعون
فى ذكر أدبهم فى اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه

اللباس من حاجات النفس وضروراتها لدفع الحر والبرد، كما أن الطعام من حاجات النفس لدفع الجوع.

وكما أن النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزيادات والشهوات، فهكذا فى اللباس تتفنن فيه، ولها فيه أهوية متنوعة ومآرب مختلفة. فالصوفى يرد النفس فى اللباس إلى متابعة صريح العلم.

قيل لبعض الصوفية: ثوبك ممزق، قال: ولكنه من وجه حلال. وقيل له: وهو وسخ، قال: ولكنه طاهر.

فنظر الصدق فى ثوبه أن يكون من وجه حلال، لأنه ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا)) أى لا فريضة ولا نافلة.

ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهرا، لأن طهارة الثوب شرط فى صحة الصلاة، وما عدا هذين النظرين فنظره فى كونه يدفع الحر والبرد، لأن ذلك مصلحة النفس، وبعد ذلك ما تدعو النفس إليه فكله فضول وزيادة ونظر إلى الخلق.

والصادق لا ينبغى أن يلبس الثوب إلا لله، وهو ستر العورة، أو لنفسه لدفع الحر والبرد.

حكى أن سفيان الثورى ﷺ خرَج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقلوبا، فقيل له، ولم يعلم بذلك، فهم أن يخلعه ويغيره، ثم تركه وقال: حيث لبسته نويت أنى ألبسه لله الآن، فما أغيره إلا لنظر الخلق، فلا أنقض النية الأولى بهذه.

والصوفيـة خصـوا بطـهارة الأخـلاق، ومـا رزقـوا طـهارة الأخـلاق إلا بالصلاحية والأهلية والاستعداد الذى هيأه الله تعالى لنفوسهم.

وفى طـهارة الأخـلاق وتعاضدهـا تناسـب واقـع، لوجـود تناسـب هيئـة النفس، وتناسب هيئـة النفس هـو المشـار إليـه بقولـه تعـالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[1].

فالتناسب هو التسوية. فمن التناسب أن يكون لباسهم مشاكلا لطعامهم، وطعامهم مشاكلا لكلامهم، وكلامهم مشاكلا لمقامهم، لأن التناسب الواقـع فى النفـس مقيـد بـالعلم، والتشابه والتمـاثل فـى الأحـوال يحكـم بـه العلـم، ومتصوفة الزمان ملتزمون بشيء من التناسب مع مزج الهوى.

وما عندهم من التطلع إلى التناسب رشح حال سلفهم فى وجود التناسب.

قال أبو سليمان الدارانى: يلبس أحدهم عباءة بثلاثـة دراهم وشهوته فى بطنه بخمسة دراهم. أنكر ذلك لعدم التناسب.

فمن خشن ثوبه ينبغى أن يكون مأكوله مـن جنسـه، وإذا اختلف الثوب والمأكول يدل على وجود انحرافه لوجود هوى كامن فى أحد الطريق.

إما فى طرف الثوب لموضع نظر الخلق.

وإما فى طرف المأكول لفرط الشره، وكلا الوصفين مرض يحتاج إلى المداواة ليعود إلى حد الاعتدال.

لبس أبو سليمان الدارانى ثوبا غسيلا، فقال له أحمد: لو لبسـت ثوبـا أجود من هذا؟ فقال: ليت قلبى فى القلوب مثل قميصى فى الثياب.

فكان الفقراء يلبسون المرقع، وربمـا كـانوا يـأخذون الخـرق مـن المزابـل ويرقعون بها ثوبهم، وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح.

---

(١) سورة الحجر: آية ٢٩.

وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه، فكما كانت رقاعهم م المزابل كانت لقمهم من الأبواب.

وكان أبو عبد الله الرقاعي صابرا على الفقر والتوكل ثلاثين سنة، وكان إذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم، فيقال له في ذلك فيقول: أنتم تأكلون بحق التوكل وأنا آكل بحق المسكنة، ثم يخرج بين العشاءين لطلب الكسر من الأبواب.

وهذا شأن من لا يرجع إلى معلوم ولا يدخل تحت منة.

وحكى أن جماعة من أصحاب الرقعات دخلوا على بشر بن الحارث، فقال لهم: يا قوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزى فإنكم تعرفون به وتكرمون له، فسكتوا كلهم، فقال له غلام منهم: الحمد لله الذى جعلنا ممن يعرف به ويكرم له.

والله ليظهرن هذا الزى حتى يكون الدين كله لله، فقال له بشر: أحسنت يا غلام مثلك من يلبس الرقعة، فكان أحدهم يبقى زمانه لا يطوى له ثوب، ولا يملك غير ثوبه الذى عليه.

وروى أن أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه لبس قميصا اشتراه بثلاثة دراهم، ثم قطع كمه من رءوس أصابعه.

وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب: إن أردت أن تلقى صاحبك فرقع قميصك واخصف نعلك وقصر أملك وكل دون الشبع.

وحكى عن الجريرى قال: كان في جامع بغداد رجل لا تكاد تجده إلا في ثوب واحد في الشتاء والصيف فسئل عن ذلك فقال: قد كنت ولعت بكثرة لبس الثياب فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأني دخلت الجنة، فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقراء على مائدة.

فأردت أن أجلس معهم، فإذا بجماعة من الملائكة أخذوا بيدي وأقاموني وقالوا لي: هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك قميصان، فلا تجلس معهم، فانتبهت ونذرت ألا ألبس إلا ثوبا واحدا إلى أن ألقى الله تعالى.

وقيل: مات أبو يزيد ولم يترك إلا قميصه الذي كان عليه وكان عارية، فردوه إلى صاحبه

وحكى لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا أنه بقي زمانا لا يلبس الثوب إلا مستأجرا، حتى أنه لم يلبس على ملك نفسه شيئا.

وقال أبو حفص الحداد: إذا رأيت وضاءة الفقير في ثوبه فلا ترجو خيره.

وقيل: مات ابن الكرنبي وكان أستاذ الجنيدي وعليه مرقعته. قيل كان وزن فردكم له وتخاريصه ثلاثة عشر رطلا، فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزي والتخشن.

وقد يكون جمع من الصالحين يتكلفون لبس غير الرقع وزي الفقراء، ويكون نيتهم في ذلك ستر الحال، أو خوف عدم النهوض بواجب حق المرقعة.

وقيل: كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم، ولا بيت فرش فيه الرمل، لعله كان ينام عليه بلا وطاء.

وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب حائلا، ويكون لبس أبي حفص الناعم بعلم ونية يلقى الله تعالى بصحتها،

وهكذا الصادقون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم في ذلك فلا يعترض عليهم.

غير أن لبس الخشن والرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقلل من الدنيا وزهرتها وبهجتها وقد ورد «من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حلل الجنة».

وأما لبس الناعم فلا يصلح إلا لعالم بحاله، بصير بصفات نفسه، متفقد خفي شهوات النفس، يلقى الله تعالى بحسن النية في ذلك فلحسن النية في ذلك وجوه متعددة يطول شرحها.

ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب بعينه لا لخشونته ولا لنعومته، بل يلبس ما يدخل الحق عليه فيكون بحكم الوقت وهذا حسن، وأحسن من ذلك أنه يتفقد نفسه فيه، فإن رأى للنفس شرها وشهوة خفية أو جلية في الثوب الذي أدخله الله عليه يخرجه، إلا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار.

فعند ذلك لا يسعه إلا أن يلبس الثوب الذي ساقه الله إليه.

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي رحمه الله لا يتقيد بهيئة من الملبوس، بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلف واختيار. وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنانير، ويلبس العمامة بدانق.

وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة ويتطيلس.

وكان الشيخ علي بن الهيتي يلبس لبس فقراء السواد.

وكان أبو بكر الفراء بزنجان يلبس فروا خشنا كآحاد العوام، ولكن في لبسه وهيئته نية صالحة. وشرح تفاوت الأقدام في ذلك يطول.

وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله حاله مع الله ترك الاختيار، وقد يساق إليه الثوب التام فيلبسه، وكان يقال له: ربما يسبق إلى بواطن بعض الناس الإنكار عليك في لبسك هذا الثوب، فيقال لا نلقى إلا أحد رجلين:

رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع، فنقول له هل ترى أن ثوبا يكرهه الشرع أو يحرمه، فيقول: لا.

ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزيمة، فنقول له: هل ترى لنا فيما لبسنا اختيار، أو ترى عندنا فيه شهوة فيقول: لا.

وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن، ولكن يجب أن يختار الله له هيئة مخصوصة، فيكثر اللجوء إلى الله والافتقار إليه، ويسأله أن يريه أحب الزي إلى الله تعالى، وأصلحه لدينه ودنياه، لكونه غير صاحب غرض وهي في زي بعينه.

فالله تعالى يفتح عليه ويعرفه زيا مخصوصا، فيلتزم بذلك الزي، فيكون لبسه بالله، ويكون هذا أتم وأكمل ممن يكون لبسه لله.

ومن الناس من يتوفر حظه من العلم، وينبسط بما بسطه له، فيلبس الثوب عن علم وإيقان، ولا يبالي بما لبسه ناعما لبس أو خشنا.

وربما لبس ناعما ولنفسه فيه اختيار وحظ، وذلك الحظ فيه يكون مكفرا له مردودا عليه، موهوبا له، بموافقة الله تعالى في إرادة نفسه، ويكون هذا الشخص تام التزكية، تام الطهارة، محبوبا مراده، يسارع الله تعالى إلى مُراده ومحابه.

غير أن ههنا مزلة قدم لكثير من المدعين.

حكي عن يحيى بن معاذ الرازي أنه كان يلبس الصوف والخلقان في ابتداء أمره، ثم صار في آخر عمره يلبس الناعم.

فقيل لأبي يزيد ذلك فقال: مسكين يحيى لم يصبر على الدون فكيف يصبر على التحف.

ومن الناس من يسبق إليه علم ما سوف يدخل عليه من الملبوس فيلبسه محمودا فيه، وكل أحوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء، آية ٨٤.

ولبس الخشن من الثياب هو الأحب والأولى والأسلم للعبد، والأبعد من الآفات.

قال مسلمة بن عبد الملك: دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده فى مرضه، فرأيت قميصه وسخا، فقلت لامرأته فاطمة: اغسلوا ثياب أمير المؤمنين فقالت: نفعل إن شاء الله. قال: ثم عدته فإذا القميص على حاله.

فقلت: يا فاطمة ألم آمركم أن تغسلوه؟ قالت: والله ما له قميص غير هذا.

وقال سالم: كان عمر بن عبد العزيز من ألين الناس لباسا من قبل أن يسلم إليه الخلافة، فلما سلم إليه الخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى ثم دعا بأطمار له رثة فلبسها.

وقيل: لما مات أبو الدرداء وجد فى ثوبه أربعين رقعة، وكان عطاؤه أربعة آلاف.

وقال زيد بن وهب: لبس على بن أبى طالب قميصا رازيا، وكان إذا مد كمه بلغ أطراف أصابعه، فعابه الخوارج بذلك، فقال: أتعيبونى على لباس هو أبعد من الكبر، وأجدر أن يقتدى به المسلم.

وقيل: كان عمر ﷺ إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدرة وقال: دعوا هذه الرقاق للنساء.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «نوروا قلوبكم بلباس الصوف، فإنه مذلة فى الدنيا ونور فى الآخرة، وإياكم أن تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم».

وروى أن رسول الله ﷺ احتذى نعلين، فلما نظر إليهما أعجبه حسنهما، فسجد لله تعالى، فقيل له فى ذلك فقال «خشيت أن يعرض عنى ربى

فتواضعت له لا جرم لا يبيتان في منزلي لما تخوفت المقت من الله تعالى من أجلهما» فأخرجهما فدفعهما إلى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له نعلان مخصوفتان.

وروى أن رسول الله ﷺ لبس الصوف واحتذى المخصوف وأكل من العبيد.

وإذا كانت النفس محل الآفات فالوقوف على دسائسها وخفى شهواتها وكامن هواها عسر جدا، فالأليق والأجدر والأولى الأخذ بالأحوط، وترك ما يريب إلى ما لا يريب، ولا يجوز للعبد الدخول في السعة إلا بعد إتقان علم السعة وكمال تزكية النفس.

وذلك إذا غابت النفس بقية هواها التبع، وتخلصت النية، وتسند التصرف بعلم صريح واضح.

وللعزيمة أقوام يركبونها ويراعونها، لا يرون النزول إلى الرخص خوفا من فوت فضيلة الزهد في الدنيا واللباس الناعم من الدنيا.

وقد قيل: من رق ثوبه رق دينه. وقد يرخص في ذلك لمن لا يلتزم بالزهد ويقف على رخصة الشرع.

روى علقمة عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا، فقال النبي عليه السلام: إن الله جميل يحب الجمال».

فتكون هذه الرخصة في حق من يلبسه لا بهوى نفسه في ذلك غير مفتخر به ومختال، فأما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكاثر بها فقد ورد فيه وعيد.

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قـال «إزرة المؤمـن إلى نصف الساق فيما بينـه وبين الكعبين وما كان أسفل من الكعبين فهو في النار، من جر إزاره بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة. فبينما رجل ممن كان قبلكم يتبختر في ردائه إذ أعجبه رداؤه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

ومن صح حاله بصحة علمه صحت نيته في مأكوله وملبوسه وسائر تصاريفه، وفي كل الأحوال يستقيم ويتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى. وبقدر ذلك تستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى.

الباب الخامس والأربعون
فى ذكر فضل قيام الليل

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾[1] نزلت هذه الآية فى المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على كثيب من الرمل تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب.

وسبقهم المشركون إلى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليها، وأصبح المسلمون بين محدث وجنب وأصابهم الظمأ، فوسوس لهم الشيطان أنكم تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله.

وقد غلب المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون الظفر عليهم، فأنزل الله تعالى مطرا من السماء سال منه الوادى، فشرب المسلمون منه واغتسلوا، وتوضئوا وسقوا الدواب وملئوا الأسقية، ولبد الأرض حتى ثبت به الأقدام.

قال الله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴿١٢﴾﴾[2] أمدهم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين.

ولكل آية من القرآن ظهر وبطن، وحد ومطلع لله تعالى كما جعل النعاس رحمة وأمنة للصحابة خاصة فى تلك الواقعة والحادثة، فهو رحمة نعم المؤمنين.

والنعاس قسم صالح من الأقسام العاجلة للمريدين، وهو أمنة لقلوبهم من منازعات النفس، لأن النفس بالنوم تستريح ولا تشكو الكلال والتعب إذ فى

---

(١) سورة الأنفال، آية ١١.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان ١١، ١٢.

شكايتها وتعبها تكدير القلب وبإحزامها بالنوم بشرط العلم والاعتدال راحة القلب.

لما بين القلب والنفس من المواطأة عند طمأنينتها للمريدين السالكين، فقد قيل: ينبغي أن يكون ثلث الليل والنهار نوما حتى لا يضطرب الجسد، فيكون ثمان ساعات للنوم، ساعتان من ذلك يجعلهما المريد بالليل ويزيد في أحدهما وينقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره في الشتاء والصيف.

وقد يكون بحسن الإرادة وصدق الطلب ينقص النوم عن قدر الثلث، ولا يضر ذلك إذا صار بالتدريج عادة. وقد يحمل ثقل السهر وقلة النوم وجود الروح والأنس، فإن النوم طبعه بارد رطب ينفع الجسد والدماغ، ويسكن من الحرارة واليبس الحادث في المزاج، فإن نقص عن الثلث يضر الدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم، فإذا ناب عن النوم روح القلب وأنسه لا يضر نقصانه.

لأن طبيعة الروح والأنس باردة رطبة كطبيعة النوم، وقد تقصر مدة طول الليل بوجود الروح، فتصير بالروح أوقات الليل الطويلة كالقصيرة، كما يقال: سنة الوصل سنة، وسنة الهجر سنة، فيقصر الليل لأهل الروح.

نقل عن علي بن بكار أنه قال: منذ أربعين سنة ما أحزنني إلا طلوع الفجر.

وقيل لبعضهم: كيف أنت والليل؟ قال: ما راعيته قط يريني وجهه ثم ينصرف وما تأملته.

وقال أبو سليمان الداراني: أهل الليل في ليلهم أشد لذة من أهل اللهو في لهوهم.

وقال بعضهم: ليس في الدنيا شيء يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة ثواب عاجل لأهل الليل.

وقال بعض العارفين: إن الله تعالى يطلع على قلوب المستيقظين في الأسحار فيملؤها نوراً، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير، ثم تنتشر من قلوبهم الفوائد إلى قلوب الغافلين.

وقد ورد أن الله تعالى أوحى في بعض ما أوحى إلى بعض أنبيائه: إن لي عباداً يحبونني وأحبهم، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إلي وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عن ذلك مقتك. قال: يا رب وما علامتهم؟

قال: يراعون الظلام بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا لي أقدامهم، وافترشوا لي وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملقوا إلي بإنعامي، فبين صارخ وباك، وبين متأوه وشاك، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي.

أول ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثاني لو كانت السموات السبع والأرضون وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم. والثالث أقبل بوجهي عليهم، فترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟.

فالصادق المريد إذا خلا ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره، ويصير نهاره في حماية ليله، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار، فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل، ويصير قالبه في قبة من قبلب الحق مسدداً حركاته، موفرة سكناته.

وقد ورد: من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار، ويجوز أن يكون لمعنيين:

أحدهما: أن الشكاة تستتير بالمصباح، فإذا صار سراج اليقين في القلب يزهر بكثرة زيت العمل بالليل، فيزداد المصباح إشراقا، وتكتسب مشكاة القالب نورا وضياء.

وكان يقول سهل بن عبد الله اليقين نار، والإقرار فتيلة، والعمل زيت وقد قال الله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾[2].

فنور اليقين من نور الله في زجاجة القلب يزداد ضياء بزيت العمل، فتبقى زجاجة القلب كالكوكب الدري.

وتنعكس أنوار الزجاجة على مشكاة القالب، وأيضا يلين القلب بنار النور، ويسري لينه إلى القالب، فيلين القالب للين القلب، فيتشابهان لوجود اللين الذي عمهما. قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[3].

وصف الجلود باللين كما وصف القلوب باللين، فإذا امتلأ القلب بالنور، ولأن القالب بما يسري فيه من الأنس والسرور، يندرج الزمان والمكان في نور القلب، ويندرج فيه الكلم والآيات والسور، وتشرق الأرض أرض القالب بنور ربها، إذ يصير القلب سماء، والقالب أرضا.

ولذة تلاوة كلام الله في محل المناجاة تستر كون الكائنات والكلام المجيد بكونه ينوب عن سائر الوجود في مزاحمة صفو الشهود، فلا يبقى حينئذ للنفس حديث، ولا يسمع للهاجس حسيس، وفي مثل هذه الحالة يتصور تلاوة القرآن من فاتحته إلى خاتمته من غير وسوسة وحديث نفس، وذلك هو الفضل العظيم.

---

(١) سورة الفتح، آية ٢٩.

(٢) سورة النور، آية ٣٥.

(٣) سورة الزمر، آية ٢٣.

الوجه الثاني لقوله عليه السلام: «من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار» معناه أن وجوه أموره التي يتوجه إليها تحسن وتتداركه المعونة من الله الكريم في تصاريفه، ويكون معانًا في مصدره ومورده، فيحسن وجه مقاصده وأفعاله، وينتظم في سلك السداد مسددًا أقواله، لأن الأقوال تستقيم باستقامة القلب.

الباب السادس والأربعون
في ذكر الأسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم

فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند الغروب الشمس بتجديد الوضوء، ويقعد مستقبل القبلة منتظرا مجئ الليل وصلاة المغرب، مقيما في ذلك على أنواع الأذكار، ومن أولاها التسبيح والاستغفار. قال الله تعالى لنبيه: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾[1].

ومن ذلك أن يواصل بين العشاء بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر، وأفضل ذلك الصلاة، فإنه إذا واصل بين العشاءين ينغسل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة في أوقات النهار، من رؤية الخلق ومخالطتهم، وسماع كلامهم.

فإن ذلك كله له أثر وخدش في القلوب، حتى النظر إليهم يعقب مكدرا في القلب، يدركه من يرزق صفاء القلب، فيكون أثر النظر إلى الخلق للبصيرة كالقذى في العين للبصر. وبالمواصلة بين العشاءين يرجى ذهاب ذلك الأثر.

ومن ذلك ترك الحديث بعد العشاء الآخرة، فإن الحديث في ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث في القلب من مواصلة العشاءين، ويفيد من قيام الليل.

سيما إذا كان عريا عن يقظة القلب، ثم تجديد الوضوء بعد العشاء الآخرة أيضا معين على قيام الليل.

حكى لي بعض الفقراء عن شيخ لي بخراسان أنه كان يغتسل في الليل ثلاث مرات، مرة بعد العشاء الآخرة، ومرة في أثناء الليل بعد الانتباه من النوم،

---

(١) سورة غافر، آية ٥٥.

ومرة قبل الصبح. فللوضوء والغسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر في تيسير قيام الليل.

ومن ذلك التعود على الذكر أو القيام بالصلاة حتى يغلب النوم، فإن التعود على ذلك يعين على سرعة الانتباه، إلا أن يكون واثقا من نفسه وعادته، فيتعمل للنوم ويستجلبه ليقوم في وقته المعهود، وإلا فالنوم عن الغلبة هو الذي يصلح للمريدين والطالبين.

وبهذا وصف المحبون، قيل: نومهم نوم الغرقى، وأكلهم أكل المرضى، وكلامهم ضرورة، فمن نام عن غلبة بهم مجتمع بقيام الليل يوفق لقيام الليل، وإنما النفس إذا اطمأنت ووطنت على النوم استرسلت فيه، وإذا أزعجت بصدق العزيمة لا تسترسل في الاستقرار، وهذا الانزعاج في النفس بصدق العزيمة هو التجافي الذي قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾[1].

لأن الهم بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنب والوضع نبوا وتجافيا.

وقد قيل: للنفس نظران، نظر إلى تحت لاستيفاء الأقسام البدنية، ونظر إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الروحانية.

فأرباب العزيمة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الرحمانية، فأعطوا النفوس حقها من النوم، ومنعوها حظها، فالنفس بما فيها مركوز من الترابية والجمادية ترسب وتستحلس وتستلذ النوم. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[2].

---

(١) سورة السجدة: آية ١٦

(٢) سورة غافر: آية ٦٧.

وللآدمي بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له، والرسوب صفة التراب، والكسل والتقاعد والتناوب بسبب ذلك طبيعة في الإنسان، فأرباب الهمة العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾[1]. حتى قال ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

حكم لهؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم، فهم لموضع علمهم أزعجوا النفوس عن مقار طبيعتها، ورقوها بالنظر إلى اللذات الروحانية إلى ذرى حقيقتها، فتجافت جنوبهم عن المضاجع، وخرجوا من صفة الغافل الهاجع.

ومن ذلك أن يغير العادة، فإن كان ذا وسادة يترك الوسادة، وإن كان ذا وطاء يترك الوطاء. وقد كان بعضهم يقول: لأن أرى في بيتي شيطانا أحب إلي من أن أرى وسادة، فإنها تدعوني إلى النوم.

ولتغير العادة في الوسادة والغطاء والوطاء تأثير في ذلك، ومن ترك شيئا من ذلك والله عالم بنيته وعزيمته يثيبه على ذلك بتيسير ما رام.

ومن ذلك خفة المعدة من الطعام، ثم تناول ما يأكل من الطعام إذا اقترن بذكر الله ويقظة الباطن أعان على قيام الليل، لأن بالذكر يذهب داؤه.

فإن وجد للطعام ثقلا على المعدة ينبغي أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر، فلا ينام حتى يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار.

قال بعضهم: لأن أنقص من عشائي لقمة أحب إلي من أن أقوم ليلة.

والأحوط أن يوتر قبل النوم فإنه لا يدري ماذا يحدث، ويعد طهوره وسواكه عنده، ولا يدخل النوم إلا وهو على الطهارة.

---

(١) سورة الزمر، آية ٩.
(٢) سورة الزمر، آية ٩.

قال رسول الله ﷺ «إذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة، وإن لم ينم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ فتكون المنامات أضغاث أحلام لا تصدق».

والمريد المتأمل إذا نام في الفراش مع الزوجة ينتقض وضوؤه باللمس، ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة ما لم يسترسل في التذاذ النفس باللمس، ولا بعدم يقظة القلب.

فأما إذا استرسل في الالتذاذ وغفل فتحتجب الروح أيضا لمكان صلافته.

ومن الطهارة التي تثمر صدق الرؤيا طهارة الباطن عن خدش الهوى، وكدورة محبة الدنيا، والتنزه عن انجاس الغل والحقد والحسد.

وقد ورد، من أوى إلى فراشه لا ينوي ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم.

وإذا طهرت النفس عن الرذائل انجلت مرآة القلب، وقابل اللوح المحفوظ في النوم، وانتقشت فيه عجائب الغيب وغرائب الانباء. ففي الصديقين من يكون له في منامه مكالمة ومحادثة، فيأمره الله تعالى وينهاه، ويفهمه في المنام ويعرفه، ويكون موضع ما يفتح له في نومه من الأمر والنهي كالأمر والنهي الظاهر، يعصي الله تعالى إن اخلبها.

بل تكون هذه الأوامر آكد واعظم وقعا، لأن للمخالفات الظاهرة تمحوها التوبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وهذه أوامر خاصة تتعلق بحاله فيما بينه وبين الله تعالى.

فإذا أخل بها يخشى أن ينقطع عليه طريق الإرادة، ويكون في ذلك الرجوع عن الله واستيجاب مقام المقت، فإن ابتلى العبد في بعض الأحايين بكسل وفتور عزيمة يمنع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث يمسح

اعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج بهذا القدر عن زمرة الغافلين حيث تقاعد عن فعل المتيقظين.

وهكذا إذا كسل عن القيام عقيب الانتباه يجتهد أن يستاك ويمسح اعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج فى تقلباته وانتباهاته عن زمرة الغافلين، ففى ذلك فضل كثير لمن كثر نومه وقل قيامه.

روى أن رسول الله ﷺ كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل نوم وعند الانتباه منه، ويستقبل القبلة فى نومه. وهو على نوعين، فإما على جنبه الأيمن كاللحود.

وإما على ظهره مستقبلا للقبلة كالميت المسجى، ويقول: باسمك اللهم ربى وضعت جنبى وبك أرفعه، اللهم إن امسكت نفسى فاغفر لها وارحمها.

وإن ارسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، اللهم إنى اسلمت نفسى اليك ووجهت وجهى اليك وفوضت امرى اليك لا ملجا ولا منجى منك إلا اليك، آمنت بكتابك الذى انزلته ونبيك الذى ارسلته، اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك، الحمد لله الذى حكم فقهر، الحمد لله الذى بطن فخبر، الحمد لله الذى ملك فقدر.

الحمد لله الذى هو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير، اللهم إنى أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك وشر الشيطان وشركه.

ويقرأ خمس آيات من البقرة الأربع من الأول والآية الخامسة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[١].

وآية الكرسى، و﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾[٢].

و﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٤.
(٢) سورة البقرة آية ٢٨٥.
(٣) سورة الأعراف آية ٥٤.

و﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ﴾[1].

وأول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر،

و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾[2].

و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾[3] والمعوذتين، وينفث بهن في يديه، ويمسح بهما وجهه وجسده.

وإن أضاف إلى ما قرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها فحسن.

ويقول: اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك، واستعملني بأحب الأعمال إليك التي تقربني إليك زلفى، وتبعدني من سخطك بعدا، أسألك فتعطيني، واستغفرك فتغفر لي، وادعوك فتستجيب لي، اللهم لا تؤمني مكرك، ولا تولني غيرك، ولا ترفع عني سترك، ولا تنسني ذكرك، ولا تجعلني من الغافلين.

ورد أن من قال هذه الكلمات بعث الله تعالى إليه ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة، فإن صلى ودعا أمنوا دعاءه، وإن لم يقم تعبدت الأملاك في الهواء.

وكتب لهم ثواب عبادتهم، ويسبح ويحمد ويكبر كل واحد ثلاث وثلاثين، ويتمم المائة بلا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) سورة الإسراء، آية ١١٠
(٢) سورة الكافرون، آية ١
(٣) سورة الإخلاص، آية ١

الباب السابع والأربعون
في أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل

إذا فرغ المؤذن من أذان المغرب يصلي ركعتين خفيفتين بين الأذان والإقامة.

وكان العلماء يصلون هاتين الركعتين في البيت، يعجلون بهما قبل الخروج إلى الجماعة، كيلا يظن الناس أنهما سنة مرتبة فيقتدى بهم ظنا منهم أنهما سنة.

وإذا صلى المغرب يصلي ركعتي السنة بعد المغرب، يعجل بهما فإنهما يرفعان مع الفريضة، يقرأ فيهما بقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين فيقول مرحبا بملائكة الليل، مرحبا بالملكين الكريمين الكاتبين.

اكتبا في صحيفتي أني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وأشهد أن الجنة حق،والنار حق، والحوض حق، والشفاعة حق، والصراط والميزان حق، وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتي إليها. اللهم احطط بها وزري، واغفر بها ذنبي، وثقل بها ميزاني، وأوجب لي بها أماني، وتجاوز عني يا أرحم الراحمين.

فإن واصلْ بين العشاءين في مسجد جماعته يكون جامعا بين الاعتكاف ومواصلة العشاءين، وإن رأى انصرافه إلى منزله وأن المواصلة بين العشاءين في بيته أسلم لدينه، وأقرب إلى الإخلاص، وأجمع للهم فليفعل.

وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[1] فقال «هي الصلاة بين العشاءين».

وقال عليه السلام «عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغاة النهار، وتهذب آخره».

ويجعل من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة البروج والطارق، ثم ركعتين بعد ركعتين يقرأ في الأولى عشر آيات من أول سورة البقرة، والآيتين ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[2] إلى آخر الآيتين، وخمس عشرة مرة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾[3].

وفي الثانية آية الكرسي، و ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾[4]، وخمس عشرة مرة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾.

ويقرأ في الركعتين الأخيرتين من سورة الزمر والواقعة، ويصلي بعد ذلك ما شاء، فإن أراد أن يقرأ شيئا من حزبه في هذا الوقت في الصلاة أو غيرها، وإن شاء صلى عشرين ركعة فحسن، وفي هاتين الركعتين يطيل القيام تاليا للقرآن حزبه أو مكررا آية فيها الدعاء والتلاوة، مثل أن يقرأ مكررا ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾[5].

أو آية أخرى في معناها فيكون جامعا بين التلاوة والصلاة والدعاء، ففي ذلك جمع للهم، وظفر بالفضل، ثم يصلي قبل العشاء أربعا وبعدها ركعتين، ثم ينصرف إلى منزله أو موضع خلوته فيصلي أربعا أخرى.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٤

(٢) سورة البقرة: آية ١٦٣

(٣) سورة الإخلاص: آية ١

(٤) سورة البقرة: آية ٢٨٥

(٥) سورة الممتحنة: آية ٤

وقد كان رسول الله ﷺ يصلى فى بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعا، ويقرأ فى هذه الأربع سورة لقمان، ويس، وحم الدخان، وتبارك الملك.

وإن أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسي، وآمن الرسول، وأول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، ويصلى بعد الأربع إحدى عشرة ركعة، يقرأ فيها ثلاثمائة آية من القرآن، من ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ ﴾[1] إلى آخر القرآن ثلاثمائة آية.

هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله. وإن أراد قرأ هذا القدر فى أقل من هذا العدد من الركعات. وإن قرأ من سورة الملك إلى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم كثير.

وإن لم يحفظ القرآن يقرأ فى كل ركعة خمس مرات ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾ إلى عشر مرات إلى أكثر.

ولا يؤخر الوتر إلى آخر التهجد إلا أن يكون واثقا من نفسه فى عادتها بالانتباه للتهجد، فيكون تأخير الوتر إلى آخر التهجد حينئذ أفضل.

وقد كان بعض العلماء إذا أوتر قبل النوم ثم قام يتهجد يصلى ركعة يشفع بها وتره، ثم يتنفل ما شاء، ويوتر فى آخر ذلك.

وإذا كان الوتر من أول الليل يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا يقرأ فيهما بإذا زلزلت، والهاكم.

وقيل: فعل الركعتين قاعدا بمنزلة الركعة قائما يشفع له الوتر، حتى إذا أراد التهجد يأتى به ويوتر فى آخر تهجده. ونية هاتين الركعتين نية النفل لا غير ذلك. وكثيرا ما رأيت الناس يتفاوضون فى كيفية نيتهما.

---

(١) سورة الطارق: آية ١.

وإن قرأ فى كل ليلة المسبحات وأضاف إليها سورة الأعلى فتصير ستا، فقد كان العلماء يقرأون هذه السور ويترقبون بركتها.

فإذا استيقظ من النوم فمن أحسن الأدب عند الانتباه أن يذهب بباطنه إلى الله ويصرف فكره إلى أمر الله قبل أن يجول الفكر فى شيء سوى الله ويشغل اللسان بالذكر، فالصادق كالطفل الكلف بالشيء إذا نام ينام على محبة الشيء.

وإذا انتبه يطلب ذلك الشيء الذى كان كلف به وعلى حسب هذا الكلف والشغل يكون الموت والقيام إلى الحشر، فلينظر وليعتبر عند انتباهه من النوم ما همه، فإنه هكذا يكون عند القيام من القبر، إن كان همه الله فهمه هو، وإلا فهمه غير الله.

والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة، فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى، حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذى انتبه عليه، ويكون فارا إلى ربه بباطنه خوفا من ذكر الأغيار، ومهما وافى الباطن بهذا المعيار.

فقد انتفى طريق الأنوار، وطرق النفحات الإلهية، فجدير أن تنصب إليه أقسام النيل انصبابا، ويصير جناب القرب له موئلا ومآبا، ويقول باللسان: الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، ويقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران، ثم يقصد الماء الطهور. قال الله تعالى ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾[2]
قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: الماء القرآن، والأودية القلوب، فسالت بقدرها واحتملت ما وسعت. والماء مطهر والقرآن مطهر، والقرآن بالتطهير أجدر، فالماء يقوم غيره مقامه، والقرآن والعلم لا يقوم غيره مقامه ولا يسد مسده.

---

(١) سورة الأنفال، آية ١١.
(٢) سورة الرعد، آية ١٧

فالماء الطهور يطهر الظاهر، والعلم والقرآن يطهران الباطن، ويذهبان رجز الشيطان.

فالنوم غفلة وهو من آثار الطبع، وجدير أن يكون من رجز الشيطان، لما فيه من الغفلة عن الله تعالى.

وذلك أن الله تعالى أمر بقبض القبضة من التراب من وجه الأرض، فكانت القبضة جلدة الأرض، والجلدة ظاهرها بشرة وباطنها أدمة. قال الله تعالى ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[١].

فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته، والأدمة عبارة عن باطنه وآدميته. والآدمية مجمع الأخلاق الحميدة. كان التراب موطئ أقدام إبليس.

ومن ذلك اكتسب ظلمة، وصارت تلك الظلمة معجونة في طينة الآدمي، ومنها الصفات المذمومة والأخلاق الرديئة، ومنها الغفلة والسهو.

فإذا استعمل الماء وقرأ القرآن أتى بالمطهرين جميعا، ويذهب عنه رجز الشيطان وأثر وطأته، ويحكم له بالعلم والخروج من حيز الجهل.

فاستعمال الطهور أمر شرعي له تأثير في تنوير القلب بإزاء النوم الذي هو الحكم الطبيعي الذي له تأثير في تكدير القلب، فيذهب نور هذا بظلمة ذلك، ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما مست النار.

وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من القهقهة في الصلاة حيث رآها حكما طبيعيا جالبا للإثم، والإثم رجز من الشيطان، والماء يذهب رجز الشيطان، حتى كان بعضهم يتوضأ من الغيبة والكذب وعند الغضب لظهور النفس وتصرف الشيطان في هذه المواطن.

---

(١) سورة الرعد آية ٧٢.

ولو أن المتحفظ المراعي المراقب المحاسب كلما انطلقت النفس في مباح من كلام، أو مساكنة إلى مخالطة الناس، أو غير ذلك مما هو بعرضة تحليل عقد العزيمة، كالخوض فيما لا يعني قولا وفعلا، عقب ذلك بتجديد الوضوء، لثبت القلب على طهارته ونزاهته.

ولكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذي لا يزال بخفة حركته يجلو البصر، وما يعقلها إلا العالمون.

فتفكر فيما نبهتك عليه تجد بركته وأثره. ولو اغتسل عند هذه المتجددات والعوارض والانتباه من النوم لكان أزيد في تنوير قلبه، ولكان الأجدر أن العبد يغتسل لكل فريضة، باذلا مجهوده في الاستعداد لمناجاة الله.

ويجدد غسل الباطن بصدق الإنابة، وقد قال الله تعالى ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[1] قدم الإنابة للدخول في الصلاة . ولكن من رحمة الله تعالى وحكم الحنيفية السهلة السمحة أن رفع الحرج، وعوض بالوضوء عن الغسل، وجوز أداء مفترضات بوضوء واحد، دفعا للحرج عن عامة الأمة، وللخواص وأهل العزيمة مطالبات من بواطنهم تحكم عليهم بالأولى، وتلجئهم إلى سلوك طريق الأعلى.

فإذا قام إلى الصلاة وأراد استفتاح التهجد يقول الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا. ويقول: سبحان الله، والحمد لله، الكلمات عشر مرات.

ويقول: الله أكبر ذو الملك والملكوت والجبروت والكبرياء، والعظمة والجلال، والقدرة، اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحق، ومنك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد عليه السلام حق، اللهم لك

---

(١) سورة الروم: آية ٣١.

أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت.

أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت.

أسألك مسألة البائس المسكين، وأدعوك دعاء المفتقر الذليل، فلا تجعلني بدعائك رب شقيا، وكن بي رءوفا رحيما، يا خير المسئولين ويا أكرم المعطين.

ثم يصلي ركعتين تحية الطهارة، يقرأ في الأولى بعد الفاتحة: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾[1] الآية، وفي الثانية ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾[2].

ويستغفر بعد الركعتين مرات، ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين إن أراد يقرأ فيهما بآية الكرسي، وآمن الرسول، وإن أراد غير ذلك، ثم يصلي ركعتين طويلتين.

هكذا روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد هكذا، ثم يصلي ركعتين طويلتين أقصر من الأوليين، وهكذا يتدرج إلى أن يصلي اثنتي عشرة ركعة، أو ثمان ركعات، أو يزيد على ذلك فضلا كثيرا والله أعلم.

---

(١) سورة النساء، آية ٦٤.
(٢) سورة النساء، آية ١١٠.

الباب الثامن والأربعون
فى تقسيم قيام الليل

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾[١].

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٢]. كان عملهم قيام الليل.

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[٣]. استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصابرة العدو. وفى الخبر: «عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة لربكم، وهو دأب الصالحين قبلكم، ومنهاة عن الإثم، وملغاة للوزر، ومذهب كيد الشيطان، ومطردة للداء عن الجسد».

وقد جمع من الصالحين يقومون الليل كله، حتى نقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الغداة بوضوء العشاء، منهم سعيد بن المسيب، وفضيل بن عياض، ووهيب بن الورد، وأبو سليمان الدرانى وعلى بن بكار، وحبيب العجمى، وكهمس بن المنهال وأبو حازم، ومحمد بن المنكدر، وأبو حنيفة رحمه الله، وغيرهم.

عدهم وسماهم بأنسابهم الشيخ أبو طالب المكى فى كتابه قوت القلوب. فمن عجز عن ذلك يستحب له قيام ثلثيه أو ثلثه، وأقل الاستحباب سدس الليل.

فإما أن ينام ثلث الليل الأول ويقوم نصفه وينام سدسه الآخر، أو ينام النصف الأول ويقوم ثلثه وينام السدس.

روى أن داود عليه السلام قال يارب إنى أحب أن أتعبد لك فأى وقت أقوم؟ فأوحى الله تعالى إليه يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره، فإنه من قام أوله نام

---

(١) سورة الفرقان، آية ٦٤.
(٢) سورة السجدة، آية ١٧.
(٣) سورة البقرة، آية ٤٥.

آخره، ومن قام آخره نام أوله، ولكن قم وسط الليل، حتى تخلو بي وأخلو بك، وارفع إلي حوائجك.

ويكون القيام بين نومتين ولا فيغالب النفس من أول الليل ويتنفل، فإذا غلبه النوم ينام، فإذا انتبه يتوضأ، فيكون له قومتان ونومتان، ويكون ذلكَ من أفضل ما يفعله، ولا يصلي وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يعقل ما يقول.

وقد ورد: لا تكابدوا الليل.

وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصلي من الليل فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل، فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك وقال «ليصل أحدكم من الليل ما تيسر، فإذا غلبه النوم فلينم».

وقال عليه السلام «لا تشادوا هذا الدين فإنه متين، فمن تشاد يغلبه».

ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، ولا يليق بالطالب ولا ينبغي له أن يطلع الفجر وهو نائم إلا أن يكون قد سبق له في الليل قيام طويل فيعذر في ذلك على أنه إذا استيقظ قبل الفجر بساعة مع قيام قليل سبق في الليل يكون أفضل من قيام طويل.

ثم النوم إلى بعد طلوع الفجر، فإذا استيقظ قبل الفجر يكثر الاستغفار والتسبيح ويغتنم تلك الساعة، وكلما يصلي بالليل يجلس قليلاً بعد كل ركعتين، ويسبح ويستغفر ويصلي على رسول الله ﷺ فإنه يجد بذلك ترويحاً وقوة على القيام.

وقد كان بعض الصالحين يقول: هي أول نومة فإن انتبهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أنام الله عيني.

وحكى لي بعض الفقراء عن شيخ له أنه كان يأمر الأصحاب بنومة واحدة بالليل، وأكلة واحدة لليوم والليلة.

وقد جاء في الخبر: قم من الليل ولو قدر حلب شاة. وقيل: يكون ذلك قدر أربع ركعات وقدر ركعتين.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾[1]. هو قيام الليل. ومن حرم قيام الليل كسلا وفتورا في العزيمة أو تهاونا به لقلة الاعتداد بذلك أو اغترارا بحاله، فليبك عليه فقد قطع عليه طريق كبير من الخير.

وقد يكون من أرباب الأحوال من يكون له إيواء إلى القرب، ويجد من دعة القرب، ما يفتر عليه داعية الشوق، ويرى أن القيام وقوف في مقام الشوق، وهذا يغلط فيه ويهلك به خلق من المدعين.

والذي له ذلك ينبغي أن يعلم أن استمرار هذه الحالة متعذر، والإنسان متعرض للقصور والتخلف والشبهة. ولا حالة أجل من حال رسول الله ﷺ، وما استغنى عن قيام الليل وقام حتى تورمت قدماه.

وقد يقول بعض من يحاج في ذلك: إن رسول ﷺ فعل ذلك تشريعا، فنقول: ما بالنا نتبع تشريعه وهذه دقيقة فتعلم أن رؤية الفضيلة في ترك القيام وادعاء الإيواء إلى جناب القرب، واستواء النوم واليقظة امتلاء وابتلاء حالي، وهو تقيد بالحال وتحكم للحال وتحكم من الحال في العبد.

والأقوياء لا يتحكم فيهم الحال، ويصرفون الحال في صور الأعمال، فهم متصرفون في الحال لا الحال متصرف فيهم، فليعلم ذلك فإنا رأينا من الأصحاب من كان في ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى أن ذلك وقوف وقصور.

---

(١) سورة آل عمران، آية ٢٦.

قيل للحسن: يا أبا سعيد إني أبيت معافى، وأحب قيام الليل، وأعد طهوري فما بالي لا أقوم؟ قال: ذنوبك قيدتك فليحذر العبد في نهاره ذنوبا تقيده في ليله.

وقال الثوري رحمه الله: حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنب أذنبتُه، فقيل له: ما كان الذنب؟ قال: رأيت رجلا بكاء فقلت في نفسي هذا مراء.

وقال بعضهم: دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكي فقلت: ما بالك أتاك نعي بعض أهلك؟ فقال: أشد، فقلت: وجع يؤلمك؟ قال: أشد، فقلت: وما ذاك؟ قال: بابي مغلق، وستري مسبل، ولم أقرأ حزبي البارحة، وما ذاك إلا بذنب أحدثته.

وقال بعضهم: الاحتلام عقوبة. وهذا صحيح، لأن الراعي المتحفظ بنية تحفظه علمه بحاله بقدر ويتمكن من سد باب الاحتلام، ولا يتطرق الاحتلام إلا على جاهل بحاله أو مهمل حكم وقته وأدب حاله، ومن كمل تحفظه ورعايته، وقيامه بأدب حاله.

قد يكون من ذنبه الموجب للاحتلام، ووضع الرأس على الوسادة، إذا كان ذا عزيمة في ترك الوسادة، وقد يتهمد للنوم ووضع الرأس على الوسادة بحسن النية من لا يكون ذلك ذنبه، وله فيه نية للعون على القيام، وقد يكون ذلك ذنبا بالنسبة إلى بعض الناس.

فإذا كان هذا القدر يصلح أن يكون ذنبا جالبا للاحتلام فقس على هذا ذنوب الأحوال، فإنها تختص بأربابها، ويعرفها أصحابها. وقد يرتفق بأنواع الرفق من الفراش الوطئ والوسادة ولا يعاقبُ بالاحتلام إذا كان عالما ذا نية يعرف مداخل الأمور ومخارجها، وكم من نائم يسبق القائم لوفر علمه وحسن نيته.

وفى الخبر: «إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد، فإن قعد وذكر الله تعالى انحلت عقدة، وإن توضأ انحلت أخرى وإن صلى ركعتين انحلت العقد كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس».

وفى خبر آخر «إن من نام حتى يصبح بال الشيطان فى أذنه».

والذى يخل بقيام الليل كثرة الاهتمام بأمور الدنيا وكثرة أشغال الدنيا، وإتعاب الجوارح، والامتلاء من الطعام، وكثرة الحديث، واللغو واللغط وإهمال القيلولة. والموفق من يغتنم وقته، ويعرف داءه ودواءه، ولا يهمل إليهمل.

الباب التاسع والأربعون
فى استقبال النهار والأدب فيه والعمل

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾[1] أجمع المفسرون على أن أحد الطرفين أراد به الفجر، واختلفوا فى الطرف الآخر.

قال قوم: أراد به المغرب وقال آخرون: صلاة العشاء. وقال قوم: صلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف، وزلفا من الليل: صلاة العشاء.

ثم إن الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف فائدتها وثمرتها، وقال ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[2] أى الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات.

وروى أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصارى كان يبيع التمر، فأتت امرأة تبتاع تمرا، فقال لها إن هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه، فهل لك فيه رغبة؟ قالت: نعم، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، ثم أتى النبى عليه السلام وقال يا رسول الله ما تقول فى رجل راود امرأة عن نفسها ولم يبق شيء مما يفعل الرجال بالنساء إلا ركبه غير أنه لم يجامعها؟

قال عمر بن الخطاب: لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك. ولم يرد رسول الله ﷺ عليه شيئا، وقال: أنتظر أمر ربى، وحضرت صلاة العصر، وصلى النبى عليه الصلاة والسلام العصر، فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية، فقال النبى عليه السلام: أين أبو اليسر؟ فقال: ها أنا ذا يا رسول الله. قال «شهدت معنا هذه

---

(١) سورة هود، آية ١١٤.
(٢) سورة هود، آية ١١٤.

الصلاة»؟ قال: نعم، قال: «اذهب فإنها كفارة لما عملت» فقال عمر: يا رسول الله هذا له خاصة أو لنا عامة؟ فقال: «بل للناس عامة».

فيستعد العبد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر، ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا في أول الليل، ثم يؤذن إن لم يكن أجاب المؤذن، ثم يصلي ركعتي الفجر، يقرأ في الأولى بعد الفاتحة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ ﴾، وفي الثانية ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾.

وإن أراد قرأ في الأولى ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ ﴾[1] الآية في سورة البقرة، وفي الأخرى ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾[2].

ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما تيسر له من العدد، وإن اقتصر على كلمة أستغفر الله لذنبي سبحان الله بحمد ربي، أتى بالمقصود من التسبيح والاستغفار.

ثم يقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملي، وتلم بها شعثي، وترد بها الفتن عني، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلقني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء.

اللهم أعطني إيمانا صادقا، ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة.

اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء، ومنازل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، ومرافقة الأنبياء.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٣٦.

(٢) سورة آل عمران، آية ٥٣.

اللهم إني أنزل بك حاجتي، وإن قصر رأيي، وضعف عملي، وافتقرت إلى رحمتك، وأسألك يا قاضي الأمور، ويا شافي الصدور، كما تجير بين البحور، أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور.

اللهم ما قصر عنه رأيي، وضعف فيه عملي، ولم تبلغه نيتي وأمنيتي، من خير وعدته أحدا من عبادك، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك، فإنا راغب إليك فيه، وأسألك إياه يا رب العالمين.

اللهم اجعلنا هادين مهديين، غير ضالين ولا مضلين، حربا لأعدائك وسلما لأوليائك، نحب بحبك الناس، ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك، اللهم هذا الدعاء مني ومنك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ذي الحبل الشديد والأمر الرشيد.

أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود، والموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد، سبحان من تعطف بالعز وقال به، سبحان من لبس المجد وتكرم به، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي الجود والكرم.

سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه. اللهم اجعل لي نورا في قلبي، ونورا في قبري، ونورا في سمعي، ونورا في بصري، ونورا في شعري، ونورا في بشري، ونورا في لحمي، ونورا في دمي، ونورا في عظامي، ونورا من بين يدي ونورا من خلفي، ونورا عن يميني، ونورا عن شمالي، ونورا من فوقي، ونورا من تحتي، اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا.

ولهذا الدعاء أثر كبير، وما رأيت أحدا حافظ عليه إلا وعنده خير ظاهر وبركة، وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضا بحفظه والمحافظة عليه

منقول عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر، ثم يقصد المسجد للصلاة في الجماعة.

ويقول عند خروجه من منزله ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝ ﴾[١].

ويقول في الطريق: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا إليك، لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال «من قال ذلك إذا خرج إلى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له، وأقبل الله تعالى عليه بوجه الكريم حتى يقضي صلاته».

وإذا دخل المسجد، أو دخل سجادته للصلاة يقول: بسم الله، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك، ويقدم رجله اليمنى في الدخول، واليسرى في الخروج من المسجد أو السجاد. فسجادة الصوفي بمنزلة البيت والمسجد.

ثم يصلي صلاة الصبح في جماعة، فإذا سلم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن.

لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. ويقرأ هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم التسعة والتسعين اسما إلى آخرها، فإذا فرط منها يقول: اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك اللهم أنت

---

(١) سورة آل عمران: آية ٥٣.

السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيرك، ولا تسئ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي، ولا تسلط على من لا يرحمني.

اللهم هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك، واختمه لي بمغفرتك ورضوانك، وارزقني فيه حسنة تقبلها مني، وزكها وضعفها، وما عملت فيه من سيئة فاغفر لي إنك غفور رحيم ودود. رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا.

اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه، وأعوذ بك من شره وشر ما فيه، وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار، ومن بغتات الأمور وفجاءة الأقدار، ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقا يطرق منك بخير يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وأعوذ بك أن أزل أو أزل، أو أضل أو أضل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي، عز جارك وجل ثناؤك، وتقدست أسماؤك، وعظمت نعماؤك.

أعوذ بك من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، أعوذ بك من حدة الحرص، وشدة الطمع، وسورة الغضب، وسنة الغفلة، وتعاطي الكلفة.

اللهم إني أعوذ من مباهاة المكثرين، والإزراء على المقلين، وأن أنصر ظالما، أو أخذ مظلوما، وأن أقول في العلم بغير علم، أو عمل في الدين بغير يقين.

أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم، أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك وابن عبديك، وعلى عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك على، وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا، وآخرها نجاحا، وأوسطه فلاحا اللهم اجعل أوله رحمة، وأوسطه نعمة، وآخره تكرمة. أصبحنا وأصبح الملك لله، والعظمة والكبرياء لله، والجبروت والسلطان لله، والليل والنهار وما سكن فيهما لله الواحد القهار، أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين.

اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أنت الأحد الصمد، الذى لم يلد لم يولد ولم يكن له كفوا أحد، يا حى يا قيوم، يا حى حين لا حى فى ديمومة ملكه وبقائه.

يا حى محيى الموتى، يا حى مميت الأحياء، ووارث الأرض والسماء. اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم، وباسمك الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم. اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم الأجل الأعز الأكرم، الذى إذا دعيت به أجبته وإذا سئلت به أعطيته، يا نور النور، يا مدبر الأمور، يا عالم ما فى الصدور، يا سميع يا قريب، يا مجيب الدعاء، يا لطيفا لما يشاء، يا رءوف يا رحيم.

يا كبير يا عظيم، يا الله يا رحمن، يا ذا الجلال والإكرام. الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم. وعنت الوجوه للحي القيوم. يا إلهي وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت.

اللهم إني أسألك باسمك يا الله الله الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو رب العرش الكريم، أنت الأول والآخر والظاهر والباطن، وسعت كل شيء رحمة وعلما. كهيعص، حم، عسق، الر، حم، ن، يا واحد يا قهار، يا عزيز يا جبار، يا أحد يا صمد، يا ودود يا غفور.

هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

اللهم إني أعوذ باسمك المكنون المخزون، المنزل السلام الطهر الطاهر القدوس المقدس، يا دهر يا ديهور، يا ديهار، يا أبد، يا أزل، يا من لم يزل ولا يزال ولا يزول، هويا هو لا إله إلا هو، يا من لا هو إلا هو، يا من لا يعلم ما هو إلا هو، يا كان يا كينان، يا روح يا كائن قبل كل كون، يا كائن بعد كل كون.

يا مكونا لكل كون اهيا اشراهيا ادوناي اصبوئت يا مجلي عظائم الأمور، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، اللهم إني أعوذ بك من فتنة الدجال، وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات.

اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمته وشر ما لم أعلم.

وأعوذ بك من شر سمعي وبصري ولساني وقلبي، اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة، والذل والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر، والفسوق والشقاق، والنفاق، وسوء الأخلاق، وضيق الأرزاق، والسمعة والرياء، وأعوذ بك من الصمم والبكم، والجنون والجذام، والبرص وسائر الأسقام.

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحويل عافيتك، ومن فجاءة نقمتك، ومن جميع سخطك، اللهم إني أسألك الصلاة على محمد وعلى آله، وأسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل، وأسألك ما سألك عبدك ونبيك محمد ﷺ وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين يا قيوم برحمتك أستغيثه لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله.

يا نور السموات والأرض، يا جمال السموات والأرض، يا عماد السموات والأرض، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا صريخ المستصرخين، يا غوث المستغيثين، يا منتهى رغبة الراغبين، والمفرج عن المكروبين، والمروح عن المغمومين، ومجيب دعوة المضطرين، وكاشف السوء، وأرحم الراحمين، وإله العالمين، منزول بك كل حاجة يا أرحم الراحمين.

اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، وأقلني عثراتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي.

اللهم إني ضعيف فقوّ في رضاك ضعفي، وخذ إلى الخير بناصيتي، واجعل الإسلام منتهى رضائي. اللهم إني ضعيف فقوني، اللهم إني ذليل فأعزني، اللهم إني فقير فأغنني برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى، فاقبل معذرتى، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى.

اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى، ويقينا صادقا، حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى، والرضا بما قسمت لى، يا ذا الجلال والإكرام.

الهم يا هادى المضلين، ويا راحم المذنبين، ومقيل عثرة العاثرين، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم، والمسلمين كلهم أجمعين، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين، الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين آمين يا رب العالمين.

اللهم عالم الخفيات، رفيع الدرجات، تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذا الطول، لا إله إلا هو، أنت الوكيل وإليك المصير. يا من لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشغله سمع عن سمع، ولا تشتبه عليه الأصوات، ويا من لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين، أذقنى برد عفوك، وحلاوة رحمتك.

اللهم إنى أسألك قلبا سليما، ولسانا صادقا، وعملا متقبلا، أسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب.

اللهم إنى أسألك إيمانا لا يرتد، ونعيما لا ينفد، وقرة عين الأبد، ومرافقة نبيك محمد، وأسألك حبك، وحب من أحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك.

اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على خلقك، أحينى ما كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى ما كانت الوفاة خيرا لى. أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وكلمة العدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة، وفتنة مضلة.

اللهم اقسم لى من خشيتك ما تحول به بينى وبين معصيتك ومن طاعتك ما يدخلنى جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.

اللهم ارزقنا حزن خوف الوعيد وسرور رجاء الموعود، حتى نجد لذة ما نطلب، وخوف ما منه نهرب.

اللهم البس وجوهنا منك الحياء، واملأ قلوبنا بك فرحا، واسكن فى نفوسنا من عظمتك مهابة، وذلل جوارحنا لخدمتك واجعلك أحب إلينا مما سواك، واجعلنا أخشى لك ممن سواك، نسألك تمام النعمة بتمام التوبة، ودوام العافية بدوام العصمة، وداء الشكر بحسن العبادة.

اللهم إنى أسألك بركة الحياة وخير الحياة، وأعوذ بك من شر الحياة، وشر الوفاة، وأسألك خير ما بينهما، أحينى حياة السعداء، حياة من تحب بقاءه، وتوفنى وفاة الشهداء، وفاة من تحب لقاءه، يا خير الرازقين، وأحسن التوابين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، ورب العالمين.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم ما خلقته واغفر ما قدرت، وطيب ما رزقته وتمم ما أنعمته، وتقبل ما استعملته واحفظ ما استحفظت، ولا تهتك ما سترت، فإنه لا إله إلا أنت، استغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير خدمتك، ومن كل سرور بغير قربك، ومن كل فرح بغير مجالستك، ومنك ل شغل بغير معاملتك.

اللهم إنى استغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه. اللهم إنى استغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به.

اللهم إنى أستغفرك من كل نعمة انعمت بها على فتقويت بها على معصيتك.

اللهم إنى أستغفرك من كل عمل عملته لك فخالطه ما ليس لك.

اللهم إني أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد، وأسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه، وأعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه.

اللهم احفظنا فيما أمرتنا، واحفظنا عما نهيتنا، واحفظ لنا ما أعطيتنا، يا حافظ الحافظين، ويا ذاكر الذاكرين، ويا شاكر الشاكرين، بذكرك ذكروا، وبفضلك شكروا، يا غياث يا مغيث يا مستغاث يا غياث المستغيثين لا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأهلك ولا إلى أحد من خلقك فأضيع، اكلأني كلاءة الوليد، ولا تخل عني، وتولني بما تتولى به عبادك الصالحين.

أنا عبدك وابن عبدك، ناصيتي بيدك، جار في حكمك، عدل في قضاؤك، نافذ في مشيئتك، إن تعذب فأهل ذلك أنا، وإن ترحم فأهل ذلك أنت، فافعل اللهم يا مولاي يا الله يا رب ما أنت له أهل، ولا تفعل اللهم يا رب يا الله ما أنا له أهل، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة.

يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، هب لي ما لا يضرك، وأعطني ما لا ينقصك، يا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين وألحقني بالصالحين، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة، والعصمة من المعصية، وإفراغ الصبر في الخدمة، وإيزاع الشكر في النعمة، أسألك حسن الخاتمة.

وأسألك اليقين، وحسن المعرفة بك، وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك وأسألك الرضا وحسن الثقة بك وأسألك حسن المنقلب إليك.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وأصلح أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

اللهم اغفر لي ولوالدي ولمن تولدا وارحمهما كما ربياني صغيرا، واغفر لأعمامنا وعماتنا وأخوالنا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، يا أرحم الراحمين، يا خير الغافرين.

ولما كان الدعاء مخ العبادة، أحببنا أن نستوفي من ذلك قسما صالحا نرجو بركته.

وهذه الأدعية استخرجها الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله في كتاب قوت القلوب، وعلى نقله كل الاعتماد وفيه البركة.

فليدع بهذه الدعوات منفردا أو في الجماعة إماما أو مأموما ويختصر منها ما يشاء.

الباب الخمسون
فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات

فمن ذلك أن يلازم موضعه الذى صلى هو فيه مستقبل القبلة، إلا أن يرى انتقاله إلى زاويته أسلم لدينه، لئلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شئ، فإن السكوت فى هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين يجده أهل المعاملة وأرباب القلوب.

وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك . ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة إلى المفلحون، والآيتين وإلهكم إله واحد، وآية الكرسى، والآيتين بعدها، وآمن الرسول، والآية قبلها، وشهد الله، وقل اللهم مالك الملك، وإن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض إلى المحسنين، ولقد جاءكم رسول إلى الأخر.

وقل ادعوا الله الآيتين، وآخر الكهف من إن الذين آمنوا، وذا النون إذ ذهب مغاضباً إلى خير الوارثين، فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، سبحان ربك إلى آخر السورة.

ولقد صدق الله، وأول سورة الحديد إلى بذات الصدور، وآخر سورة الحشر من لو أنزلنا، ثم يسبح ثلاثاً وثلاثين، وهكذا يحمد مثله، ويكبر مثله، ويتمها مائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له .

فإذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظاً أو من المصحف، أو يشتغل بأنواع الأذكار، ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس، فإن النوم فى هذا الوقت مكروه جداً، فإن غلبه النوم فليقم فى مصلاه قائماً مستقبل القبلة.

فإن لم يذهب النوم بالقيام يخط خطوات نحو القبلة، يتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة، ففي إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة.

وجدنا ذلك بحمد الله ونوصي به الطالبين، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر .

وهذا الوقت أول النهار، والنهار مظنة الآفات، فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه، وتبنى أوقات النهار جميعاً على هذا البناء.

فإذا قارب طلوع الشمس يبتدئ بقراءة المسبعات العشر، وهي من تعليم الخضر عليه السلام، علمها إبراهيم التيمي، و ذكر أنه تعلمها من رسول الله ﷺ ، وينال بالمداومة عليها جميع المتفرق في الأذكار والدعوات وهي عشرة أشياء، سبعة الفاتحة ، والمعوذتان، وقل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون، وآية الكرسي، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والصلاة سبعاً.

اللهم افعل بي وبهم عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل إنك غفور حليم، جواد كريم، رءوف رحيم .

وروى أن إبراهيم التيمي لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الخضر رأى في المنام أنه دخل الجنة ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة.

وقيل إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم، وقيل لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة .

فإذا فرغ من المسبعات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس قدر رمح .

روى عن رسول الله ﷺ انه قال « لأن اقعد فى مجلس اذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن اعتق اربع رقاب » .

ثم يصلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه، فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يصلى الركعتين، وبهاتين الركعتين تتبين فائدة رعاية هذا الوقت.

وإذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرا يجد فى باطنه اثرا ونورا وروحا وانسا إذا كان صادقا، والذى يجده من البركة ثواب معجل له على عمله هذا .

واحب ان يقرا فى هاتين الركعتين فى الأولى اية الكرسى وفى الأخرى آمن الرسول، والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية، وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه فى يومه وليلته

ثم يصلى ركعتين آخريين يقرا المعوذتين فيها فى كل ركعة سورة، وتكون صلاته هذه ليستعذ بالله تعالى من شر يومه وليلته، ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول : اعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر السامة والهامة، واعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر عذابك وشر عبادك.

واعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر ما يجرى به الليل والنهار، ان ربى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

ويقول بعد الركعتين الأوليين : اللهم إنى أصبحت لا استطيع دفع ما اكره، ولا أملك نفع ما ارجو، واصبحت مرتهنا بعملى، واصبح امرى بيد غيرى، فلا فقير افقر منى، اللهم لا تشمت بى عدوى، ولا تسئ بى صديقى، ولا تجعل مصيبتى فى دينى، ولا تجعل الدنيا اكبر همى، ولا مبلغ علمى ، ولا تسلط على من لا يرحمنى.

اللهم إني أعوذ بك من الذنوب التي تزيل النعم، وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم .

ثم يصلي ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمله في يومه وليلته، وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق، وإلا فالاستخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصليها لما ككل أمر يريده.

ويقرأ في هاتين الركعتين "قل يا أيها الكافرون"، وقل هو الله أحد، ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب، ويقول فيه ككل قول وعمل أريده في هذا اليوم اجعل فيه الخيرة .

ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ في الأولى سورة الواقعة، وفي الأخرى سورة الأعلى، ويقول بعدها: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعل حبك أحب الأشياء إلي، وخشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك.

وإذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر عيني بعبادتك، واجعل طاعتك في كل شئ مني يا أرحم الراحمين .

ثم يصلي بعد ذلك ركعتين، يقرأ فيهما شيئاً من حزبه من القرآن .

ثم بعد ذلك إن كان متفرغاً ليس له شغل في الدنيا يتنقل في أنواع العمل في الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى، وإن كان ممن له في الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليمض لحاجته ومهامه بعد أن يصلي ركعتين لخروجه من المنزل، وهكذا ينبغي أن يفعل أبداً، لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلي ركعتين لقيه الله سوء المخرج.

ولا يدخل البيت إلا ويصلي ركعتين ليقيه الله سوء المدخل، بعد أن يسلم على من في المنزل من الزوجة وغيرها، وإن لم يكن في البيت أحد يسلم أيضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين .

وإن كان متفرغا فأحسن أشغاله في هذا الوقت إلى الصلاة صلاة الضحى، فإن كان عليه قضاء صلى صلاته يوم أو يومين أو أكثر، وإلا يصلي ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن.

فقد كان من الصالحين من يختم القرآن في الصلاة بين اليوم والليلة، وإلا فليصل أعدادا من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد، وبالآيات التي في القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] وأمثال هذه الآية يقرأ في كل ركعة آية منها، إما مرة أو يكررها مهما شاء .

ويختار للطالب أن يصلي بين الصلاة التي ذكرناها بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة، وقد كان في الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة ركعة.

ومن ليس له في الدنيا شغل وقد ترك الدنيا على أهلها فما باله يبطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى .

قال سهل بن عبد الله التستري: لا يكمل شغل قلب عبد الله الكريم وله في الدنيا حاجة .

فإذا ارتفعت الشمس، وتنصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والمغرب يصل الضحى، فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى. قال رسول الله ﷺ: « صلاة الضحى إذا رمضت الفصال، وهو أن ينام الفصيل في ظل أمه عند حر الشمس.

وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس. وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة، ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر.

---

(١) سورة الممتحنة، آية رقم : ٤

ثم بعد ذلك إن كان هناك حق يقضي مما ندب إليه من زيارة أو عيادة يمضي فيه، وإلا فليديم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهراً وباطناً، وقلباً وقالباً، وإلا فباطناً. وترتيب ذلك أنه يصلي ما دام منشرحاً ونفسه مجيبة.

فإن سئم ينزل من الصلاة إلى التلاوة، فإن مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة .

فإن سئم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقلب واللسان، فهو أخف من القراءة

.

فإن سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلازم بقلبه المراقبة، والمراقبة علم القلب بنظر الله تعالى إليه، فما دام هذا العلم ملازماً لقلبه فهو مراقب، والمراقبة عين الذكر وأفضله.

فإن عجز عن ذلك أيضاً وتملكه الوساوس وتزاحم في باطنه حديث النفس فلينم ففي النوم السلام، وإلا فكثرة حديث النفس تقسي القلب ككثرة الكلام، لأنه كلام من غير لسان فيحترز عن ذلك .

قال سهل بن عبد الله : أسوأ المعاصي حديث النفس .

والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره، فإنه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر ما مضى ورأى وسمع كشخص آخر في باطنه، فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية، كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر

ويمكن للطالب المجد أن يصلي من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى، وأقل من ذلك عشرون ركعة يصليها خفيفة، أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر.

والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن .

قال سفيان: كان يعجبهم إذا فرغوا أن يناموا طلباً للسلامة .

وهذا النوم فيه فوائد، منها أنه يعين على قيام الليل .

ومنها أن النفس تستريح ويصفو النهار لبقية النهار والعمل فيه، والنفس إذا استراحت عادت جديدة، فبعد الانتباه من نوم النهار تجد في الباطن نشاطاً آخر وشغفاً آخر كما كان في أول النهار.

فيكون للصادق في النهار نهاران يغتنمهما بخدمة الله تعالى و الدؤب في العمل .

وينبغي أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء، بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذاكراً أو مسبحاً أو تالياً.

قال الله تعالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾[1] وقال ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾[2]

قيل : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾[3] أراد العشاء الأخير

« وأطراف النهار » أراد الظهر والمغرب، لأن الظهر صلاة في آخر الطرف الأول من النهار، وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب، فصار الظهر آخر الطرف الأول، والمغرب آخر الطرف الآخر،

---

(١) سورة هود ، آية رقم : ١١٤ .
(٢) سورة طه ، آية رقم : ١٣٠ .
(٣) سورة الأعراف، آية رقم : ١٥٥ .

فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر كما استقل الطرف الأول، وقد عاد بنوم النهار جديدا كما كان بنوم الليل .

ويصلى فى أول الزوال قبل السنة والفرض أربع ركعات بتسليمه واحدة كان يصليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه صلاة الزوال قبل الظهر فى أول أوقاتها، ويحتاج أن يراعى لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يفطن للوقت قبل المؤذنين حين يذهب وقت الكراهية بالاستواء، فيشرع فى صلاة الزوال ويسمع الأذان وقد توسط هذه الصلاة.

ثم يستعد لصلاة الظهر، فإن وجد فى باطنه كدرا من مخالطة أو مجالسة اتفقت يستغفر الله تعالى ويتضرع إليه، ولا يشرع فى صلاة الظهر إلا بعد أن يجد الباطن عائدا إلى حالة من الصفاء. والذائقون حلاوة المناجاة لابد أن يجدوا صفو الأنس فى الصلاة، يتكدرون بيسير من الاسترسال فى المباح، ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر.

وقد يكون ذلك بمجرد المخالطة وا لمجالس مع الأهل والولد مع كون ذلك عبادة، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العقد وإذهاب الكدر، وحل العقد بصدق الإنابة والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى.

ودواء ما يحدث من الكدر بمجالسة الأهل والولدان أن يكون فى مجالسته غير راكن إليهم كل الركون، بل يسترق القلب فى ذلك نظرات إلى الله تعالى، فتكون تلك النظرات كفارة لتلك المجالسة إلا أن يكون قوى الحال لا يحجبه الخلق عن الحق، فلا ينعقد على باطنه عقدة، فهو كما يدخل فى الصلاة لا يجدها ويجد باطنه وقلبه، لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى المجالسة كان استرواح نفسه منغمرا مروح قلبه، لأنه يجالس

ويخالط، وعين ظاهرة ناظرة إلى الخلق، وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية، فلا ينعقد على باطنه عقدة .

وصلاة الزوال التي ذكرناها تحل العقد، وتهيئ الباطن لصلاة الظهر، فيقرأ في صلاة الزوال بمقدار سورة البقرة في النهار الطويل، وفي القصير ما يتيسر من ذلك. قال الله تعالى: ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[1]

وهذا هو الإظهار، فإن انتظر بعد السنة حضور الجماعة للفرض وقرأ الدعاء الذي بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر فحسن، وكذلك ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا به إلى صلاة الفجر .

ثم إذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الكرسي، ويسبح ويحمد ويكبر ثلاثاً وثلاثين كما وصفنا، ولو قدر على الآيات كلها التي ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الأدعية أيضاً كان ذلك خيراً كثيراً وفضلاً عظيماً. ومن له همة ناهضة وعزيمة صادقة لا يستكثر شيئاً لله تعالى .

ثم يحيى بين الظهر والعصر كما يحيى بين العشائين على الترتيب الذي ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة.

ومن دام سهره ينام نومه خفيفة في النهار الطويل بين الظهر والعصر، ولو أحيه بين الظهر والعصر بركعتين يقرأ فيهما ربع القرآن أو يقرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير.

وإن أراد أن يحيى هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك، أو بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين، ويستاك قبل الزوال إذا كان صائماً، وإن لم يكن صائماً فأى وقت تغير فيه الفم .

---

(١) سورة الروم، آية رقم : ١٨ .

وفي الحديث «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب» وعند القيام إلى الفرائض يستحب.

قيل: إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا.

وقيل: هو خير، وإن أراد أن يقرأ بين الصلاتين في صلاته في عشرين ركعة في كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ في الركعة الأولى، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

ثم في الثانية ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[2].

ثم ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ ﴾[3] إلى آخر السورة.

ثم ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ الآية. ثم ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ ﴾[4] الآية.

ثم ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ ﴾[5]. ثم ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ﴾[6].

ثم ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ ﴾[7].

ثم ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾[8] الآية

ثم ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[9].

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠١.

(٢) سورة البقرة، آية رقم ٢٥٠.

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦.

(٤) سورة آل عمران: آية رقم ١٩٣.

(٥) سورة آل عمران آية رقم ٥٣.

(٦) سورة الأعراف آية رقم ١٥٥.

(٧) سورة يوسف، آية رقم ١٠١.

(٨) سورة إبراهيم، آية رقم ٣٨.

(٩) سورة طه، آية رقم ١١٤.

ثم ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾[1].

ثم ﴿ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا ﴾[2].

ثم ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[3].

ثم ﴿ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا ﴾[4].

ثـــــــم ﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[5].

ثم ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾[6]

ثـم ﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ ﴾ الآيـة مـن سورة الأحقاف.

ثم ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ ﴾[7] الآية.

ثم ﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا ﴾[8].

ثـم ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴾[9].

مهما يصل فليقرأ بهذه الآيات وبالمحافظة على هذه الآيات في الصلاة مواظباً للقلب واللسان يوشك أن يرقى إلى مقام الإحسان. ولو ردد فرد آية

(١) سورة الأنبياء، آية رقم: ٨٧ .
(٢) سورة الأنبياء، آية رقم: ٨٩ .
(٣) سورة المؤمنون، آية رقم: ١١٨ .
(٤) سورة الفرقان، آية رقم: ٧٤ .
(٥) سورة النمل، آية رقم: ١٩ .
(٦) سورة غافر، آية رقم: ١٩ .
(٧) سورة الحشر، آية رقم: ١٠ .
(٨) سورة الممتحنة، آية رقم: ٤ .
(٩) سورة نوح، آية رقم: ٢٨ .

من هذه في ركعتين من الظهر أو العصر كان في جميع الوقت مناجياً لمولاه وداعياً وتالياً ومصلياً .

والدأب في العمل واستيعاب أجزاء النهار بالذة وحلاوة من غير سآمة لا يصح إلا لعبد تزكت نفسه بكمال التقوى، والاستقصاء في الزهد في الدنيا، وانتزع منه متابعة الهوى.

ومتى بقي على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لا يدوم روحه في العمل، بل ينشط وقتاً ويسام وقتاً، ويتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعة شئ من الهوى بنقصان تقوى أو محبة دنيا.

وإذا صح في الزهد والتقوى فإن ترك العمل بالجوارح لا يفتر عن العمل بالقلب، فمن رام دوام الروح و استحلاء الدؤب في العمل فعليه بحسم مادة الهوى، والهوى روح النفس لا يزول ولكن تـزول متابعته. والنبي عليه السلام ما استعاذ من وجود الهوى ولكن استعاذ من متابعته، فقال: « أعوذ بك من هوى متبع »

ولم يستعذ من وجود الشح فإنه طبيعة النفس، ولكن استعاذ من طاعته فقال «وشح من طاع » .

ودقائق متابعة الهوى تتبين على قدر صفاء القلب وعلو الحال، فقد يكون متبعاً للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمتهم أو النظر إليهم.

وقد يتبع الهوى بتجاوز الاعتدال في النوم والأكل وغير ذلك من أقسام الهوى المتبع ، وهذا شغل من ليس له شغل إلا في الدنيا .

ثم يصلي العبد قبل العصر أربع ركعات، فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم، ولو اغتسل كان أفضل.

فكذلك له أثر ظاهر في تنوير الباطن وتكميل الصلاة .

ويقرأ في الأربع قبل العصر إذا زلزلت والعاديات والقارعة والهاكم، ويصلي العصر، ويجعل من قراءته في بعض الأيام والسماء ذات البروج، وسمعت أن قراءة سورة البروج في صلاة العصر أمان من الدماميل، ويقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك.

فإذا صلى العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقي الأذكار والتلاوة. وأفضل من ذلك مجالسة من يزهده في الدنيا ويسدد كلامه عرى التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوى عزائم المريدين.

فإذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الأذكار، وإن عدمت هذه المجالسة وتعذرت فليتراوح بالتنقل في أنواع الأذكار، وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه في أول النهار.

ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء، وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر و أجازه المشايخ والصالحون .

ويقول كلما خرج من منزله بسم الله حسبي الله لا قوة إلا بالله، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتني، وليقرأ الفاتحة والمعوذتين، ولا يدع أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو تمرة أو لقمة، فإن القليل بحسن النية كثير .

وروى أن عائشة رضي الله عنها أعطت السائل عنبة واحدة وقالت إن فيها لمثاقيل ذر كثير .

وجاء في الخبر، كل امرئ يومَ القيامةَ تحت ظل صدقته .

ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب ،

وكتبتله مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يلت حد بافضل مما جاء إلا أحد عمل أكثر من ذلك .

ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين، فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة، سبحان الله والحمد لله، الكلمات.

ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ونحمده استغفر الله.

ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين.

ومائة مرة اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد.

ومائة أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم واساله التوبة.

ومائة مرة ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

ورأيت بعض الفقهاء من المغرب بمكة وله سبحة فيها ألف حبة فى كيس له ذكر أن ورده أن يديره كل يوم اثنتى عشرة مرة بأنواع الذكر .

ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم والليلة .

ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم والليلة ونيقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح: سبحان الله العلى الديان، سبحان الله شديد الأركان.

سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار، سبحان من لا يشغله شان عن شان، سبحان الله الحنان المنان ، سبحان الله المسبح فى كل مكان .

روى أن بعض الأبدال على شاطئ البحر فسمع في هذه الليلة: هذا التسبيح فقال من الذى أسمع صوته ولا أرى شخصه؟

فقال: أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر، أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت.

فقلت: ما اسمك؟ فقال: مهليهيائيل، فقلت: ما ثواب هذا التسبيح؟

قال: من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له.

وروى أن عثمان رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

فقال: سألتنى عن شئ عظيم ما سألنى غيرك، هو لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولاقوة إلا بالله، واستغفر الله الأول والآخر الظاهر الباطن، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شئ قدير، من قالها عشرا حين يصبح وحين يمسى أعطى ست خصال.

فأول خصلة أن يحرس من إبليس وجنوده.

الثانية أن يعطى قنطارا من الأجر.

الثالثة يرفع له درجة في الجنة.

الرابعة يزوجه الله من الحور العين.

الخامسة اثنا عشر ملكاً يستغفرون له.

السادسة يكون له من الأجر كمن حج واعتمر.

---

(١) سورة الزمر، آية رقم: ٦٣.

ويقول أيضاً في هذا الوقت وفي أول النهار: اللهم أنت خلقتني، وأنت هديتني، وأنت تطعمني، وأنت تسقيني، وأنت تميتني، وأنت تحييني،أنت ربي لا رب لي سواك، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ويقول ما شاء الله لاقوة إلا بالله.

ما شاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله، ويقول حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة، ويقرأ المسبعات قبل الغروب، ويديم التسبيح والاستغفار بحيث تغيب الشمس وهو التسبيح والاستغفار.

ويقرأ عند الغروب أيضاً والشمس والليل والمعوذتين، ويستقبل الليل كما استقبل النهار. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝﴾[1]

فكما أن الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل ينبغي أ يكون العبد بين الذكر والشكر، يعقب أحدهما الآخر.

ولا يتخللها شئ، كما لا يتخلل بين الليل والنهار شئ. والذكر جميعه أعمال القلب، والشكر أعمال الجوارح. قال الله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾[2] والله الموفق والمعين .

---

(١) سورة الفرقان ، آية رقم ٦٢.
(٢) سورة سبأ ، آية رقم : ١٣ .

الباب الحادي والخمسون
في آداب المريد مع الشيخ

أدب المريدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الأدب، وللقوم في ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾[1].

روى عن عبد الله بن الزبير قال: قدم وفد على رسول الله ﷺ من بني تميم، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتها، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تقدموا لا تتكلموا بين يدي كلامه.

وقال جابر: كان ناس يضحون قبل رسول الله، فنهوا عن تقديم الأضحية على رسول الله ﷺ.

وقيل: كان قوم يقولون: لو أنزل في كذا وكذا، فكره الله ذلك.

وقالت عائشة رضي الله عنها: أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم.

وقال الكلبي: لا تسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون هو الذي يأمركم به.

وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار، لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة.

---

(١) سورة الحجرات، آية رقم ١.

وقيل: لا تقدمكوا ولا تمشوا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى ابو الدرداء قال: كنت امشى امام ابى بكر، فقال لى رسول الله ﷺ تمشى امام من هو خير منك فى الدنيا والآخرة ؟

وقيل : نزلت فى اقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ، فإذا سئل الرسول عليه السلام عن شئ خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى فنهوا عن ذلك .

وهكذا ادب المريد فى مجلس الشيخ ينبغى أن يلزم السكوت، ولا يقول شيئا بحضرته من كلام حسن الا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة له فى ذلك .

وشان المريد فى حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقاً يساق إليه، فتطلعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله.

وتطلعه إلى القول يرده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شئ لنفسه وذلك جناية المريد .

وينبغى أن يكون تطلعه إلى مبهم من حالة يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ، على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان فى حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد.

لأن الشيخ يكون مستنطقاً نطقه بالحق، وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه إلى الله ويستمطر ويستسقى لهم، فيكون لسانه وقلبه فى القول والنكطق مأخوذين إلى مهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح به عليه.

لأن الشيخ يعلم تطلع الطالب إلى قوله واعتداده بقوله، والقول كالبذر يقع فى الأرض، فإذا كان البذر فاسدا لا ينبت، وفساد الكلمة بدخول الهوى فيها.

فالشيخ ينقى بذر الكلام عن شوب الهوى ويسلمه إلى الله، ويسألَ الله العونة والسداد ثم يقول فيكون كلامه بالحق من الحق للحق .

فالشيخ للمريدين أمين الإلهام كما أن جبريل أمين الوحى، فكما لا يخون جبريل فى الوحى لا يخون الشيخ فى الإلهام، وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، فالشيخ مقتد برسول الله ﷺ ظاهرا وباطنا، لا يتكلم بهوى النفس.

وهوى النفس فى القول بشيئين:

أحدهما: طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه إليه، وما هذا من شأن الشيوخ.

والثانى: ظهور النفس باستحلاء الكلام والعجب، وذلك خيانة عند المحققين. والشيخ فيما يجرى على لسانه راقد النفس، تشغله مطالعة نعم الحق فى ذلك، فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب.

فيكون الشيخ لما يجرى به الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعاً كأحد المستمعين

وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يلقى إليه، وكان يقول: أنا فى هذا الكلام مستمع كأحدكم، فأشكل ذلك على بعض الحاضرين.

وقال: إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف كمستمع لا يعلم حتى يسمع منه، فرجع إلى منزله فرأى ليلته فى المنام كان قائلاً يقول له:

اليس الغواص يغوص فى البحر لطلب الدر ويجمع الصدف فى مخلاته والدر قد حصل معه، لكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر، ويشاركه فى رؤية الدر من هو على الساحل. ففهم بالمنام إشارة الشيخ فى تلك .

فأحسن أدب المريد مع الشيخ السكوت والخمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بماله فيه من الصلاح قولاً وفعلاً .

وقيل أيضاً فى قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[1] لاتطلبوا منزله وراء منزلته. وهذا من محاسن الأدب وأعزها .

وينبغى للمريد أن لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ، بل يحب للشيخ كل منزلة عالية، ويتمنى للشيخ عزيز المنح وغرائب المواهب.

وبهذا يظهر جوهر المريد فى حسن الإرادة، وهذا يعز فى المريدين، فإراد ته للشيخ تعطيه فوق ما يتمنى لنفسه، ويكون قائماً بأدب الإرادة .

قال السرى رحمه الله : حسن الأدب ترجمان العقل .

وقال أبو عبد الله بن حنيف: قال لى رويم: يا بنى اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً .

وقيل : التصوف كله أدب؛ لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول .

ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول ﷺ قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[2].

---

(١) سورة الحجرات ، آية رقم ١ .

(٢) سورة الحجرات ، آية رقم ٢ .

كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر، وكان جهوري الصوت، فكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته.

وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فأنزل الله تعالى الآية تأديباً له ولغيره .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبة الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال حدثنا محمد بن المثنى.

قال حدثنا مؤمل بن إسماعيل قا حدثنا نافع بن عمر بن جميل الجمحي قال حدثني حابس بن أبي مليكة قال حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على ﷺ .

فقال أبو بكر استعمله على قومه، فقال عمر لا تستعمله يا رسول الله فتكلما عند النبي ﷺ حتى علت أصواتهما.

فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي، وقال عمر ما أردت خلافك، فأنزل الله تعالى الآية، فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لا يسمع كلامه حتى يستفهم

وقيل : لما نزلت الآية آلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبي إلا كأخ السرار.

فكهذا ينبغي أن يكون المريد مع الشيخ لا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام إلا إذا بسطه الشيخ.

فرفع الصوت نتيجة جلبات القلب الوقار، والوقار إذا سكن القلب عقل اللسان ما يقول .

وقد ينازل باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ مالا يستطيع المريد ان يشبع النظر الى الشيخ. وقد كنت احم فيدخل على عمي وشيخي ابو النجيب السهروردي رحمه الله فيترشح جسدي عرقاً.

وكنت اتمنى العرق لتخفف الحمى، فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ علي، ويكون في قدومه بركة وشفاء.

وكنت ذات يوم في البيت خالياً، وهناك منديل وهبه لي الشيخ وكان يتعمم به، فوقع قدمي على المنديل اتفاقاً، فتالم باطني من ذلك وشالني الوطء بالقدم على منديل الشيخ، وانبعث من باطني من الاحترام ما ارجو بركته.

قال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ زجر عن الادنى لئلا يتخطى احد إلى ما فوقه من ترك الحرمة.

وقال سهل في ذلك: لا تخاطبوه إلا مستفهمين.

وقال ابو بكر بن طاهر: لا تبداوه الخطاب، ولا تجيبوه إلا على حدود الحرمة، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾[1]، اى لا تغلظوا له في الخطاب، ولا تنادوه باسمه يا محمد يا احمد كما ينادي بعضكم بعضاً، ولكن فخموه واحترموه، وقولوا له يا نبي الله، يا رسول الله.

ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ، وإذا سكن الوقار القلب علم اللسان كيفية الخطاب.

ولما كلفت النفوس بمحبة الأولاد والأزواج، وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة، وهي تحت وقتها صاغها كلف النفس وهواها، فإذ امتلأ القلب حرمة ووقارا يعلم اللسان العبارة.

---

(١) سورة الحجرات، اية رقم: ٢.

وروى لما نزلت هذه الآية قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، فمر به عاصم بن عدة فقال، ما يبكيك يا ثابت؟

قال هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1] وأنا رفيع الصوت على النبي ﷺ أخاف أن يحبط عملي وأكون من أهل النار.

فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ وغلب ثابتاً البكاء، فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال لها إذا دخلت بيت فرسي فسدي على الضبة بمسمار، فضربته بمسمار حتى إذا خرجت عطفته.

وقال لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله ﷺ ، فلما أتى عاصم النبي وأخبره بخبره، فقال اذهب فادعه، فجاء عاصم إلى المكان الذي رآه فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس، فقال له إن رسول الله يدعوك، فقال اكسر الضبة، فأتيا رسول الله ﷺ، ما يبكيك يا ثابت؟

فقال، أنا صيت وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت في ، فقال له رسول الله ، أما ترضى أن تعيش عيدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة؟ فقال قد رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتي أبدا على رسول الله، فأنزل الله تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾[2].

قال أنس، كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا، فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهزمت طائفة منهم، فقال أف لهؤلاء وما يصنعون.

---

(١) سورة الحجرات ، آية رقم ، ٢ .
(٢) سورة الحجرات ، آية رقم ، ٣ .

ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة: ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل هذا، ثم ثبتا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله ﷺ وعليه درع، فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام، فقال له أعلم أن فلاناً رجلاً من المسلمين نزع درعى فذهب بها وهو فى ناحية من العسكر وعنده فرس يستن فى طيه وقد وضع على درعى برمة.

فأت خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعى، وأت أبا بكر خليفة رسول الله عليه السلام فقل له إن على ديناً حتى يقضى عنى، وفلان من عبيدى عتيق، فأخبر الرجل خالداً فوجد الدرع والفرس على ما وصفه، فاسترد الدرع، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته.

قال مالك بن أنس رضى الله عنهما: لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه . فهذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله ﷺ .

فليعتبر المريد الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله، وأن الذى يعتمده مع الشيخ عوض ما لو كان فى زمن رسول الله ﷺ، واعتمده مع رسول الله ﷺ.

فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾[١].

أى اختبر قلوبهم وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصة، وكما أن اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لتأدب القلب، فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ.

قال أبو عثمان: الأدب عند الأكابر، وفى مجالسة السادات من الأولياء، يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى، والخير فى الأولى والعقبى، ألا ترى إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ ﴾[٢].

(١) سورة الحجرات ، آية رقم : ٣ .
(٢) سورة الحجرات ، آية رقم : ٥ .

ومما علمهم الله تعالى قوله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[١].

وكان هذا الحال من وفد بني تميم جاؤا إلى رسول الله ﷺ فنادوا يا محمد اخرج إلينا فإن مدحنا زين وذمنا شين، قال فسمع رسول الله ﷺ فخرج إليهم وهو يقول ، إنما ذلكم الله الذي ذمه شين ومدحه زين، في قصة طويلة.

وكانوا أتوا بشاعرهم وخطيبهم، فغلبهم حسان ابن ثابت وشبان المهاجرين والأنصار بالخطبة.

وفي هذا تأدب للمريد في الدخول على الشيخ والإقدام عليه، وتركه الاستعجال وصبره إلى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته .

سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير زائر يخبر بالفقير فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع إلى خلوته.

وإذا جاء أحد ممن ليس من زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه، فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار لتركه الخروج إلى الفقير وخروجه لغير الفقير، فانتهى ما خطر للفقير إلى الشيخ، فقال الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية وهو أهل وليس عنده أجنبيه، فتكتفي معه بموافقة القلوب وتقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر.

وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر، فمتى لم يعرف حقه من الظاهر استوحش، فحق للمريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ.

---

(١) سورة الحجرات : آية رقم : ٤ .

قيل لأبى منصور المغربى، كم صحبت أبا عثمان ؟ قال: خدمته لا صحبته. فالصحبة مع الإخوان والأقران، ومع المشايخ الخدمة .

وينبغى للمريد أنه كلما أشكل عليه شئ من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى.

وإذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره . فما ينكره المريد لقلة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ، فللشيخ فى كل شئ عذر بلسان العلم والحكمة .

سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد، فأجابه الجنيد، فعارضه فى ذلك، فقال الجنيد: (فإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون) .

وقال بعض المشايخ : من لم يعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب .

وقيل: من قال لأستاذه لا ، لا يفلح أبداً .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى.

قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا هناد عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ " اتركونى ما تركتم ، وإذا حدثتكم فخذوا منى، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم " .

قال الجنيد رحمه الله: رأيت مع أبى حفص النيسابورى إنساناً كثير الصمت لا يتكلم ، فقلت لأصحابه: من هذا؟

فقيل لي: هذا إنسان يصحب أبا حفص ويخدمنا، وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له، واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه، ما يسوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة.

وقال أبو يزيد البسطامي: صحبت أبا علي السندي فكنت ألقنه ما يقيم فرضه، وكان يعلمني التوحيد والحقائق صرفاً .

وقال أبو عثمان: صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث فطردني وقال لا تجلس عندي، فلم أجعل مكافأتي له على كلامه أن أولي ظهري إليه، فانصرفت أمشي إلى خلف ووجهي مقابل له حتى غبت عنه.

واعتقدت أن أحفر لنفسي بئراً على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بإذن، فلما رأى ذلك مني قربني وقبلني وصيرني من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله.

ومن آدابهم الظاهرة: أن المريد لا يبسط مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة، فإن المريد من شأنه التبتل لخدمة، وفي السجادة إيماء إلى الاستراحة والتعزز .

ولا يتحرك في السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز . وهيبة الشيخ تملك المريد عن الاسترسال في السماع وتقيده، واستغراقه في الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع .

ومن الأدب أن لا يكتم عن الشيخ شيئاً من حاله ومواهب الحق عنده، وما يظهر له من كرامة وإجابة، ويكشف للشيخ عن حاله ما يعلم الله تعالى منه، وما يستحي من كشفه يذكره لإيماء وتعريضاً فإن المريد متى انطوى ضميره على شئ لا يكشفه للشيخ تصريحاً أو تعويضاً.

يصير على باطنه منه عقدة في الطريق، وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول . ومن الأدب أن لا يدخل في صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه، وأنه أقوم بالتأديب من غيره.

ومتى كان عند المريد تطلع إلى شيخ آخر لا تصفو صحبته، ولا ينفذ القول فيه، ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه، فإن المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته. والمحبة والتآلف هو الواسطة بين المريد والشيخ.

وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال، لأن المحبة علامة التعارف ، والتعارف علامة الجنسية، والجنسية جالبة للمريد حال الشيخ أو بعض حاله .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال أنا أبو الفضل حميد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان بن أحمد قال حدثنا أنس بن أسلم قال حدثنا عتبة بن رزين عن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله ﷺ قال : " من علم عبداً آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغي له أن لا يخذله ولا يستأثر عليه، فمن فعل ذلك فقد فصم عروة من عرى الإسلام " .

ومن الأدب أن يراعي خطوات الشيخ في جزئيات الأمور وكلياتها ولا يستحقر كراهة الشيخ ليسير حركاته معتمداً على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته .

قال إبراهيم بن شيبان، كنا نصحب أبا عبد الله المغربي ونحن شبان ويسافر بنا في البراري والفلوات، وكان معه شيخ اسمه حسن، وقد صحبه سبعين سنه.

فكان إذا جرى من أحدنا خطأ، وتغير عليه حال الشيخ، نتشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان.

ومن أدب المريد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ، فإن الشيخ علمه أوسع وبابه المفتوح إلى الله أكبر، فإن كان واقعة المريد من الله تعالى يوافقه الشيخ ويمضيها له، وما كان من عند الله لا يختلف، وإن كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ، ويكتسب المريد علماً بصحبة الوقائع والكشوف.

فالمريد لعله في واقعته يخامره كمون إرادة في النفس ، فيتشبك كمون الإرادة بالواقعة، مناماً كان ذلك أو يقظة، ولهذا سر عجيب، ولا يقوم المريد باستئصال شأفة الكامن في النفس، وإذا ذكره للشيخ فما في المريد من كمون إرادة النفس مفقود في حق الشيخ.

فإن كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ، وإن كان ينزع واقعته إلى كمون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة المريد، ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وصحة إيوائه إلى جناب الحق، وكمال معرفته .

ومن الأدب مع الشيخ أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شئ من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه، حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له، ولسماع كلامه وقوله متفرغ.

فكما أن للدعاء أوقاتاً وأدباً وشروطاً لأنه مخاطبة الله تعالى، فللقول مع الشيخ أيضاً أدب وشروط لأنه من معاملة الله تعالى، ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الأدب.

وقد نبه الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله ﷺ في مخاطبته فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾[1] يعني أمام مناجاتكم .

قال عبد الله بن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ فأكثروا حتى شقوا عليه وأحفوه بالمسألة ، فأدبهم الله تعالى وفطمهم عن ذلك، وأمرهم أن لا ينتجوه حتى يقدموا صدقة .

---

(١) سورة المجادلة ، آية رقم : ١٢ .

وقيل، كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويغلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم، فأمر الله تعالة بالصدقة عند التناجي، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته.

فأما أهل العسرة فلأنهم لم يجدوا شيئاً، وأما أهل اليسره فبخلوا ومنعوا، فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ونزلت الرخصة، وقال تعالى، ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾[1] .

وقيل، لما أمر الله تعالى بالصدقة لم يناج رسول الله ﷺ إلا علي بن أبي طالب فقدم ديناراً فتصدق به. وقال علي : في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي .

وروى أن رسول الله ﷺ لما نزلت الآية دعا علياً وقال ما ترى في الصدقة كم تكون ؟ ديناراً قال علي، لا يطيقونه، قال : كم ؟ قال علي : تكون حبة أو شعيرة، فقال رسول الله ﷺ إنك لزهيد.

ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية . وما نبه الحق عليه بالأمر بالصدقة وما فيه من حسن الأدب وتقييد اللحظ والاحترام ما نسخ والفائدة باقية .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سلمان قال أنا أبو الفضل أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان بن أحمد قال حدثنا مطلب بن شعيب.

قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثنا ابن لهيعة عن أبي قبيل عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول "ليس منا من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه".

فاحترام العلماء توفيق وهدية، وإهمال ذلك خذلان وعقوق .

---

(١) سورة المجادلة : آية رقم : ١٣ .

الباب الثاني والخمسون
فى آداب الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والتلامذة

اهم الأدب أن لا يتعرض الصادق للتقدم على قوم، ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام محبة للاستتباع.

فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه والمسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة يحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحاناً من الله تعالى، والنفوس مجبولة على محبة إقبال الخلق والشهرة، وفى الخمول السلامة.

فإذا بلغ الكتاب أجله، وتمكن العبد من حاله، وعلم بتعريف الله لإياه أنه مراد بالإرشاد والتعليم للمريدين، فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه فى دينه ودنياه. وكل مريد ومسترشد ساقه الله تعالى إليه يراجع الله تعالى فى معناه.

ويكثر اللجوء إليه أن يتولاه فيه وفى القول معه، ولا يتكلم مع المريد بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به فى الهداية للصواب من القول .

سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردى رحمه الله يوصى بعض أصحابه ويقول: لا تكلم أحدا من الفقراء إلا فى أصفى أوقاتك، وهذه وصية نافعة.

لأن الكلمة تقع فى سمع المريد الصادق كالحبة تقع فى الأرض ، وقد ذكرنا أن الحبة الفاسدة تهلك وتضيع، وفساد حبة الكلام بالهوى، وقطرة من الهوى تكدرُ بحرا من العلم .

فعند الكلام مع أهل الصدقُ والإرادة ينبغى أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان، وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند العبد، فيكون ناظرا إلى الله، مصغياً إليه، متلقياً ما يرد عليه، مؤدياً للأمانة فيه .

ثم ينبغي للشيخ أن يعتبر حال المريد، ويتفرس فيه بنور الإيمان، وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده. فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار.

ومن المريدين من يكون مستعدا صالحاً للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية، ولكل من الأبرار والمقربين مبادئ ونهايات ، فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن، يعرف كل شخص وما يصلح له.

والعجب أن الصحراوي يعلم الأرضاي والغروس، ويعلم كل غرس وأرضه، وكل صاحب صنعه يعلم منافع صنعته ومضارها.

حتى المرأة تعلم قطنها وما يأتي منه من الغزل ودقته وغلظته، ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له .

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم، ويأمر كل شخص بما يصلح له، فمنهم من كان يأمره بالانفاق ، ومنهم من أمره بالإمساك ، ومنهم من أمره بالكسب، ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصفة.

فكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد، فأما في رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة، لأنه مبعوث لإثبات الحجة وإيضاح المحجة يدعو على الإطلاق، ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره .

ومن أدب الشيخ أن يكون به خلوة خاصة، ووقت خاص، لا يسعه فيه معاناة الخلق، حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته، ولا تدعي نفسه قوة ظناً منها أن استدامه المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه، وأنه غير محتاج إلى الخلوة.

فإن رسول الله ﷺ مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصليها ويدوم عليها، وأوقات يخلو فيها. فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة، قل ذلك أو أكثر، لطف ذلك أو كثف.

وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب، اتخذ ذلك رأس ماله، واغتر بطيبة قلبه، واسترسل في الممازحة والمخالطة، وجعل نفسه مناخاً للبطالين بلقمة تؤكل عنده، وبرفق يوجد منه، فيقصده من ليس قصده الدين، ولا بغيته سلوك طريق المتقين.

فافتتن وافتان، وبقى حطة القصور، ووقع فى دائرة الفتور، فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى، والتضرع بين يدى الله بقلبه إن لم يكن بقالبه وقلبه، فيكون له فى كل كلمة إلى الله رجوع، وفى كل حركة بين يدى الله خضوع .

وإنما دخلت الفتنة على المغرورين المدعين للقوة والاسترسال فى الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس، واغترارهم بيسير من الموهبة، وقلة تأدبهم بالشيوخ.

كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه، لو علمت أن صلاة ركعتين لى أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم .

فإذا رأى الفضل فى الخلوة يخلو، وإذا رأى الفضل فى الجلوة يجلس مع الأصحاب فتكون جلوته فى حماية خلوته، وجلوته مزيدا لخلوته.

وفى هذا سر، وذلك أن الآدمى ذو تركيب مختلف، فيه تضاد وتغاير على ما أسلفنا من كونه متردداً بين السفلى والعلوى، ولما فيه من التغاير، له حظ من الفتور عن الصبر على صرف الحق، ولهذا كان لكل عاقل فترة.

والفترة قد تكون تارة فى صورة العمل، وتارة فى عدم الروح فى العمل، وإن لم تكن فى صورة العمل ففى وقت الفترة للمريدين والسالكين تضييع

واسترواح للنفس، وركون إلى البطالة . فمن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسم فترته إلى الخلق، فأفلح الخلق بقسم فترته.

وماضاع قسم فترته كضياعه فى حق المريدين، فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإقبال على الله، والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته. ويعود إلى أوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرئبة، أكثر من عود الفقير بحدة إرادته من فترته.

فيعود من الخلق إلى الخلوة، منتزع الفتور بقلب متعطش وافر النور، وروح متخلصة عن مضيق مطالعة الأغيار، قائمة بحدة شغفها إلى دار القرار.

ومن وظيفة الشيخ حسن خلقه مع أهل الإرادة والطلب، والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ ، واستعماله التواضع .

حكى الرقى قال: كنت بمصر وكنا فى المسجد جماعة من القراء جلوساً، فدخل الزقاق، فقام عند أسطوانه يركع، فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلم عليه.

فلما فرغ جاء إلينا وسلم علينا، فقلنا: نحن كنا أولى بهذا من الشيخ، فقال: ما عذب الله قلبى بهذا قط، يعنى ما تقيدت بأن أحترم واقصد .

ومن آداب الشيوخ النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم.

قال بعضهم : إذا رأيت الفقير الفه بالرفق ولا تلقه بالعلم، فإن الرفق يؤنسه والعلم يوحشه.

فإذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد ببركة ذلك إلى الانتفاع بالعلم، فيعامل حينئذ بصريح العلم .

ومن أدب الشيوخ التعطف على الأصحاب، وقضاء حقوقهم في الصحة والمرض، ولا يترك حقوقهم اعتمادا على أرائهم وصدقهم .

قال بعضهم: لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة .

وحكى عن الجريري قال: وافيت من الحج فابتدأت بالجنيد وسلمت عليه وقلت حتى لا أشق عليه[1]، ثم أتيت منزلي، فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجنيد خلفي، فقلت يا سيدي إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعب في المجيء إلى ههنا، فقال لي : يا أبا محمد هذا حقك وذاك فضلك .

ومن أدب الشيوخ أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفاً في مراغمة النفس وقهرها واعتماد صدق العزيمة أن يرفقوا به ويوقعوه على حد الرخصة.

ففي ذلك خير كثير، وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حر، ثم إذا ثبت وخالط الفقراء وتدرب في لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة .

قال أبو سعيد بن الأعرابي: كان شاب يعرف بإبراهيم الصائغ، وكان لأبيه نعمة، فانقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القرنسي، فربما كان يقع بيد أبي أحمد شئ من الدراهم.

فكان يشترى له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول: هذا خرج من الدنيا وقد تعود النعمة فيجب أن نرفق به ونؤثره على غيره .

ومن أدب الشيوخ التنزه عن مال المريد وخدمته والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه، لأنه جاء الله تعالى، فيجعل نفعه وإرشاده خالصاً لوجه الله تعالى، فما يسدى الشيخ للمريد من أفضل الصدقات .

---

(١) عبارة في الأصل غير واضحة وما كتبناه يقتضيه السياق.

وقد ورد: ما تصدق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثه في الناس .

وقد قال الله تعالى، تنبيهاً على خلوص ما لله وحراسته من الشوائب:
﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ ﴾[1].

فلا ينبغي للشيخ أن يتطلب على صدقته جزاء إلا أن يظهر له في شئ من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى في قبول الرفق منه.

أو صلاح يتراءى للشيخ في حق المريد بذلك، فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد، مأمونة الغائلة من جانب الشيخ .

قال الله تعالى: ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝ ﴾[2] معنى يحفكم أي يجهدكم ويلح عليكم.

قال قتادة: علم الله تعالى أن في خروج المال إخراج الأضغان. وهذا تأديب من الله الكريم، والأدب لله .

قال جعفر الخلدي: جاء رجل إلى الجنيد وأراد أن يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر.

فقال له الجنيد: لا تخرج من مالك كله احبس منه مقدار ما يكفيك وأخرج الفضل، وتقوت بما حبست، واجتهد في طلب الحلال، لا تخرج كل ما عندك، فلست آمن عليك أن تطالبك نفسك .

وكان النبي عليه السلام إذا أراد أن يعمل عملاً تثبت .

---

(١) سورة الإنسان، آية رقم ٩ .
(٢) سورة محمد، آية رقم ٣٧ .

وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشئ يكسبه من الحال مالا يتطلع به إلى المال.

فحينئذ يجوز له أن يفسح لمريد في الخروج من المال كما فسح رسول الله ﷺ لأبي بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيخ: إذا رأى من بعض المريدين مكروهاً أو علم من حاله اعوجاجاً، أو احسن منه بدعوى، أو رأى أنه داخله عجب أن لا يصرح له بالمكروه، بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم، ويكشف عن وجه المذمة مجملاً.

فتحصل بذلك الفائدة للكل، فهذا أقرب إلى المداورة وأكثر أثرا لتألف القلوب.

وإذا رأى من المريد تقصيرا في خدمة ندبه إليها، تحمل تقصيره، ويعفو عنه، ويحرضه على الخدمة بالرفق واللين .

وإلى ذلك ندب رسول الله ﷺ فيما أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال انا أبو الفتح الكروخي قراءة عليه قال انا أبو نصر الترياقي قال قال انا أبو محمد الجراحي قال انا أبو العباس المحبوبي انا أبو عيسى الترمذي قال حدثنا قتيبه قال حدثنا رشدين بن سعد بن أبي هلال الخولاني عن ابن عباس بن جليد الحجري عن عبد الله بن عمر

قال: جاء إلى النبي عليه السلام فقال يا رسول الله، كم أعفو عن الخادم؟ قال: كل يوم سبعين مرة .

وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله ﷺ ، وهم أحق الناس بإحياء سنته في كل ما أمر وندبه وأنكر وأوجب .

ومن جملة مهام الآداب حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون به ويمنحون من أنواع المنح، فسر المريد لا يتعدى ربه وشيخه، ثم يحقر الشيخ في نفس المريد ما يجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب.

أو شئ من خوارق العادات، ويعرفه أن الوقوف مع شئ من هذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد، بل يعرفه أن هذه نعمة تشكر، ومن ورائها نعم لا تحصى، ويعرفه أن شأن المريد طلب للنعم لا النعمة، حتى يبقى سره محفوظاً عند نفسه وعند شيخه، ولا يذيع سره.

فإذاعة الأسرار من ضيق الصدر، وضيق الصدر الموجب لإذاعة السر يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال . وسبب إذاعة السر أن للإنسان قوتين آخذة ومعطية.

وكلتاهما تتشوف إلى الفعل المختص بها، ولولا أن الله تعالى وكل المعطية بإظهار ما عندها ما ظهرت الأسرار فكامل العقل كلما طلبت القوة الفعل فيها ووزنها بالعقل حتى يضعها في مواضعها، فيحل حال الشيوخ من إذاعة الأسرار لرزانة عقولهم.

وينبغي للمريد أن يحفظ سره من بثه، ففي ذلك صحته وسلامته، وتأييد الله سبحانه وتعالى له بتدارك المريدين الصادقين في موردهم ومصدرهم .

الباب الثالث والخمسون
فى حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر

المقتضى للصحبة وجود الجنسية، وقد يدعو إليها أعم الأوصاف، وقد يدعو إليها أخص الأوصاف.

فالدعاء بأعم الأوصاف كميل جنس البشر بعضهم إلى بعض،

والدعاء بأخص الأوصاف كميل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض،

ثم أخص من ذلك كميل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض، وكميل أهل المعصية بعضهم إلى بعض .

فإذا علم هذا الأصل، وأن الجاذب إلى الصحبة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى،

فليتفقد الإنسان نفسه عند الميل إلى صحبة شخص، وينظر ما الذى يميل به إلى صحبته، ويزن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع.

فإن رأى أحواله مسددة فليبشر نفسه بحسن الحال، فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له فى مرآة أخيه جمال حسن الحال.

وإن رأى أعماله غير مسددة فيرجع إلى نفسه باللائمة والاتهام، فقد لاح له مرآة أخيه سوء حاله، فبالجدير أن يفر منه كفراره من الأسد، فإنهما إذا اصطحبا ازدادا ظلمة واعوجاجاً.

ثم إذا علم من صاحبه الذى مال إليه حسن الحال، وحكم لنفسه بحسن الحال، طالع ذلك فى مرآة أخيه.

فليعلم ان الميل بالوصف الأعم مركوز فى جبلته، والميل بطريقة واقع وله بحبه احكام، وللنفس بسببه سكون وركون، فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأخص.

ويصير بين المتصاحبين استرواحات طبيعية، وتلذذات جبلية، لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون.

وقد ينفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد، ووجه ذلك ان أهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذره، وأهل الصلاح غره صلاحهم فمال اليهم بجنسية الصلاحية.

ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية، حالت بينهم وبين حقيقة الصحبة لله، فاكتسب من طريقهم الفتور فى الطلب عن بلوغ الأرب . فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة، ويأخذ من الصحبة اصفى الأقسام، ويذر منها ما يسد فى وجهه المرام.

قال بعضهم: هل رايت شرا قط إلا ممن تعرف .

ولهذا المعنى، أنكر طائفة من السلف الصحبة، ورأوا الفضيلة فى العزلة والوحدة كالبراهيم بن ادهم، وداود الطائي، وفضيل بن عياض، وسليمان الخواص .

وحكى عنه أنه قيل له: جاء إبراهيم بن ادهم اما تلقاه؟ قال: لأن القى سبعاً ضارياً أحب الى من ان القى إبراهيم بن ادهم.

قال: لأنى إذا رايته احسن له كلامى، واظهر نفسى بإظهار احسن احوالها، وفى ذلك الفتنة.

وهذا كلام عالم بنفسه واخلاقها، وهذا واقع بين المتصاحبين إلا من عصمه الله تعالى.

اخبرنا الشيخ الثقة ابو الفتح محمد بن عبد الباقى اجازة قال انا الحافظ ابو بكر محمد بن احمد قال انا ابو القاسم إسماعيل بن مسعده قال انا عمرو محمد بن عبد الله بن احمد قال انا ابو لسمان أحمد بن محمد الخطابى قال أنا محمد ابن بكر بن عبد الرزاق.

قال حدثنا سليمان بن الأشعث قال حدثنا عبد الله ابن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن ابى صعصعة عن ابيه عن ابى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله ﷺ " يوشك ان يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن " .

قال الله تعالى، إخبارا عن خليله إبراهيم، ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّى﴾[1] ستظهر بالعزلة على قومه.

قيل، العزلة نوعان، فريضة وفضيلة.

فالفريضة العزلة عن الشر واهله، والفضيلة عزلة الفضول وأهله.

ويجوز أن يقال ، الخلوة غير العزلة، فالخلوة من الأغيار، والعزلة من النفس وما تدعو إليه، وما يشغل عن الله، فالخلوة كثيرة الوجود، والعزلة قليلة الوجود.

قال ابو بكر الوراق، ماظهرت الفتنة إلا بالخلطة من لدن ادم عليه السلام إلى يومنا هذا، وما سلم إلا من جانب الخلطة .

وقيل : السلامة عشرة أجزاء، تسعة في الصمت، وواحدة في العزلة .

وقيل، الخلوة اصل والخلطة عارض، فليزم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة، وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة، وإذا خالط يلازم الصمت، فإنه أصل والكلام عارض.

---

(١) سورة مريم ، اية رقم ، ٤٨ .

ولا يتكلم إلا بحجة، فخطر الصحبة كثير يحتاج العبد فيه إلى مزيد علم .

والأخبار والآثار فى التحذير عن الخلطة والصحبة كثيرة، والكتب بها مشحونة، واجمع الأخبار فى ذلك ما أخبرنا الشيخ الثقة ابو الفتح بإسناده السابق إلى ابى سليمان قال حدثنا احمد بن سلمان النجاد، قال حدثنا محمد بن يونس الكريمى، قال حدثنا محمد بن منصور الجشمى، قال حدثنا مسلم ابن سالم.

قال حدثنا السرى بن يحيى، عن الحسن، عن ابى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ "لتأتين على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية، ومن شاهق إلى شاهق، ومن حجر إلى حجر، كالثعلب الذى يروغ.

قالوا ومتى ذلك يا رسول الله؟

قال،إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصى الله، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة. قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزوج؟

قال، إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد ابويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده.

فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته.

قالوا وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال، يعيرونه بضيق العيشة فيتكلف مالا يطيق حتى يوردوه موارد الهلكة ".

وقد رغب جمع من السلف فى الصحبة والأخوة فى الله، ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوناً ، فقال سبحانه وتعالى:

وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[2].

وقد اختار الصحبة والأخوة فى الله تعالى سعيد بن المسيب، وعبد الله ابن المبارك وغيرهما .

وفائدة الصحبة أنها تفتح مسام الباطن، ويكتسب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض .

قيل: أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات . ويتصلب الباطن برزين العلم، ويتمكن الصدق بطريق هبوب الآفات، ثم التخلص منها بالإيمان.

ويقع بطريق الصحبة والأخوة التعاضد والتعاون، وتتقوى جنود القلب ، وتستروح الأرواح بالتشام، وتتفق فى التوجه إلى الرفيق الأعلى، وصير مثالها فى الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام، وإذا تفردت قصرت عن بلوغ المرام .

ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ "المؤمن كثير بأخيه" .

وقال الله تعالى، مخبرا عمن لا صديق له: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[3].

والحميم فى الأصل الهميم إلا أنه أبدلت الهاء بالحاء لقرب مخرجيهما، إذ هما من حروف الحلق، والهميم مأخوذ من الاهتمام، أى يهتم بأمر أخيه، فالاهتمام بمهم الصديق حقيقة الصداقة .

---

(١) سورة آل عمران ، آية رقم : ١٠٣ .
(٢) سورة الأنفال ، آية رقم : ٦٢ ، ٦٣ .
(٣) سورة الشعراء ، آية رقم : ١٠٠ ، ١٠١ .

وقال عمر: إذا رأى أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك.

وقد قال القائل:

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال: يا داود مالي أراك منتبذاً وحدك؟

قال: إلهي قليت الخلق من أجلك.

فأوحى الله إليه يا داود كن يقظاناً، مرتاداً لنفسك إخواناً، وكل خدن لا يوافق على مسرتي فلا تصحبه فإنه عدو يقسي قلبك، ويباعدك مني.

وقد ورد في الخبر: إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون، فالمؤمن آلف مألوف. وفي هذا دقيقة، وهي أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف، فلا يكون آلفاً مألوفاً.

فإن هذه الإشارة من رسول الله ﷺ إلى الخلق الجبلي وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة ويقيناً، وأرزن عقلاً، وأتم أهلية واستعداداً، وكان أوفر الناس حظاً من هذا الوصف الأنبياء ثم الأولياء، وأتم الجميع في هذا نبينا صلوات الله عليه.

وكل من كان من الأنبياء أتم ألفة أكثر تبعاً، ونبينا ﷺ كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعاً وقال: "تناكحوا تكثروا فإني مكاثر بكم الأمم يوم الأمم".

وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله ﷺ فقال "لو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك ".

وإنما طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء، ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله ﷺ الخلوة في أول أمره، وكان يخلو في غار حراء، ويتحنث الليالي ذوات العدد.

وطلب العزلة لا بسلب وصف كونه ألفاً مألوفاً، وقد غلط في هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف، فتركوا العزلة طلباً لهذه الفضيلة، وهذا خطأ.

وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما أسلفنا في أول الباب أن في الإنسان ميلاً إلى الجنس بالوصف الأعم.

فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الأعم، لترتقى الهمم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح، فإذا وفوا التصفية حقها أشرأبت الأرواح.

إلى جنسها بالتألف الأصلي الأولى، وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخالطتهم مصفاة، واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأروتح.

وظهرت صفة الجبلة من الألفة للكملة ألفة مألوفة، فصارت العزلة من أهم الأمور عند من يألف فيؤلف .

ومن أدل الدليل على أن الذي اعتزل ألف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذى غلط في ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة، فصارت العزلة مرغوباً فيها في وقتها، والصحبة مرغوباً فيها في وقتها.

قال محمد بن الحنيفة رحمه الله: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدأ حتى يجعل الله له منه فرجاً .

وكان بشر بن الحارث يقول: إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه.

فالأنيس يهيئه الله للصادقين رفقاً من الله تعالى وثواباً للعبد معجلاً .

والأنيس قد يكون مفيدا يكون كالمشايخ، وقد يكون مستفيدا كالمريدين.

فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس، فإن كان قاصرا يؤنسه الله بمن يتمم حاله به، وإن كان غير قاصر يقيض الله تعالى له من يؤنسه من المريدين.

وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعم، بل هو بالله ومن الله وفي الله .

روى عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال " المتحابون في الله على عمود من ياقوته حمراء، في رأس العمود سبعون الف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضئ حسنهم لأهل الجنة كما تضئ الشمس لأهل الدنيا.

فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين في الله عز وجل، فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم لأهل الجنة كما تضئ الشمس لأهل الدنيا ، عليهم ثياب سندس خضر، مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون في الله عز وجل " .

وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ إني أحبك في الله، فقال له أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: المتحابون في الله عز وجل".

وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال " يقول الله عز وجل، حقت محبتي للمتحابين في، والتباذلين في، والتصادقين في " .

اخبرنا الشيخ ابو الفتح محمد بن عبد الباقي إجازة قالانا أحمد بن الحسين ابن خيرون قال انا ابو عبد الله أحمد بن عبد الله المحاملي قال انا ابو القاسم عمر ابن جعفر بن محمد بن سلام قال انا ابو اسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي.

قال، حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال، "الا اخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟ قالوا، وما هو؟ قال، إصلاح ذات البين، وإياكم والبغضة فإنها هي الحالقة".

وبإسناد إبراهيم الحربي عن عبيد الله بن عمر عن ابي اسامة عن عبد الله ابن الوليد عن عمران بن رباح قال، سمعت أبا مسلم يقول، سمعت أبا هريرة يقول الخير، وفي الخير تحذير عن البغضة، وهو أن يجفو المختلي مقتاً لهم وسوء ظن بهم، وهذا خطأ.

وإنما يريد أن يخلو مقتاً لنفسه وعلماً بما في نفسه من الآفات وحذرا على نفسه من نفسه، وعلى الخلق ان يعود عليهم من شره.

فمن كانت خلوته بهذا الوصف لا يدخل تحت هذا الوعيد. والإشارة بالحالقة يعني ان البغضة حالقة للدين، لأنه نظر إلى المؤمنين والمسلمين بعين المقت.

وأخبرنا الشيخ ابو الفتح بإسناده إلى ابراهيم الحربي، قال حدثنا يعقوب بن ابراهيم، قال حدثنا ابو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان.

قال: إن لله تعالى ملكاً نصفه من نار ونصفه من ثلج، وإن من دعائه اللهم فكما ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج ألف بين قلوب بادك الصالحين .

وكيف لا تتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله ﷺ في وقته العزيز بقلب قوسين، في وقت لا يسعه فيه شئ ، للطف حال الصالحين وجدهم في ذلك المقام العزيز.

وقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فهم مجتمعون وإن كانوا متفرقين، وصحبتهم لازمة، وعزيمتهم في التواصل في الدنيا والآخرة جازمة .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أن رجلا صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب في الله ولم يبغض فيه ما نفعه ذلك .

اخبرنا رضي الدين احمدبن إسماعيل بن يوسف إجازة إن لم يكن سماعاً، قال انا ابو المظفر عن والده ابي القاسم القشيري.

قال سمعت ابا عبد الرحمن السلمي يقول، سمعت عبد الله بن المعلم يقول ، سمعت ابا بكر التلمساني يقول، اصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله .

واخبرنا شيخنا ضياء الدين ابو النجيب إجازة ، قال انا عمر بن احمد الصفار النيسابوري إجازة، قال انا ابو بكر احمد بن خلف.

قال انا ابو عبد الرحمن السلمي، قال، سمعت ابا الأصفهاني يقول ، سمعت ابا جعفر الحداد يقول ، سمعت علي بن سهل يقول، الأنس بالله تعالى ان تستوحش من الخلق إلا من اهل ولاية الله، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله .

وقد نبه القائل نظماً على حقيقة جامعة لمعاني الصحبة والخلوة وفائدتها وما يحذر فيها بقوله :

وحدة الإنسان خير	من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير	من قعود المرء وحده

الباب الرابع والخمسون
فى أدب حقوق الصحبة والأخوة فى الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[1]

وقال تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾[2]

وقال فى وصف أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾[3]

وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على أدب حقوق الصحبة فمن اختار صحبة أو أخوة فأدبه فى أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والدعاء والتضرع، ويسأل البركة فى الصحبة ، فإنه يفتح على نفسه بذلك إما باباً من أبواب الجنة، وإما باباً من أبواب النار.

فإن كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[4]

وقيل: إن أحد الأخوين فى الله تعالى يقال له ادخل الجنة ، فيسأل عن منزل أخيه، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله، فإن قيل له لم يكن يعمل مثل عملك.

فيقول إنى كنت أعمل لى وله، فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ، ويرفع أخوه إلى درجته.

---

(١) سورة المائدة : آية رقم : ٢ .
(٢) سورة العصر: آية رقم : ٣ .
(٣) سورة الفتح : الآية ٢٩.
(٤) سورة الزخرف : آية رقم : ٦٧.

وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحبة شرا فهو باب من أبواب النار .

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[1]

وإن كانت الآيـة وردت فى قصـة مشهورة ولكـن الله تعـالى نبـه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله.

واختيار الصحبة والأخوة اتفاقاً من غير نية فى ذلك.

وتنبت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجـاهلين بالنيـات والمقـاصد والمنافع والمضار.

وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى كلام له : وهل يفسد الناس إلا الناس .

فالفساد بالصحبة متوقع، والصلاح متوقع، ومـا هـذا سبيله كيف لا يحذر فى أوله، ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجوء إلى الله تعالى، وصدق الاختيار، وسؤال البركة والخيرة فى ذلك، وتقديم صلاة الاستخارة .

ثم إن اختيار الصحبة والأخوة عمل ، وكل عمل يحتاج إلى النيـة وإلى حسن الخاتمة.

وقد قـال عليـه الصلاة والسلام فى الخبر الطويل " سبعة يظلـهم الله تعالى " فمنهم اثنان تحابا فى الله فعاشا على ذلك وماتا عليه، إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة، حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة. ومتى افسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الأول .

قيـل: مـا حسـد الشيطان متعـاونين على بـر حسـده متـاخيين فـى الله متحابين فيه، فإنه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد ما بينهما

---

(١) سورة الفرقان : آية رقم : ٢٧ ، ٢٨ .

وكان الفضيل يقول: إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة.

والأخوة في الله تعالى مواجهة، قال الله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝﴾ [1]

ومتى أضمر أحدهما للآخر سوءا أو كره منه شيئا ولم ينبهه عليه حتى يزيله أو يتسبب إلى إزالته منه، فما واجهه بل استدبره .

قال الجنيد رحمه الله: ما تواخى اثنان في الله واستوحش أحدهما من صاحبه إلا لعلة في أحدهما.

فالمؤاخاة في الله أصفى من الماء الزلال، وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه، وكل ما صفا دام، والأصل في دوام صفائه عدم المخالفة .

قال رسول الله ﷺ "لا تمار أخاك ولا تمازحه، ولا تعده موعدا فتخلفه"

قال أبو سعيد الخراز: صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بيني وبينهم خلاف.

فقيل له، وكيف ذلك؟

قال : لأني كنت معهم على نفسي.

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردي إجازة، قال أنا عمر بن أحمد الصفار، قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف، قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي

قال سمعت عبد الله الداركي قال سمعت أبا عمرو الدمشقي الرازي يقول سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول وقد سأله رجل: على أي شرط أصحب الخلق؟ فقال: إن لم تبرهم فلا تؤذهم، وإن لم تسرهم فلا تسؤهم .

---

(١) سورة الحجر: آية رقم : ٤٧ .

وبهذا الاسناد قال ابو عبد الله: لا تضيع حق اخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقاً لم يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه .

ومن حقوق الصحبة، انه إذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر اخاه إلا بخير.

قيل : كان لبعضهم زوجة وكان يعلم منها ما يكرهه، فكان يقال له استخبارا عن حالها، فيقول: لا ينبغي للرجل ان يقول في اهله إلا خيرا، ففارقها وطلقها.

فاستخبر عن ذلك فقال: إمرأة بعدت عني وليس مني في شئ كيف لاذكرها؟

وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى انه سبحانه يظهر الجميل ويستر القبيح .

وإذا وجد من احدهما ما يوجب التقاطع فهل يبغضه اولا؟

اختلف القول في ذلك .

كان ابو ذر يقول: إذا انقلب عما كان عليه ابغضه من حيث احببته.

وقال غيره: لا يبغض الأخ بعد الصحبة، ولكن يبغض عمله. قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1] ولم يقل اني برئ منكم.

وقيل: كان شاب يلازم مجالس ابي الدرداء، وكان ابو الدرداء يميزه على غيره، فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر، وانتهى إلى ابي الدرداء ما كان منه.

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢١٦.

فقيل له: لو ابعدته وهجرته؟ فقال: سبحان الله، لا يترك الصاحب بشئ كان منه.

قيل: الصداقة لحمة كلحمة النسب.

وقيل لحكيم مرة: أيما أحب إليك؟ أخوك أو صديقك؟ فقال: إنما أُحب أخي إذا كان صديقي.

وهذا الخلاف في المفارقة ظاهرا وباطنا.

وأما الملازمة باطناً إذا وقعت للباينة ظاهرا فتختلف باختلاف الأشخاص، ولا يطلق القول فيه إطلاقاً من غير تفصيل.

فمن الناس من كان تغيره رجوعاً عن الله وظهور حكم سوء السابقة، فيجب بغضه وموافقة الحق فيه.

ومن الناس من كان تغيره عثرة حدثت وفترة وقعت يرجى عوده، فلا ينبغي أن يبغض، ولكن يبغض عمله في الحالة الحاضرة، ويلحظ بعين الود منتظرا له الفرج والعود إلى أوطان الصلح.

فقد ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذى أتى بفاحشة قال: مه، وزجرهم بقوله "ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم".

وقال إبراهيم النخعي: لا تقطع أخاك ولاتهجره عند الذنب يذنبه، فإنه يركبه اليوم ويتركه غدا .

وفي الخبر: اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته.

وروى أن عمر رضى الله عنه سأل عن أخ كان آخاه فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعض من قدم عليه، فقال ما فعل أخي؟

فقال له: ذاك أخوه الشيطان، قال له: مه.

قال له: إنه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمر، فقال إذا أردت الخروج فآذنى، قال فكتب إليه: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾[1]

ثم عاتبه تحت ذلك وعذله، فلما قرأ الكتاب بكى، فقال صدق الله تعالى ونصح عمر، فتاب ورجع.

وروى أن رسول الله ﷺ رأى ابن عمر يلتفت يميناً وشمالاً فسأله، فقال يا رسول الله أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه.

فقال يا عبد الله إذا أحببت أحداً فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله، فإن كان مريضاً عدته، وإن كان مشغولاً أعنته.

وكان يقول ابن عباس رضى الله عنهما، ما اختلف رجل إلى مجلسى ثلاثاً من غير حاجة تكون له فعملت ما مكافأته فى الدنيا.

وكان يقول سعيد بن العاص، الجليس على ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا حدث أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له.

وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان.

فإن ما كان معلولاً يزول بزوال علته، ومن لا يستند فى خلته إلى علة يحكم بدوام خلته.

ومن شرط الحب فى الله إيثار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا، قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ

---

(١) سورة غافر، آية رقم: ١، ٢، ٣.

حَاجَةً مِمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1] فقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾[2].

أى لا يحسدون إخوانهم على ما لهم ، وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة، أحدهما انتزاع الحسد على شئ من أمر الدين والدنيا، والثانى: الإيثار بالمقدور.

وفى الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام " المرء على دين خليله ولا خير لك فى صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه".

وكان يقول أبو معاوية الأسود: إخوانى كلهم خير منى، قيل: وكيف ذاك؟ قال: كلهم يرى لى الفضل عليه، ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى.

ولبعضهم نظما :

تذلل لمن إن تذللت له ... يرى ذاك للفضل لا للبله

وجانب صداقة من لم يزل ... على الأصدقاء يرى الفضل له

---

(١) سورة الحشر، آية رقم: ٩.
(٢) سورة الحشر، آية رقم: ٩.

الباب الخامس والخمسون
فى آداب الصحبة والأخوة

سئل ابو حفص عن ادب الفقراء فى الصحبة، فقال: حفظ حرمات المشايخ، وحسن المعشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر، وترك صحبة من ليس فى طبقتهم، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، والمعاونة فى أمر الدين والدنيا .

فمن ادبهم التغافل عن زلل الإخوان، والنصح فيما يجب فيه النصيحة، وكتم عيب صاحبه واطلاعه على عيب يعلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه، رحم الله امرءا أهدى إلى عيوبى .

وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه .

قال جعفر بن برقان، قال لى ميمون بن مهران، قل لى فى وجهى ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره، فإن الصادق يحب من يصدقه، والكاذب لا يحب الناصح. قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [1] والنصيحة ما كانت فى السر .

ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الإخوان، واحتمال الأذى منهم، فبذلك يظهر جوهر الفقير .

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان فى دار العباس ابن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة.

فقال له العباس، قلعت ما كان رسول الله ﷺ وضعه بيده، فقال إذا لا يرده إلى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر، فأقامه على عاتقه ورده إلى موضعه.

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٧٩ .

ومن ادبهم: ان لا يرون لنفسهم ملكاً يختصون به.

قال إبراهيم بن شيبان: كنا لا نصحب من يقول نعلي.

اخبرنا بذلك رضي الدين عن ابي المظفر عن والده ابي القاسم القشيري قال سمعت ابا حاتم الصوفي قال سمعت ابا نصر السراج يقول ذلك

وقال احمد بن القلانسي: دخلت على قوم من الفقراء يوماً بالبصرة فاكرموني وبجلوني، فقلت يوماً لبعضهم: اين إزاري؟ فسقطت من اعينهم.

وكان إبراهيم بن ادهم إذا صحبه إنسان شارطه على ثلاثة اشياء:

ان تكون الخدمة والأذان له.

وان تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده.

فقال رجل من اصحابه: انا لا اقدر على هذا.

فقال: اعجبني صدقك .

وكان إبراهيم بن ادهم ينظر البساتين، ويعمل في الحصاد، وينفق على اصحابه.

وكان من اخلاق السلف ان كل من احتاج إلى شئ من مال اخيه استعمله من غير مؤامرة. قال الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [1] اى مشاع هم فيه سواء .

ومن ادبهم انهم إذا استثقلوا صاحباً يتهمون انفسهم، ويتسببون في إزالة ذلك من مواطنهم، لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة في الصحبة .

---

(١) سورة الشورى : آية رقم : ٣٨ .

قال ابو بكر الكتانى: صحبنى رجل وكان على قلبى ثقيلاً، فوهبت له شيئاً بنية ان يزول ثقله من قلبى، فلم يـزل ، فخلوت بـه يوماً وقلت لـه: ضع رجلك على خدى، فابى، فقلت له: لا بد من ذلك، ففعل ذلك، فزال ما كنت اجده فى باطنى .

قال الرقى: قصدت من الشام إلى الحجاز حتى سالت الكتانى عن هذه الحكاية .

ومن ادبهم: تقديم من يعرفون فضله، والتوسع له فى المجلس والإيثار بالموضع .

روى ان رسول الله ﷺ كان جالساً فى صفة ضيقة، فجاءه قوم من البدريين فلم يجدوا موضعاً يجلسون فيه، فاقام رسول الله ﷺ من لم يكن من اهل بدر، فجلسوا مكانهم، فاشتد ذلك عليهم، فانزل الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ (١) الآية.

وحكى ان على بن بندار الصوفى ورد على ابى عبد الله بن خفيف زائراً، فتماشيا، فقال له ابو عبد الله : تقدم، فقال: باى عذر؟ فقال: بأنك لقيت الجنيد وما لقيته .

ومن ادبهم: ترك صحبة من همة شئ من فضول الدنيا. قال الله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (٢) .

ومن ادبهم: بذل الإنصاف للإخوان، وترك مطالبة الإنصاف.

قال ابو عثمان عثمان الحيرى: حق الصحبة ان توسع على أخيك من مالك، ولا تطمع فى ماله، وتنصفه من نفسك ولا تطلب منه الإنصاف منه،

---

(١) سورة المجادلة : آية رقم : ١١
(٢) سورة النجم : آية رقم : ٢٩

وتكون تبعاً له، ولا تطمع أن يكون تبعاً لك، وتستكثر ما يصل إليك منه، وتستقل ما يصل إليه منك .

ومن أدبهم في الصحبة: لين الجانب، وترك ظهور النفس بالصولة .

قال أبو علي الروذباري: الصولة على من فوقك قحة، وعلى من مثلك سوء أدب، وعلى من دونك عجز .

ومن أدبهم، أن يجري في كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا، وليت كان كذا، وعسى أن يكون كذا، فإنهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضاً .

ومن أدبهم في الصحبة : حذر المفارقة، والحرص على الملازمة .

قيل: صحب رجل رجلاً ثم أراد المفارقة، فاستأذن صاحبه، فقال: بشرط أن لا تصحب أحداً إلا إذا كان فوقنا، وإن كان فوقنا أيضاً فلا تصحبه، لأنك صحبتنا أولاً. فقال الرجل: زال عن قلبي نية المفارقة.

ومن أدبهم : التعطف على الأصاغر .

قيل: كان إبراهيم بن أدهم يعمل في الحصاد، ويطعم الأصحاب، وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام، وربما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل، فقالوا ليلة: تعالوا نأكل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع، فأفطروا وناموا.

فرجع إبراهيم فوجدهم نياماً، فقال : مساكين لعلهم لم يكن لهم طعام، فعمد إلى شئ من الدقيق فعجنه، فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعاً محاسنه على التراب، فقالوا له في ذلك فقال: لعلكم لم تجدوا فطوراً فنمتم، فقالوا: انظروا بأي شئ عاملناه، وبأي شئ يعاملنا.

ومن أدبهم، أن لا يقولوا عند الدعاء إلى أين؟ ولم؟ وبأي سبب؟

قال بعض العلماء: إذا قال الرجل للصاحب قم بنا فقال إلى أين، فلا تصحبه.

وقال آخر: من قال لأخيه اعطني من مالك فقال كم تريد، ما قام بحق الإخاء .

وقد قال الشاعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   للنائبات على ما قال برهانا

ومن أدبهم : أن لا يتكلفوا للإخوان .

قيل: لما ورد أبو حفص العراق تكلف له الجنيد أنواعاً من الأطعمة فأنكر ذلك أبو حفص وقال: صير أصحابي مثل المخانيث يقدم لهم الألوان.

والفتوة عندنا ترك التكلف، وإحضار ما حضر، فإن التكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف، وبترك التكلف يستوي مقامه وذهابه.

ومن أدبهم في الصحبة: المداراة، وترك المداهنة، وتشبه المداراة بالمداهنة، والفرق بينهما أن المداراة ما أردت به صلاح أخيك، فداريته لرجاء صلاحه، واحتملت منه ما تكره، والمداهنة ما قصدت به شيئاً من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاه .

ومن أدبهم في الصحبة: رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط

نقل عن الشافعي رحمه الله أنه قال: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط .

ومن أدبهم: ستر عورات الإخوان .

قال عيسى عليه السلام لأصحابه: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً فكشف الريح عنه ثوبه؟ قالوا: نستره ونغطيه.

فقال: بل تكشفون عورته، قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟

قال: أحدكم يسمع في أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها.

ومن أدبهم: الاستغفار للإخوان بظهر الغيب والاهتمام لهم مع الله تعالى في دفع المكاره عنهم .

حكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى، فأظهر عليه أخاه، فقال: إني ابتليت بهوى فإن شئت أن لا تعقد على محبتي له فافعل.

فقال: ما كنت لأحل عقد إخائك لأجل خطيئتك، وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه، وطوى أربعين يوماً كلما يسأله عن هواه يقول: ما زال، فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال، فأكل وشرب .

ومن أدبهم: أن لا يحوجوا صاحبهم إلى المداراة، ولا يلجئوه إلى الاعتذار، ولا يتكلفوا للصاحب ما يشق عليه، بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد الصاحب على مراد أنفسهم .

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: شر الأصدقاء من أحوجك إلى مداراة، أو ألجأك إلى اعتذار ، وتكلف له .

وقال جعفر الصادق: أثقل إخواني على من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي .

فأدب الصحبة وحقوق الأخوة كثيرة، والحكايات في ذلك يطول نقلها.

وقد رأيت في كتاب الشيخ أبي طالب المكي رحمه الله من الحكايات في هذا المعنى شيئاً كثيراً، فقد أودع كتابه كل شئ حسن من ذلك .

وحاصل الجميع: أن العبد ينبغي له أن يكون لمولاه، ويريد كل ما يريد لمولاه لا لنفسه، وإذا صاحب شخصاً تكون صحبته إياه لله تعالى.

وإذا صحبه لله تعالى يجتهد له في كل شئ يزيده عند الله زلفى، وكل من قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله تعالى علماً بمعرفة النفس وعيوبها، ويعرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الأدب، ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة، ويفقهه في ذلك كله.

ولا يفوته شئ مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق، وفيما يرجع إلى حقوق الخلق.

لكل تقصير وجد، من خبث النفس وعدم تزكيتها، وبقاء صفاتها عليه، فإن صحبت ظلمت بالإفراط تارة، وبالتفريط أخرى، وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق، والحكايات والواعظ والأدب وسماعها لا يعمل في النفس زيادة تأثير، ويكون كبئر يقلب فيه الماء من فوق فلا يمكث فيه ولا ينتفع به.

وإذا أخذت بالتقوى والزهد في الدنيا نبع منها ماء الحياء، وتفقهت وعلمت، وأدت الحقوق، وقامت بواجب الأدب ، بتوفيق الله سبحانه وتعالى .

الباب السادس والخمسون
فى معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

حدثنا شيخنا ابو النجيب السهروردى، قال انا الشريف نور الهدى ابو طالب الزينبى، قال انا كريمة المروزية، قالت اخبرنا ابو الهيثم الكشميهنى،

قال اخبرنا ابو عبد الله الفربرى، قال انا ابو عبد الله البخارى، قال حدثنا عمر بن حفص، قال حدثنا ابى، قال حدثنا الأعمش قال حدثنا زيد بن وهب،

قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال "إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه اربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله تعالى إليه ملكا باربع كلمات، فيكتب عمله واجله، ورزقه، وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، وإن الرجل ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار".

وقال تعالى، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[1].

اى حريز، لا ستقرارها فيه الى بلوغ امدها. ثم قال بعد ذكر تقلباته ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[2] قبل هذا الإنشاء نفخ الروح فيه.

---

(١) سورة المؤمنون، آية رقم ١٢، ١٣.
(٢) سورة المؤمنون، آية رقم ١٤.

واعلم أن الكلام فى الروح صعب المرام، والإمساك عن ذلك سبيل ذوى الأحلام. وقد عظم الله تعالى شأن الروح، وأسجل على الخلق بقلة العلم حيث قال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

وقد أخبرنا الله تعالى فى كلامه عن إكرامه بنى آدم فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾[2].

وروى أنه لما خلق الله تعالى آدم وذريته.

قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة.

فقال : وعزتى وجلالى لا أجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان.

فمع هذه الكرامة، واختياره سبحانه وتعالى إياهم على الملائكة، لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم وقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[3] الخ .

قال ابن عباس: قال اليهود للنبى عليه السلام: أخبرنا ما الروح، وكيف تعذب الروح التى فى الجسد، وإنما الروح من أمر الله، ولم يكن نزل إليه فيه شئ، فلم يجبهم، فأتاه جبرائيل بهذه الآية.

وحيث أمسك رسول الله ﷺ عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالى ووحيه، وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة.

---

(١) سورة الإسراء : آية رقم : ٨٥ .
(٢) سورة الإسراء : آية رقم : ٧٠ .
(٣) سورة الإسراء : آية رقم : ٨٥ .

فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه، لا جرم لما تقاضت الأنفس الإنسانية المتطالعة إلى الفضول المتشوفة إلى المعقول، المتحركة بوضعها بالسكون فيه، والمتسورة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه.

وأطلقت عنان النظر في مسارح الفكر، وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح، تاهت في التيه، وتنوعت آراؤها فيه، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شئ كالاختلاف في ما هية الروح .

ولو لزمت النفوس حدها، معترفة بعجزها، كان ذلك أجدر بها وأولى.

فأما أقاويل من ليس متمسكاً بالشرائع، فتنزه الكتاب عن ذكرها، لأنها أقوال أبرزتها العقول التي ضلت عن الرشاد، وطبعت على الفساد، ولم يصبهانور الاهتداء ببركة متابعة الأنبياء، فهم كما قال الله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[1].

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[2] فلما حجبوا عن الأنبياء لم يسمعوا، وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا، فأصروا على الجالات، وحجبوا بالمعقول عن المأمول.

والعقل حجة الله تعالى يهدى به قوماً ويضل به قوماً آخرين، فلم تنقل أقوالهم في الروح واختلافهم فيه. وأما المستمسكون بالشرائع، الذين تكلموا في الروح، فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر، وقوم منهم بلسان الذوق والوجد لا باستعمال الفكر، حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أيضاً، وكان الأولى الإمساك عن ذلك، والتأدب بأدب النبي عليه السلام

وقد قال الجنيد: الروح شئ استأثر الله بعلمه، ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود .

---

(١) سورة الكهف، آية رقم: ١٠١.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥.

ولكن نجعل للصادقين محملاً لأقوالهم وأفعالهم، ويجوز أن يكون كلامهم فى ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة، حيث حرم تفسيره وجوز تأويله، إذ لا يسع القول فى التفسير إلا نقل، وأما التأويل فتمتد العقول إليه بالباع الطويل، وهو ذكر ما تحتمل الآية من المعنى، من غير القطع بذلك .

وإذا كان الأمر كذلك فللقول فيه وجه ومحمل .

قال أبو عبد الله النباحى، الروح جسم يلطف عن الحس، ويكبر عن اللمس، ولا يعبر عنه بأكثر من موجود .

وهو وإن منع عن العبارة، فقد حكم بأنه جسم، فكأنه عبر عنه.

وقال ابن عطاء، خلق الله الأرواح قبل الأجساد، لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ﴾ يعنى الأرواح ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ﴾ يعنى الأجساد .

وقال بعضهم، الروح لطيف قائم فى كثيف، كالبصر جوهر لطيف قائم فى كثيف .

وفى هذا القول نظر .

وقال بعضهم، الروح عبارة، والقائم بالأشياء هو الحق .

وهذا فيه نظر أيضاً، إلا أن يحمل على معنى الإحياء، فقد قال بعضهم، الإحياء صفة المحيى، كالتخليق صفة الخالق، وقال، ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ وأمره كلامه، وكلامه ليس بمخلوق.

أى صار الحى حياً بقوله كن حياً، وعلى هذا لا يكون الروح معنى فى الجسد .

فمن الأقوال مايدل على أن قائلة يعتقد قدم الروح، ومن الأقوال ما يدل على أنه يعتقد حدوثه.

ثم إن الناس مختلفون في الروح الذي سئل رسول الله ﷺ عنه، فقال قوم: هو جبرائيل.

ونقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، ولكل وجه منه سبعون ألف لسان، ولكل لسان منه سبعون ألف لغة.

يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها، ويخلق من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

وروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن الروح خلق من خلق الله، صورهم على صورة بني آدم، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح .

وقال أبو صالح، الروح كهيئة الإنسان وليسوا بناس.

وقال مجاهد، الروح على صورة بني آدم لهم أيد وأرجل ورءوس يأكلون الطعام وليسوا بملائكة .

وقال سعيد بن جبير، لم يخلق الله تعالى أعظم من الروح غير العرش، ولوشاء أن يبلغ السموات والأرضيين السبع في لقمة لفعل.

صورة خلقه على صورة الملائكة، وصورة وجهه على صورة الآدميين، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش والملائكة معه في صف واحد، وهو ممن يشفع لأهل التوحيد، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستراً من نور لأحرق أهل السموات من نوره .

فهذه الأقاويل لا تكون إلا نقلاً وسماعاً، بلغهم عن رسول الله ﷺ ذلك.

وإذا كان الروح المسئول عنه شيئاً من هذا المنقول فهو غير الروح الذي في الجسد.

فعلى هذا يسوغ القول فى هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعاً .

وقال بعضهم: الروح لطيفة تسرى من الله إلى أماكن معروفة لا يعبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره .

وقال بعضهم: الروح لم يخرج من كن لأنه لو خرج من كن كان عليه الذل .

قيل : فمن أى شئ خرج؟

قال: من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامه وحياها بكلامه، فهى معتقة من ذل كن .

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح أمخلوقة هى؟

قال: نعم، ولولا ذلك ما أقرت بالربوبية حيث قالت: «بلى» والروح هى التى قام بها البدن، واستحق بها اسم الحياة، وبالروح ثبت العقل، وبالروح قامت الحجة، ولو لم يكن الروح كان العقل معطلاً لا حجة عليه ولا له .

وقيل: إنها جوهر مخلوق ولكنها ألطف المخلوقات، وأصفى الجواهر وأنورها، وبها تتراءى المغيبات، وبها يكون الكشف لأهل الحقائق. وإذا حجبت الروح عن مراعاة السر أساءت الجوارح الأدب، ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار، وقابض ونازع .

وقيل: الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء .

وقيل: الأرواح أقسام: أرواح تجول فى البرزخ، وتبصر أحوال الدنيا والملائكة، وتسمع ما تتحدث به فى السماء عن أحوال الآدميين، وأرواح تحت العرش، وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت على أقدرها من السعى إلى الله أيام الحياة .

وروى سعيد بن المسيب عن سلمان قال: أرواح المؤمنين تذهب في برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى يردها إلى جسدها.

وقيل . إذا ورد على الأروح ميت من الأحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا، ووكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء.

حتى إذا عرض على الأموت ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعتذر إلى الله ظاهرا عنه، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى .

وقد ورد في الخبر عن النبي ﷺ "تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة، فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضاً وإشراقاً فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم".

وفي خبر آخر "إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى، فإن كان حسناً استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا".

وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان في الجسد، وليست بمعان وأعراض .

سئل الواسطي: لأي علة كان رسول الله ﷺ أحلم الخلق؟ قال: لأنه خلق روحه أولاً، فوقع له صحبة التمكن والاستقرار.

ألا تراه يقول " كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد" أي لم يكن روحاً ولا جسداً .

وقال بعضهم: الروح خلق من نور العزة، وإبليس من نار العزة، ولهذا قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[1] ولم يدر أن النور خير من النار.

قال بعضهم: قرن الله تعالى العلم بالروح، فهي للطافتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء، وهذا في علم الله، لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك.

والمختار عند أكثر متكلمي الإسلام: أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقا في الإنسان، والموت يعد مهما، وأن الروح هي الحياة بعينها، صار البدن بوجودها حياً، وبالإعادة إليه في القيامة يصير حياً.

وذهب بعض متكلمي الإسلام إلى أنه: جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة، لاشتباك الماء بالعود الأخضر، وهو اختيار أبي المعالي الجويني.

وكثير منهم مال إلى أنه عرض، إلا أنه ردهم عن ذلك الأخبار الدالة على أنه جسم، لما ورد فيه من العروج والهبوط والتردد في البرزخ، فحيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم.

لأن العرض لا يوصف بأوصاف، إذ الوصف معنى، والمعنى لا يقوم بالمعنى. واختار بعضهم أنه عرض.

سئل ابن عباس رضي الله عنهما. قيل: أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال: أين يذهب ضوء المصباح عند فناء الأدهان؟

قيل له: فأين تذهب الجسوم إذا بليت؟ قال: فأين يذهب لحمها إذا مرضت؟

وقال بعض من يتهم بالعلوم المردودة المذمومة وينسب إلى الإسلام: الروح تنفصل من البدن في جسم لطيف.

---

(١) سورة ص، آية رقم ٧٦

وقال بعضهم: إنها إذا فارقت البدن تحل معها القوة الوهمية بتوسط المطلقية، فتكون حينئذ مطالعة للمعانى والمحسوسات، لأن تجردها من هيئات البدن عند المفارقة غير ممكن.

وهى عند الموت شاعرة بالموت، وبعد الموت متخلية بنفسها مقهورة، وتتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة، وتحس بالثواب والعقاب فى القبر.

وقال بعضهم: أسلم المقالات أن يقال: الروح شئ مخلوق، أجرى الله تعالى العادة أن يحيى البدن ما دام متصلاً به، وأنه أشرف من الجسد، يذوق الموت بمفارقة الجسد، كما أن الجسد بمفارقته يذوق الموت، فإن الكيفية والماهية يتماشى العقل فيهما كما يتماشى البصر فى شعاع الشمس.

ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم: الموجودات محصورة: قديم وجسم وجوهر وعرض، فالروح أى هؤلاء؟

فاختار قوم منهم: أنه عرض.

وقوم منهم: أنه جسم لطيف كما ذكرنا.

واختار قوم: أنه قديم، لأنه أمر، والأمر كلام، والكلام قديم.

فما أحسن الإمساك عن القول فيما هذا سبيله .

وكلام الشيخ أبى طالب المكى فى كتابه، يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان فى الجسد، وهكذا النفوس، لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير، ومن حركتها يظهر نور فى القلب يراه الملك فيلهم الخير عند ذلك، وتتحرك للشر.

ومن حركتها تظهر ظلمة فى القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالإغواء .

وحيث وجدت أقوال المشايخ تشير إلى الروح أقول :

ماعندى فى ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به، إذ ميلى فى ذلك إلى السكوت والإمساك فأقول، والله أعلم :

الروح الإنسانى العلوى السماوى من عالم الأمر.

والروح الحيوانى البشرى من عالم الخلق.

والروح الحيوانى البشرى محل الروح العلوى ومورده.

والروح الحيوانى جسمانى لطيف حامل لقوة الحس والحركة ينبعث من القلب، أعنى بالقلب ههنا المضغة اللحمية المعروفة الشكل، المودعة فى الجانب الأيسر من الجسد، وينتشر فى تجاريف العروق الضوارب.

وهذه الروح لسائر الحيوانات، ومنه تفيض قوى الحواس، وهو الذى قوامه بإجراء سنة الله بالغذاء غالباً، ويتصرف بعلم الطب فيه باعتدال مزاج الأخلاط.

ولورود الروح الإنسانى العلوى على هذا الروح تجنس الروح الحيوانى، وباين أرواح الحيوانات، واكتسب صفة أخرى فصار نفساً محلاً للنطق والإلهام.

قال الله تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [١] فتسويتها بورود الروح الإنسانى عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات، فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوى.

وصار تكون النفس التى هى الروح الحيوانى من الآدمى من الروح العلوى فى عالم الأمر كتكون حواء من آدم فى عالم الخلق.

---

(١) سورة الشمس ، آية رقم ٧ ، ٨ .

وصار بينهما من التآلف والتعاشق كما بين آدم وحواء، وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه.

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[1] فسكن آدم إلى حواء، وسكن الروح الإنساني العلوي إلى الروح الحيواني وصيره نفساً.

وتكون من سكون الروح إلى نفس القلب وعنى بهذا القلب اللطيفة التى محلها المضغة اللحمية، فالمضغة اللحمية من عالم الخلق، وهذه اللطيفة من عالم الأمر.

وكان تكون القلب من الروح والنفس فى عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء فى عالم الخلق، ولولا المساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ما تكون القلب.

فمن القلوب قلب مطلع إلى الأب الذى هو الروح العلوى ميال إليه، وهو القلب المؤيد الذى ذكره رسول الله ﷺ فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال "القلوب أربعة:

قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن.

وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر.

وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق.

وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق.

فمثل الإيمن فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد. فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها".

---

(١) سورة الأعراف ، آية رقم : ١٨٩ .

والقلب المنكوس ميال إلى الأم التى هى النفس الأمارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد فى ميله إليها، وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعاد والشقاوة. والعقل جوهر الروح العلوى ولانه ونذل عليه، وتلبيره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد للولد البار، والزوج للزوجة الصالحة.

وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة، فمنكوس من وجه ومنجذب إلى تدبيرهما من وجه إذ لا بد له منهما.

وقول القائلين وختلافهم فى محل العقل، فمن قائل ان محله الدماغ.

ومن قائل ان محله القلب، كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك. وختلافهم فى ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد، وانجذابه إلى البار تارة وإلى العاق اخرى. وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق.

فإذا رؤى فى تدبير العاقل قيل مسكنه الدماغ.

وإذا رؤى فى تدبير البار قيل مسكنه القلب. فالروح العلوى يهم بارتفاع إلى مولاه شوقا وحنونا وتنزها عن الأكوان.

ومن الأكوان القلب والنفس، فإذا ارتقى الروح يحنو القلب إليه حنو الولد الحنين البار إلى الوالد، وتحن النفس إلى القلب الذى هو الولد حنين الوالدة الحنينة إلى ولدها. وإذا حنت النفس ارتفعت من الأرض، وانزوت عروقها الضاربة فى العالم السفلى، وانطوى هواها، وانحسمت مادته، وزهدت فى الدنيا، وتجافت عن دار الغرور، وانابت إلى دار الخلود .

وقد تخلد النفس التى هى الأم إلى الأرض بوضعها الجبلى، لتكونها من الروح الحيوانى الجسى، ومستندها فى ركونها إلى الطبائع التى هى اركان

العالم السفلي. قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[1]

فإذا سكنت النفس التى هى الأم إلى الأرض، انجذب إليها القلب المنكوس، انجذاب الولد المائل إلى الوالدة المعوجة الناقصة، دون الوالد الكامل المستقيم، وتنجذب الروح إلى الولد الذى هو القلب.

لما جبل عليه من انجذب الوالد إلى ولده، فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه، وفى هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2].

وقد ورد فى أخبار داود عليه السلام: أنه سأل ابنه سليمان: أين موضع العقل منك؟ قال: القلب، لأنه قلب الروح، والروح قالب الحياة .

وقال أبو سعيد القرشى: الروح روحان، روح الحياة وروح الممات، فإذا اجتمعا عقل الجسم. وروح الممات هى التى إذا خرجت من الجسد يصير الحى ميتاً. وروح الحية مابه مجارى الأنفاس وقوة الأكل والشرب وغيرهما.

وقال بعضهم: الروح نسيم طيب تكون به الحياة، والنفس ريح حارة تكون منها الحركة المذمومة والشهوات، ويقال: فلان حار الرأس .

وفى الفصل الذى ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس، وإشارة المشايخ بماهية النفس إلى ما يظهر من آثارها من الأفعال المذمومة والأخلاق المذمومة، وهى التى تعالج بحسن الرياضة إزالتها، وتبديلها، والأفعال الرديئة تزال والأخلاق الرديئة تبدل.

---

(١) سورة الأعراف ، آية رقم : ١٧٦ .
(٢) سورة يس ، آية رقم : ٣٨ .

اخبرنا الشيخ العالم رضى الدين احمد بن إسماعيل القزوينى قال انا إجازة ابو سعيد محمد بن ابى العباس الخليلى، قال انا القاضى محمد بن سعيد الفرخزادى قال انا ابو إسحق احمد بن محمد بن ابراهيم.

قال انا الحسين بن محمد بن عبد الله السفيانى، قال حدثنا محمد بن الحسن اليقطينى، قال حدثنا احمد بن عبد الله بن يزيد العقيلى قال حدثنا صفوان بن صالح، قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن خالد بن زيد عن سعيد بن ابى هلال ان رسول الله ﷺ كان إذا قرا هذه الاية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾[1] وقف ثم قال "اللهم ات نفسى تقواها، انت وليها ومولاها، وزكها انت خير من زكاها".

وقيل، النفس لطيفة مودعة فى القالب، منها الأخلاق والصفات المذمومة، كما ان الروح لطيفة مودعة فى القلب منها الاخلاق والصفات المحمودة، كما ان العين محل الرؤية، والأذن محل السمع، والأنف محل الشم، والفم محل الذوق.

وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة، والروح محل الأوصاف المحمودة، وجميع اخلاق النفس وصفاتها من اصلين.

أحدهما: الطيش.

والثانى: الشره، وطيشها من جهلها، وشرهها من حرصها، وشبهت النفس فى طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس مصوب لا تزال متحركة بجلتها ووضعها، وشبهت فى حرصها بالفراش الذى يلقى نفسه على ضوء المصباح، ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذى فيه هلاكه.

---

(١) سورة الشمس: اية رقم: ٩.

فمن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر، والصبر جوهر العقل، والطيش صفة النفس وهواها وروحها لا يغلبه إلا الصبر.

إذ العقل يقمع الهوى، ومن الشره يظهر الطمع والحرص، وهما اللذان ظهرا فى آدم حيث طمع فى الخلود، فحرص على أكل الشجرة.

وصفات النفس لها أصول من أصل تكونها، لأنها مخلوقة من تراب، ولها بحسبه وصف.

وقيل، وصف الضعف فى الآدمى من التراب، ووصف البخل فيه من الطين، ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون، ووصف الجهل فيه من الصلصال.

وقيلَ : قوله كالفخار، فهذا الوصف فيه شئ من الشيطنة لدخول النار فى الفخار، فمن ذلك الخداع والحيل والحسد.

فمن عرف أصول النفس وجبلاتها، عرف أن لاقدرة له عليها بالاستعانة ببارئها وفاطرها، فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبر دواعي الحيوانية فيه بالعلم والعدل.

وهو رعاية طرفى الإفرط والتفريط، ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه، ويدرك صفات الشيطنة فيه، والأخلاق المذمومة وكمال إنسانيته، ويتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك، ثم تنكشف له الأخلاق التى تنازع بها الربوبية من الكبر والعز ورؤية النفس والعجب وغير ذلك.

فيرى أن صرف العبودية فى ترك المنازعة للربوبية، والله تعالى ذكر النفس فى كلامه القديم بثلاثة أوصاف.

بالطمأنينة قال: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾[1]

---

(١) سورة الفجر، آية رقم : ٢٧ .

وسماها لوامه قال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝﴾[1]

وسماها أمارة فقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[2]

وهى نفس واحدة، ولها صفات متغايرة، فإذا امتلأ القلب سكينة خلع الطمانينة، لأن السكينة مزيد الإيمان، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح، لما منح من حظ اليقين، وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه النفس إلى محل القلب، وفى ذلك طمانينتها.

وإذا انزعجت من مقار جبلاتها ودواعى طبيعتها متطلعة إلى مقار الطمانينة فهى لوامة، لأنها تعود باللائمة على نفسها، ولنظرها وعلمها بمحل الطمانينة، ثم انجذابها إلى محلها التى كانت فيه أمارة بالسوء، وإذا أقامت فى محلها لا يغشاها نور العلم فهى على ظلمتها أمارة بالسوء.

فالنفس والروح يتطاردان، فتارة يملك القلب دواعى الروح، وتارة يملكه دواعي النفس.

وما السر فقد شار القوم إليه، ووجدت فى كلام القوم:

ان منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح.

ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها والطف، وقلوا السر محل الشهدة، والروح محل المحبة، والقلب محل للعرفة.

والسر الذى وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور فى كتاب الله، وإنما المذكور فى كلام الله الروح والنفس وتنوع صفاتها، والقلب والفؤاد والعقل.

---

(١) سورة القيامة، آية رقم: ١، ٢.

(٢) سورة يوسف، آية رقم: ٥٣

وحيث لم نجد فى كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه ورأينا الاختلاف فى القول فيه.

وأشار قوم إلى أنه دون الروح، وقوم إلى أنه ألطف من الروح فنقول والله أعلم:

الذى سموه سرا ليس هو بشئ مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح والنفس، وإنما لما صفت النفس وتزكت انطلق الروح من وثاق ظلمة النفس، فأخذ فى العروج إلى أوطان القرب، وانتزح القلب عند ذلك عن مستقره متطلعاً إلى الروح.

فاكتسب وصفاً زائداً على وصفه، فانعجم على الواجدين ذلك الوصف حيث رأوه أصفى من القلب فسموه سرا .

ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطلعه إلى الروح، اكتسب الروح وصفا زائدا فى عروجه، وانعجم على الواجدين فسموه سرا. والذى زعموا أنه ألطف من الروح، روح متصفة بوصف أخص مما عهدوه، والذى سموه قبل الروح سرا هو قلب اتصف بوصف زائد غير ما عهدوه.

وفي مثل هذا الترقى من الروح والقلب تترقى النفس إلى محل القلب، وتنخلع من وصفها، فتصير نفساً مطمئنة تريد كثيرا من مرادات القلب من قبل، إذا صار القلب يريد ما يريده مولاه، متبرئاً عن الحول والقوة والإرادة والاختيار.

وعندها ذاق طعم صرف العبودية، حيث صار حرا عن إرادته واختياراته. وأما العقل فهو لسان الرُوح وترجُمان البصيرة، والبصيرة للروّح بمثابة القلب، والعقل بمثابة اللسان .

وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال " أول ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال له أقعد فقعد، ثم قال له انطق فنطق، ثم قال له اصمت فصمت.

فقال وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي وسلطاني وجبروتي ما خلقت خلقاً أحب إلي منك ولا أكرم علي منك، بك أعرف، وبك أحمد، وبك أطاع، وبك آخذ، وبك أعطي، وإياك أعاتب، ولك الثواب، وعليك العقاب، وما أكرمتك بشئ أفضل من الصبر".

وقال عليه السلام، "لا يعجبكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله".

وسألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ قالت، قلت يا رسول الله بأي شئ يتفاضل الناس؟ قال : بالعقل في الدنيا والآخرة.

قالت : قلت : أليس يجزى الناس بأعمالهم؟ قال، يا عائشة وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل، فبقدر عقولهم يعملون، وعلى قدر ما يعملون يجزون".

وقال عليه السلام " إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلي وصلاته لا تعدل جناح بعوضة، وإن الرجل ليأتي المسجد فيصلي وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنها عقلاً.

قيل. وكيف يكون أحسنها عقلاً؟ قال، أورعها عن محارم الله، وأحرصها على أسباب الخير، وإن كان دونه في العمل والتطوع" .

وقال عليه الصلاة والسلام، "إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشتاتاً فإن الرجلين يستوي علمهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد " .

وروى عن وهب بن منبه انه قال: إنى أجد فى سبعين كتاباً أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعهما من العقل فى جنب عقل رسول الله ﷺ كهيئة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا .

واختلف الناس فى ماهية العقل، والكلام فى ذلك يكثر، ولا نؤثر نقل الأقاويل، وليس ذلك من غرضنا .

فقال قوم، العقل من العلوم، فإن الخالى من جميع العلوم لا يوصف بالعقل، وليس العقل جميع العلوم، فإن الخالى عن معظم العلوم يوصف بالعقل .

وقالوا، ليس من العلوم النظرية، فإن من شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل، فهو إذا من العلوم الضرورية وليس هو جميعها، فإن صاحب الحواس المختلطةعاقل وقد عدم بعض مدرك العلوم الضرورية.

وقال بعضهم، العقل ليس من أقسام العلوم، لأنه لو كان منها لوجب الحكم بأن الذاهل عن ذكر الاستحالة والجواز لا يتصف بكونه عاقلاً، ونحن نرى العاقل فى كثير من أوقاته ذاهلاً .

وقالوا، هذا العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم.

ونقل عن الحارث بن أسد المحاسبى وهو من أجل المشيخ انه قال: العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم .

وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه فى أول ذكر العقل، أنه لسان الروح، لأن الروح من أمر الله، وهى المتحملة للأمانة التى أبت السموات والأرضون أن يحملنها.

ومنها يفيض نور العقل، وفى نور العقل تتشكل العلوم. فالعقل للعلوم بمثابة اللوح المكتوب، وهو بصفته منكوس متطلع إلى النفس تارة، ومنتصب مستقيم تارة.

فمن كان العقل فيه منكوسا إلى النفس فرقة فى أجزاء الكون، وعدم حسن الاعتدال بذلك وأخطأ طريق الاهتداء.

ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيد العقل بالبصيرة التى هى للروح بمثابة القلب، واهتدى إلى المكون، ثم عرف الكون بالمكون مستوفي أقسام المعرفة بالمكون والكون، فيكون هذا العقل عقل الهداية.

فكما أحب الله إقباله فى أمر دله على إقباله عليه وما كرهه الله فى أمر دله على الإدبار عنه، فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجتنب مساخطه، وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالته على الرشد ونهيه عن الغى.

قال بعضهم: العقل على ضربين، ضرب يبصر به أمر دنياه، وضرب يبصر به أمر آخرته.

وذكر: أن العقل الأول من نور الروح، والعقل الثانى من نور الهداية.

فالعقل الأول موجود فى عامة ولد آدم، والعقل الثانى موجود فى الموحدين، مفقود من المشركين.

وقيل: إنما سمي العقل عقلا. لأن الجهل ظلمة، فإذا غلب النور بصره فى تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقلا للجهل.

وقيل: عقل الإيمان مسكنه فى القلب ومتحمله فى الصدر بين عيني الفؤاد.

والذى ذكرناه من كون العقل لسان الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين.

ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل، ووضع الأشياء في مواضعها. وهذا العقل هو العقل المستضئ بنور الشرع.

لأن انتصابه واعتداله هداه إلى الاستضاءة بنور الشرع، لكون الشرع ورد على لسان النبى المرسل، وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية، ومكاشفة بصيرته التى هى للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته، واستقامة عقله بتأييد البصيرة .

فالبصيرة تحيط بالعلوم التى يستوعبها العقل، والتى يضيق عنها نطاق العقل لأنها تستمد من كلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها.

والعقل ترجمان تؤدى البصيرة إليه من ذلك شطرا كما يؤدى القلب إلى اللسان بعض ما فيه، ويستأثر ببعضه دون اللسان .

ولهذا المعنى من جمد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظى بعلوم الكائنات التى هى من الملك، والملك ظاهر الكائنات.

ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت، والملكوت باطن الكائنات، اختص بمكاشفة أرباب البصائر والعقول، دون الجامدين على مجرد العقول دون البصائر .

وقد قال بعضهم: إن العقل عقلان، عقل للهداية مسكنه فى القلب وذلك للمؤمنين الموقنين ومتعمله فى الصدر بين عينى الفؤاد.

والعقل الآخر مسكنه فى الدماغ ومتعمله فى الصدر بين عينى الفؤاد، فبالأول يدبر أمر الآخرة ، وبالثانى يدبر أمر الدنيا.

والذى ذكرناه: أنه عقل واحد إذا تأيد بالبصيرة دبر الأمرين، وإذا تفرد دبر أمرا واحدا وهو واضح وبين .

وقد ذكرنا في أول الباب من تعبيره للنفس المطمئنة والأمارة ما يتنبه الإنسان به على كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصيرة تارة، ومنفردا بوصفه تارة.

والله الملهم للصواب.

الباب السابع والخمسون
فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى، قال أخبرنا أبو الفتح الهروى، قال أنا أبو نصر الترياقى، قال أنا أبو محمد الجراحى، قال أنا أبو العبس المحبوبى، قال أنا أبو عيسى الترمذى، قال أنا أبو هناد.

قال أنا أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ "إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان" ثم قرأ، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1]

وإنما يتطلع إلى معرفة اللمتين وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف إلى ذلك تشوف العطشان إلى الماء، لما يعلم من وقع ذلك وخطره وفلاحه، وصلاحه وفساده، ويكون ذلك عبدا مرادا بالحظوة بصفو اليقين ومنح الموقنين.

وأكثر التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به فى طريقهم، ومن أخذ فى طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف.

لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والإرادة والحظ من الله الكريم، ومن هو فى مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلع إلى معرفة اللمتين ولا يهتم بتمييز الخواطر.

---

(١) سورة البقرة، آية رقم ٢٦٨.

ومن الخواطر ما هى رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعضهم: لى قلب إن عصيته عصيت الله، وهذا حال عبد استقام قلبه، واستقامة القلب لطمأنينة النفس، وفى طمأنينة النفس يأس الشيطان، لأن النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب.

وإذا تكدر طمع الشيطان وقرب منه، لأن صفاء القلب محفوف بالتذكر والرعاية، وللذكر نور يتقيه الشيطان كاتقاء أحدنا النار.

وقد ورد فى الخبر " إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله ولى وخنس، وإذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه".

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝﴾[2].

فالتقوى وجود خالص الذكر، وبها ينفتح بابه، ولا يزال العبد يتقى حتى يحمى الجوارح من المكاره، ثم يحميها من الفضول ومالا يعنيه.

فتصير أقواله وأفعاله ضرورة، ثم تنتقل إلى باطنه، ويطهر الباطن ويقيده عن المكاره، ثم من الفضول حتى يتقى حديث النفس.

قال سهل بن عبد الله: أسوأ المعاصى حديث النفس، ويرى الإصغاء إلى ما تحدث به النفس ذنبا فيتقيه، ويتقد القلب عند هذا الاتقاء بالذكر اتقاد الكواكب فى كبد السماء، ويصير القلب سماء محفوظا بزينة كواكب الذكر.

---

(١) سورة الزخرف: آية رقم: ٣٦.
(٢) سورة الأعراف: آية رقم: ٢٠١.

فإذا صار كذلك بعد الشيطان، ومثل هذا العبد يندر في حقه الخواطر الشيطانية، ولما ويكون له خواطر النفس، ويحتاج إلى أن يتقيها ويميزها بالعلم، لأن منها خواطر لا يضر إمضاؤها، كمطالبات النفس بحاجاتها، وحاجاتهاتنقسم إلى الحقوق والحظوظ، ويتعين التمييز عند ذلك واتهام النفس بمطالبات الحظوظ. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[1] أي فتثبتوا .

وسبب نزول الآية الوليد بن عقبة، حيث بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق، فكذب عليهم ونسبهم إلى الكفر والعصيان، حتى هم رسول الله ﷺ بقتالهم، ثم بعث خالدا إليهم، فسمع أذان المغرب والعشاء، ورأى ما يدل على كذب الوليد بن عقبة. فأنزل الله الآية في ذلك. فظاهرالآية وسبب نزولها ظاهر، وصار ذلك تنبيهاً من الله عباده على التثبت في الأمور.

قال سهل، في هذا الآية: الفاسق الكذاب، والكذب صفة النفس، لأنها تملي أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها، فتعين التثبت عند خاطرها وإلقائها.

فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب التثبت، ولا يستفزه الطبع، ولا يتعجله الهوى، فقد قال بعضهم: أدنى الأدب أن تقف عند الجهل، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة. ومن الأدب عند الاشتباه إنزال الخاطر بمحرك النفس وخالقها وبارئها وفاطرها، وإظهار الفقر والفاقة إليه، والاعتراف بالجهل، وطلب المعرفة والمعونة منه.

فإنه إذا أتى بهذا الأدب يغاث ويعان، ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق، فإن كان للحق امضاه، وإن كان للحظ نفاه.

---

(١) سورة الحجرات، آية رقم: ٦.

وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم، لأن الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل فى ظاهر العلم. ثم من الناس من لايسعه فى صحته إلا الوقوف على الحق دون الحظ وإن أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله، فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب.

ومن الناس من يدخل فى تناول الحظ ويمضى خاطره بمزيد علم لديه من الله وهو علم السعة لعبد مأذون له فى السعة، عالم بالإذن، فيمضى خاطر الحظ.

والمراد بذلك على بصيرة من أمره، يحسن به ذلك ويليق به، عالم بزيادته ونقصانه، عالم بحاله، محكم لعلم الحال وعلم القيم، لا يقاس على حاله، ولا يدخل فيه بالتقليد، لأنه أمر خاص لعبد خاص.

وإذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس فى مقام تخلصه من لمات الشيطان، تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك، وتصير الخواطر الأربعة فى حقه ثلاثا، ويسقط خطر الشيطان إلا نادرا لضيق مكانه من النفس.

لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس، واتساع النفس باتباع الهوى والاخلاد إلى الأرض، ومن ضايق النفس على التمييز بين الحق والحظ ضاقت نفسه، وسقط محل الشيطان إلا نادرا لدخول الابتلاء عليه.

ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقربين من إذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر، يصير قلبه سماويا يرقى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته فى طبقات السموات.

وكلما ترقى تتضاءل النفس المطمئنة، وتبعد عنه خواطرها، حتى يجاوز السموات بعروج باطنه.

كما كان ذلك لرسول الله ﷺ بظاهره وقلبه، فإذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس، لتنزه بأمور القرب، وبعد النفس عنه، وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا.

لأن الخاطر رسول، والرسالة إلى من بعد، وهذا قريب، وهذا الذى وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم، بل يعود فى هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطره، فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك.

وذلك أن الخواطر تستدعى وجوده، وما أشرنا إليه حال الفناء ولا خاطر فيه، وخاطر الحق انتفى لمكان القرب، وخاطر النفس بعد عنه لبعد النفس، وخاطر الملك تخلف عنه كتخلف جبريل فى ليلة المعراج عن رسول الله ﷺ حيث قال: لو دنوت أنملة لاحترقت.

قال محمد بن على الترمذى: المحدث والمكلم، إذا تحققا فى درجتهما لم يخافا من حديث النفس.

فكما أن النبوة محفوظة من إلقاء الشيطان، كذلك محل المكالمة والمحادثة محفوظ من إلقاء النفس وفتنتها، ومحروس بالحق والسكينة، لأن السكينة حجاب المكلم والمحدث مع نفسه.

وسمعت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى بالبصرة يقول: الخواطر أربعة: خاطر من النفس، وخاطر من الحق، وخاطر من الشيطان ، وخاطر من الملك، فأما الذى من النفس فيحس به من أرض القلب، والذى من الحق من فوق القلب، والذى من الملك عن يمين القلب والذى من الشيطان عن يسر القلب.

والذى ذكرناه إنما يصح لعبد أنب نفسه بالتقوى والزهد، وتصفى وجوده وستقام ظاهره وبطنه، فيكون قلبه كالمرآة المجلوة لا يأتيه

الشيطان من ناحية إلا ويبصره، فإذا سود القلب وعلاه الرين لا يبصر الشيطان.

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ "إن العبد إذا لاذنب نكت فى قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل، وإن عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه" قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

سمعت بعض العارفين يقول كلاما دقيقا كوشف به فقال: الحديث فى باطن الإنسان، والخيال الذى تراءى لباطنه وتخيل بين القلب وصفاء الذكر هو من القلب وليس هو من النفس.

وهذا بخلاف ما قرر، فسألته عن ذلك، فذكر أن بين القلب والنفس منازعات ومحادثات، وتآلف وتودد، وكلما انطلقت النفس فى شئ بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر.

فإذا عاد العبد من مواطن النفس، وأقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى، أقبل القلب بالمعاتبة للنفس، وذكر النفس شيئا شيئا من فعلها وقولها، كاللائم للنفس والعاتب لها على ذلك. فإذا كان الخاطر أول الفعل ومفتتحه فمعرفته من هم شأن العبد، لأن الأفعال من الخواطر تنشأ، حتى ذهب بعض العلماء إلى أن العلم المفترض طلبه بقول رسول الله ﷺ "طلب العلم فريضة على كل مسلم" هو علم الخواطر، قال: لأنها أول الفعل، وبفسادها فساد فعل، وهذا لعمرى لا يتوجه، لأن رسول الله ﷺ أوجب ذلك على كل مسلم، وليس كل المسلمين عندهم من القريحة والمعرفة ما يعرفون به ذلك، ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر، فمنها ما هو بذر السعادة، ومنها ما هو بذر الشقاوة .

---

(١) سورة المطففين، آية رقم : ١٤ .

وسبب اشتباه الخواطر احد اربعة اشياء لا خامس لها.

إمـا ضعـف اليقـين، او قلـة العلـم بمعرفـة صفـات لنفـس واخلاقـها، ومتابعـة الهوى بخرم قوعـد التقوى، او محبـة الدنيـا جاهها ومالها، وطلـب الرفعة ومنزلة عند الناس، فمن عصم عن هـذه لأربعة يفـرق بـين لمة ألملك ولمة الشيطن، ومن ابتلي بها لا يعلمها ولا يطلبها. وانكشاف بعض الخوطر دون البعض لوجـود بعض هـذه الأربعـة دون البعض. وأقـوم النـس بتمـييز الخوطر الومهم بمعرفـة النفـس، ومعرفتها صعبـة المنـال، لا تكاد تتيسر إلا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوى .

واتفق المشايخ على ان مـن كـان اكله مـن الحرام لايفـرق بـين الإلهام والوسوسة .

وقـال ابو علي الدقـاق، من كـان قوته معلـوم لا يفـرق بـين الإلهـام والوسوسة.

وهـذا لا يصح على الإطلاق إلا بقيد، وذلك ان مـن العلـوم مـا يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبد بإذن يسبق إليه في لأخذ منه والتقوت بـه. ومثـل هذا العلوم لا يحجب عن تمييز الخواطر، إنما ذلـك يقـال في حق مـن دخـل في معلوم باختيار منـه وإيثـار، لأنـه يحجب لوضـع اختيـاره، والـذى اشرنا إليـه منسلخ من إرادته فلا يحجبه العلوم .

وفرقـوا بين هواجس النفـس ووسوسـة الشيطان، وقـالوا إن النفـس تطالب وتلح فلا تزال كـذلك حتـى تصـل إلى مرادهـا، والشيطان إذا دعـا إلى زلة ولم يجب يوسوس باخرى، إذ لاغرض له في تخصيص بل مراده الإغـوء كيفما أمكنه .

وتكلم الشيوخ في الخاطرين إذا كانا من الحق ايهما يتبع .

قال الجنيد: الخاطر الأول لأنـه إذا بقي رجع صاحبـه إلى التـأمل، وهذا شرط العلم .

وقال بن عطاء: الثاني أقوى لأنه ازداد قوة بالأول.

وقال أبو عبد الله بن خفيف: هما سوء، لأنهما من الحق، فلا مزية لأحدهما على الآخر.

قالوا: الواردات أعم من الخواطر، لأن الخواطر تختص بنوع خطاب و مطالبة، والواردات تكون تارة خوطر، وتارة تكون وارد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض، ووارد بسط.

وقيل: بنور التوحيد يقبل الخاطر من الله تعالى، وبنور المعرفة يقبل من الملك، وبنور الإيمان ينهى النفس، وبنور الإسلام يرد على العدو.

ومن قصر عن درك حقائق الزهد، وتطلع إلى تمييز الخوطر، يزن الخاطر أولا بميزان الشرع، فما كان من ذلك نفلا أو فرضا يمضيه، وما كان من ذلك محرما أو مكروها ينفيه، فإن استوى الخاطر ان في نظر العلم ينفذ أقربهما إلى مخالفة هوى النفس، فإن النفس قد يكون لها هوى كامن من أحدهما، والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلى الدون .

وقد يلم الخاطر بنشاط النفس، والعبد يظن أنه بنهوض القلب، وقد يكون من القلب نفاق بسكونه إلى النفس .

يقول بعضهم: منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى نفسي ساعة .

فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطرا الحق على من يكون ضعيف العلم، فلا يدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الراسخون، وأكثر ما تدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين

واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل، وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب، وبقاء نصيب الهوى فيهم .

وينبغي أن يعلم العبد قطعا أنه مهما بقي عليه أثر من الهوى وإن دق وقل، يبقى عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر. ثم قد يغلط في تمييز الخواطر من هو قليل العلم، ولا يؤاخذ بذلك، مالم يكن عليه من الشرع مطالبة، وقد لا يسامح بذلك بعض الغالطين لما كوشفوا به من دقيق الخفاء في التمييز، ثم استعجالهم مع علمهم وقلة التثبت.

وذكر بعض العلماء أن لمة الملك ولمة الشيطان وجدتا لحركة النفس والروح، وأن النفس إذا تحركت انقدح من جوهرها ظلمة تنكت في القلب همة سوء، فينظر الشيطان إلى القلب فيقبل بالإغواء والوسوسة.

وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس ، أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي، أو دعوى حركة أو سكون، وهي آفة العقل ومحنة القلب، ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة: جهل، أو غفلة، أو طلب فضول، ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب نفيه، فإنها ترد بخلاف مأمور، أو على وفق منهي. ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات.

وذكر أن الروح إذا تحركت انقدح من جوهرها نور ساطع، يظهر من ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة إما بفرض أمر به، أو بفضل ندب إليه، وإما بمباح يعود صلاحه إليه .

وهذا الكلام يدل على أن حركتي الروح والنفس هما الموجبتان للمتين.

وعندي والله أعلم أن اللمتين يتقدمان على حركة الروح والنفس، فحركة الروح من لمة الملك والهمة العالية من حركة الروح، وهذه

الحركة من الروح بحركة لمة الملك وحركة النفس من لمة الشيطان، ومن حركة النفس الهمة الدنيئة، وهي من شؤم لمة الشيطان.

فإذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبل حكيم. وقد تكون هاتان اللمتان متداركتين ويتمحى اثر احدهما بالأخرى وللتفطن للتيقظ ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار في ذاته باب انس، ويبقى ابدا متفقدا حاله مطالعا اثار اللمتين.

وذكر خاطر خامس وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة يكون مع النفس والعدو لوجود التمييز وإثبات الحجة على العبد، ليدخل العبد في الشئ بوجود عقل، إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب. وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختارا ويستوجب به الثواب .

وذكر خاطر سادس وهو خاطر اليقين، وهو روح الإيمان ومزيد العلم، ولا يبعد ان يقال الخاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع إلى ما يرد من خاطر الحق. وخاطر العقل اصله تارة من خاطر الملك، وتارة من خاطر النفس، وليس من العقل خاطر على الاستقلال، لأن العقلَ كما ذكرنا غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم، ويتهيأ بها الانجذاب إلى دواعي النفس تارة، وإلى دواعي الملك تارة وإلى دواعي الروح تارة، وإلى دواعي الشيطان تارة، فعلى هذا لا تزيد الخواطر على اربعة. ورسول الله ﷺ لم يذكر غير اللمتين.

وهاتان اللمتان هما الأصل، والخاطران الآخران فرع عليهما ، لأن لمة الملك إذا حركت الروح، واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت ان تهتز بالهمة الصالحة إلى حظائر القرب فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق. وإذا تحققَ بالقرب يتحقق بالفناء فتثبت الخواطر الربانية عند ذلك كما

ذكرناه قبل لموضع قربه، فيكون أصل خواطر الحق لمة الملك ولمة الشيطان إذا حركت النفس هوت بجبلتها إلى مركزها من الغريزة والطبع، فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها، فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان، فأصلها اثنان وينتجان آخرين، وخاطر اليقين والعقل مندرج فيهما والله أعلم .

الباب الثامن والخمسون
فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما

قد كثر اشتباه بين الحال والمقام، واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك، ووجود الاستباه لمكان تشابههما فى نفسهما وتداخلهما، فتراءى للبعض الشئ حالا، تراءى للبعض مقاما، وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما، على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق، فالحال سمى حالا لتحوله، والمقام مقاما لثبوته واستقراره.

وقد يكون الشئ بعينه حالا ثم يصير مقاما، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الدعية بغلبة صفات النفس، ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال، ثم يحول بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ويغلب حال المحاسبة، وتنقهر النفس، وتنضبط، وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه فيصير فى مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة .

ثم ينازله حال المراقبة، فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال.

ثم يحول حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد، إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة، ويتدارك الله عبده بالمعونة، فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المرقبة، ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة، فإذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه، ونزل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستتار، ويظهر بالتجلى، ثم يصير مقاما، وتتخلص شمسه عن كسوف الاستتار.

ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه، كالتحقق بالفناء، والتخلص إلى البقاء، والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين، وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة .

وقد قال رسول الله ﷺ "اللهم إنى نسألك إيمانا يباشر قلبى" .

قال سهل بن عبد الله: للقلب تجويفان، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهوقلب القلب وسويداؤه، والتجويف الثانى ظاهر القلب وفيه العقل، ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين، وهو صقال لموضع مخصوص فيه، بمنزلة الصقال الذى فى سواد العين، ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات، فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات، وهذه الحالة التى خرقت شغاف القلب ووصلت إلى سويدائه وهى حق اليقين هى أسنى العطايا وأعز الأحوال وأشرفها، ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الآجر من الثوب، إذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم آجرا .

فالمشاهدة هى الأول والأصل يكون منه الفناء كالطين، ثم البقاء كاللبن، ثم هذه الحالة وهى آخر الفروع .

ولما كان الأصل فى الأحوال هذه الحالة وهى شرف الأحوال، وهى محض موهبة لا تكتسب، سميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالا، لأنها غير مقدورة للعبد بكسبه، فأطلقوا القول، وتداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب والأحوال المموت ومتنزل البركات، وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوى .

قال بعضهم: الحال هو الذكر الخفى. وهذا إشارة إلى شئ مما ذكرناه.

وسمعت المشايخ بالعراق يقولون: الحال ما من الله ، فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون: هذا ما من العبد، فإذا لاح للمريد شئ

من المواهب والمواجيد قالوا هذا ما من الله وسموه حالا، إشارة منهم إلى أن الحال موهبة .

وقال بعض مشايخ خرسان: الأحوال مواريث الأعمال .

وقال بعضهم : الأحوال كالبروق، فإن بقى فحديث النفس.

وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق، وإنما مواهب. وعلى الترتيب الذى درجنا عليه كلها مواهب، إذ المكاسب محفوفة بالمواهب، والمواهب محفوفة بالمكاسب، فالأحوال مواجيد، والمقامات طرق المواجيد ، ولكن فى المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب، وفى الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب ، فالأحوال مواهب علوية سماوية، والمقامات طرقها .

وقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، سلونى عن طريق السموات فإنى أعرف بها من طرق الأرض، إشارة إلى المقامات والأحوال ، فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات، فإن السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهى طرق يكون ذلك فى بعض الأحوال، فإنها تطرق ثم تستلبها النفس، فأما على الإطلاق فلا، والأحوال لا تمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء.

وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون إلا إذا دامت، فأما إذا لم تدم فهى لوائح وطوالع وبوادر، وهى مقدمات الأحوال وليست بأحوال .

واختلفت المشايخ فى أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذى هو فيه قبل إحكم حكم مقامه؟

قال بعضهم: لا ينبغى أن ينتقل عن الذى هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه.

وقال بعضهم: لا يكمل المقام الذى هو فيه إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه، فينظر من مقامه العالى إلى ما دونه من المقام فيحكم أمر مقامه. والأولى أن يقال والله علم: الشخص فى مقامه يعطى حالا من مقامه الأعلى الذى سوف يرتقى إليه ، فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذى هو فيه، ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشئ إلى العبد أنه يرتقى أو لا يرتقى، فإن العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات، والأحوال مواهب يرقى إلى المقامات التى يمتزج فيها الكسب بالموهبة، ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه، فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزائد الأحوال ، فعلى ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة ، ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام، وفى الزهد حال ومقام، وفى التوكل حال ومقام، وفى الرضى حال ومقام .

قال أبو عثمان الحيرى: منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته. أشار إلى الرضى، ويكون منه حللا ثم يصير مقاما، والمحبة حال ومقام، ولا يزال العبد يتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب، وطروق حال التوبة بالانزجار أولا.

قال بعضهم: الزجر هيجان فى القلب لا يسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى اليقظة، فإذ تيقظ بصر الصواب من الخطأ .

وقال بعضهم: الزجر ضياء فى القلب يبصر به خطأ قصده

والزجر فى مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه: زجر من طريق العلم، وزجر من طريق العقل، وزجر من طريق الإيمان، فيتنازل التائب حال الزجر وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة، فلا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يمحوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما.

وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنازلة حال تريه قلة ترك الاشتغال بالدنيا، وتقبح له الإقبال عليها فتمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة، حتى تتداركه المعونة من الله الكريم فيزهد ويستقر زهده، ويصير الزهد مقامه. ولا تزال حال التوكل تقرع باب قلبه حتى يتوكل، وهكذا حال الرضى حتى يطمئن على الرضى، ويصير ذلك مقامه .

وههنا لطيفة، وذلك أن مقام الرضى والتوكل يثبت ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع، ولا يحكم ببقاء حال الرضى مع وجود داعية الطبع، وذلك مثل كراهة يجدها الراضي بحكم الطبع، ولكن علمه بمقام الرضى يغمر حكم الطبع، وظهور حكم الطبع في وجود الكراهية المغمورة بالعلم لا يخرجه عن مقام الرضى، ولكن يفقد حال الرضى، لأن الحال لما تجردت موهبة أحرقت داعية الطبع، فيقال كيف يكون صاحب مقام في الرضى ولا يكون صاحب حال فيه، والحال مقدمة المقام، والمقام أثبت ؟

نقول، لأن المقام لما كان مشوبا بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه، والحال لما كانت موهبة من الله نزهت عن مزج الطبع، فحال الرضى ألطف، ومقام الرضى أمكن، ولا بد للمقامات من زائد الأحوال، فلا مقام إلا بعد سابقة حال، ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال، فمنها ما يصير مقاما، ومنها مالا يصير مقاما، والسر فيه ما ذكرناه أن الكسب في المقام ظهر، والموهبة بطنت، وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن.

فلما كان في الأحوال الموهبة غالبة لم تتقيد وصارت الأحوال إلى مالا نهاية لها، ولطف سني الأحوال أن يصير مقاما، ومقدورات الحق غير متناهية. ومواهبه غير متناهية، ولهذا قال بعضهم: لو أعطيت روحانية عيسى، ومكانة موسى، وخلة إبراهيم عليه السلام، لطلبت ما وراء ذلك، لأن مواهب الله لا تنحصر، وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء، ولكن هذه

إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه، وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى، لأن سيد المرسلين صلوات الله عليه وسلامه نبه على عدم القناعة، وقرع باب الطلب واستنزال بركة المزيد بقوله عليه السلام: "كل يوم لم أزدد فيه علما فلا بورك لي في صبيحة ذلك اليوم".

وفي دعائه ﷺ "اللهم ما قصر عنه رأيي، وضعف فيه عملي، ولم تبلغه نيتي وأمنيتي، من خير وعدته أحدا من عبادك، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك، فأنا أرغب إليك وأسألك إياه".

فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر، والأحوال مواهب، وهي متصلة بكلمات الله التي ينفد البحر دون نفادها، وتنفد أعداد الرمال دون أعدادها.

والله المنعم المعطي.

الباب التاسع والخمسون
فى الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز

اخبرنا شيخنا شيخ الإسلام ابو النجيب السهروردى رحمه الله، قال انا ابو منصور بن خيرون اجازة، قال انا ابو محمد الحسن ابن على بن محمد الجوهرى اجازة، قال انا ابو عمرو محمد بن عباس بن محمد قال انا ابو محمد يحيى بن صاعد، قال انا الحسين بن الحسن المروزى، قال انا عبد الله بن المبارك، قال انا الهيثم ابن حميل قال انا كثير بن سليم المدائنى، قال سمعت انس بن مالك رضى الله عنه قال، اتى النبى ﷺ رجل فقال يا رسول الله انى رجل ذرب اللسان واكثر ذلك على اهلى، فقال له رسول الله ﷺ "اين انت من الاستغفار، فإنى لاستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة".

وروى ابو هريرة رضى الله عنه فى حديث اخر "فإنى لأستغفر الله واتوب إليه فى كل يوم مائة مرة".

وروى ابو بردة قال، قال رسول الله ﷺ "إنه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم مائة مرة".

وقال الله تعالى، ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1]

وقال الله عز وجل، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾[2].

وقال الله تعالى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا ﴾[3]

---

(١) سورة النور، اية رقم، ٣١.
(٢) سورة البقرة، اية رقم، ٢٢٢.
(٣) سورة التحريم، اية رقم، ٨.

التوبة أصل كل مقام، وقوام كل مقام، ومفتاح كل حال، وهى أول المقامات، وهى بمثابة الأرض للبناء، فمن لا أرض له لا بناء له ، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له .

وإنى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهدى اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه، فصارت مع الإيمان أربعة، ثم رأيتها فى إفادة الولادة المعنوية الحقيقة بمثابة الطبائع الأربع التى جعلها الله تعالى بإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية .

ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلج ملكوت السموات، ويكاشف بالقدر والآيات، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات، فكلها من هذه الأربع ظهرت، وبها تهيأت وتأكدت.

فأحد الثلاث بعد الإيمان التوبة النصوح، والثانى الزهد فى الدنيا، والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقالبية من غير فتور وقصور

ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها، وهى قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، والاعتزال عن الناس، واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الأربع بها تستقر المقامات، وتستقيم الأحوال، وبها صار الأبدال أبدالا، بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه.

ونبين بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج فى صحة هذه، ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها :

أولها بعد الإيمان التوبة، وهى فى مبدأ صحتها تفتقر إلى أحوال، وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال، ولا بد فى ابتدائها من وجود زاجر،

ووجدان الزاجر حال، لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب، وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها.

قال رجل لبشر الحافي: مالي أراك مهموما ؟ قال: لأني ضال ومطلوب ضللت الطريق والمقصد، وأنا مطلوب به، ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت، ولكن سنة الغفلة أدركتني، وليس لي منها خلاص إلا أن أزجر فأنزجر .

وقال الأصمعي: رأيت أعرابيا بالبصرة يشتكي عينيه وهما يسيل منهما الماء، فقلت له: ألا تمسح عينيك؟ فقال: لا لأن الطبيب زجرني، ولا خير فيمن لا ينزجر .

فالزاجر في الباطن حال يهبها الله تعالى، ولا بد من وجودها للتائب. ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه .

قال بعضهم : من لزم مطالعة الطوارق انتبه .

وقال أبو يزيد: علامة الانتباه خمس : إذا ذكر نفسه افتقر، وإذا ذكر ذنبه استغفر، وإذا ذكر الدنيا اعتبر، وإذا ذكر الآخرة استبشر، وإذا ذكر المولى افتخر.

وقال بعضهم: الانتباه أوائل دلالات الخير، وإذا انتبه العبد من رقدةغفلته أداه ذلك الانتباه إلى التيقظ، فإذا تيقظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشد فيطلبه وإذا طلب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع إلى باب توبته، ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ .

قال فارس: أولى الأحوال التيقظ والاعتبار .

وقيل: التيقظ تبيان خط المسلك بعد مشاهدة سبيل النجاة .

وقيل: إذا صحت اليقظة كان صاحبها في أوائل طريق التوبة .

وقيل : اليقظة خردة من جهة المولى لقلوب الخائفين تذلهم على طلب التوبة فإذا تمت يقظته نقل بذلك إلى مقام التوبة .

فهذه أحوال ثلاثة تتقدم التوبة .

ثم التوبة فى استقامتها تحتاج إلى المحاسبة، ولا تستقيم التوبة بالا بالمحاسبة.

نقل عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنزها قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على الله .

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [1] .

فالمحاسبة بحفظ الأنفاس، وضبط الحواس، ورعاية الأوقات، وإيثار المهمات .

ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس فى اليوم والليلة رحمة منه لعلمه سبحانه بعبده، واستيلاء الغفلة عليه، كى لا يستعبده الهوى، وتسترقه الدنيا. فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية، ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى، ويسد مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية، ولا يدخل فى الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار، لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تنكت فى القلب نكتة سوداء، وتعقد عليه عقدة .

والمتفقد المحاسب يهيئ الباطن للصلاة بضبط الجوارح، ويحقق مقام المحاسبة، فيكون عند ذلك لصلاته نُور يشرق على أجزاء وقته إلى الصلاة الأخرى ، فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته، ووقته منورا معمورا بنور صلاته .

---

(١) سورة الحاقة ـ آية رقم : ١٨

وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات في قرطاس ويدع بين كل صلاتين بياضا، وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة او امر آخر خط خطأ ، وكلما تكلم أو تحرك فيما لا يعينه نقطة ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعينه، لتضيق المحاسبة مجاري الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، لوضع صدقه في حسن الاقتداء، وحرصه على تحقيق مقام العباد، وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة .

قال الجنيد، من حسنت رعايته دامت ولايته .

وسئل الواسطي، أى الأعمال افضل ؟ قال : مراعاة السر، والمحاسبة في الظاهر، والمراقبة في الباطن، ويكمل احدهما بالآخر، وبهما تستقيم التوبة.

والمراقبة والرعاية حالان شريفان، ويصيران مقامين شريفين يصحان بصحة مقام التوبة، وتستقيم التوبة على الكمال بهما، فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة .

أخبرنا ابو زرعة إجازة عن ابن خلف ابي بكر الشيرازي، قال سمعت ابا عبد الرحمن السلمي يقول، سمعت الحسن الفارسي يقول، سمعت الجريري يقول، أمرنا هذا مبني على فصلين، وهو ان تلزم نفسك المراقبة لله تعالى، ويكون العلم على ظاهرك قائما .

قال المرتعش، المراقبة مراعاة السر لملاحظة الحق في كل لحظة ولفظة .

قال الله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [١]

وهذا هو علم القيام، وبذلك يتم علم الحال .

---

(١) سورة الرعد ، آية رقم : ٣٣.

ومعرفة الزيادة والنقصان هو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله، وكل هذا ملازم لصحة التوبة، وصحة التوبة ملازم لها، لأن الخواطر مقدمات العزائم، والعزائم مقدمات الأعمال، لأن الخواطر تحقق إرادة القلب، والقلب أمير الجوارح، ولا تتحرك إلا بتحرك القلب بالإرادة، وبالمراقبة، حسم مواد الخواطر الرديئة، فصار من تمام المراقبة تمام التوبة، لأن من حصر الخواطر كفى مؤنة الجوارح، لأن بالمراقبة اصطلام عروق إرادة المكاره من القلب، وبالمحاسبة استدراك ما انفلت من المراقبة.

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن السلمي قال، سمعت أبا عثمان المغربي يقول: أفضل ما يلزم الإنسان في هذا الطريق المحاسبة والمراقبة، وسياسة العمل بالعلم، وإذا صحت التوبة صحت الإنابة.

قال إبراهيم بن أدهم: إذا صدق العبد في توبته صار منيبا. لأن الإنابة ثاني درجة التوبة.

وقال أبو سعيد القرشي، المنيب الراجع عن كل شئ يشغله عن الله إلى الله.

وقال بعضهم، الإنابة الرجوع منه إليه لا من شئ غيره، فمن رجع من غيره إليه ضيع أحد طرفي الإنابة، والمنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواه فيرجع إليه من رجوعه، ثم يرجع من رجوع رجوعه، فيبقى شبحا لا وصف له قائما بين يدي الحق، مستغرقا في عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال، والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة.

قال أبو سليمان، ما استحسنت من نفسي عملا فأحتسبه.

وقال أبو عبد الله السجزي: من استحسن شيئا من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانيا، ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق فيما له وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال. ورؤية

عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإنابة، وهو فى تحقيق مقام التوبة، ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة، ولا يصدق العبد فى المجاهدة إلا بوجود الصبر .

وروى فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول " المجاهد من جاهد نفسه " ولا يتم ذلك إلا بالصبر، وأفضل الصبر الصبر على الله بعكوف الهم عليه، وصدق المراقبة له بالقلب، وحسم مواد الخواطر .

والصبر ينقسم إلى فرض وفضل، فالفضل كالصبر على أداء المفترضات، والصبر عن المحرمات. ومن الصبر الذى هو فضل الصبر على الفقر، والصبر عند الصدمة الأولى، وكتما للمصائب والأوجاع، وترك الشكوى، والصبر على إخفاء الفقر، والصبر على كتم المنح والكرامات ، ورؤية العبر والآيات.

ووجوه الصبر فرضا وفضلا كثيرة، وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر، ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفى الخواطر، فإذا حقيقة الصبر كائنة فى التوبة كينونة المراقبة فى التوبة، والصبر من أعز مقامات الموقنين، وهو داخل فى حقيقة التوبة .

قال بعض العلماء، أى شئ أفضل من الصبر، وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسعين موضعا ، وما ذكر شيئا بهذا العدد .

وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر ومع شرفه .

ومن الصبر الصبر على النعمة، وهو أن لا يصرفها فى معصية الله تعالى، وهذا أيضا داخل فى صحة التوبة .

وكان سهل بن عبد الله يقول: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء .

وروى عن بعض الصحابة: بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر .

ومن الصبر رعاية الاقتصاد فى الرضى والغضب، والصبر عن محمدة الناس ، والصبر على الخمول والتواضع . والذى داخل فى الزهد وان لم يكن داخلا فى التوبة. وكل ما قلت من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد فى الزهد، وهو ثالث الأربعة التى ذكرنا .

وحقيقة الصبر تظهر من طمانينة النفس، وطمانينتها من تزكيتها، وتزكيتها بالتوبة. فالنفس إذا تزكت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية ، وقلة الصبر من وجود الشراسة للنفس وإبائها واستعصائها، والتوبة النصوح تلين النفس وتخرجها من طبيعتها وشراستها إلى اللين، لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفئ نيرانها المتأججة بمتابعة الهوى، وتبلغ بطمانينتها محل الرضى ومقامه، وتطمئن فى مجارى الأقدار .

قال ابو عبد الله النباجى، لله عباد يستحيون من الصبر، ويتلقفون مواضع القداره بالرضى تلقفا .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: اصبحت ومالى سرور إلا مواقع القضاء .

قال رسول الله ﷺ لابن عباس حين وصاه " اعمل لله باليقين فى الرضى، فإن لم يكن فإن فى الصبر خيرا كثيرا " .

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ " من خير ما اعطى الرجل الرضى بما قسم الله تعالى له " .

فالاخبار والآثار والحكايات فى فضيلة الرضى وشرفه اكثر من ان تحصى، والرضى ثمرة التوبة النصوح، وما تخلف عبد عن الرضى إلا بتخلفه عن التوبة النصوح، فإذا تجمع التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر، وحال

الرضى ومقام الرضى، والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين، وهما كائنان فى صلب التوبة النصوح، لأن خوفه حمله على التوبة. ولولا خوفه ما تاب، ولولا رجاؤه ما خاف ، فالرجاء والخوف يتلامان فى قلب المؤمن، ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبة .

دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى سياق الموت فقال " كيف تجدك؟ قال : أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى، فقال : ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف " .

وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[1] هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول قد هلكت لا ينفعنى عمل .

فالتائب خاف ، فتاب ورجا المغفرة، ولا يكون التائب تائبا إلا وهو راج خائف .

ثم إن التائب حيث قيد الجوارح عن المكاره، واستعان بنعم الله على طاعة الله ، فقد شكر النعم، لأن كل جارحة من الجوارح نعمة، وشكرها قيدها عن المعصية، واستعمالها فى الطاعة . وأى شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم .

فإذا جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها، فقد جمع مقام التوبة حال الزجر، وحال الانتباه، وحال التيقظ ومخالفة النفس، والتقوى، والمجاهدة، ورؤية عيوب الأفعال، والإنابة، والصبر، والرضى، والمحاسبة، والمراقبة، والرعاية، والشكر، والخوف والرجاء.

وإذا صحت التوبة النصوح وتزكت النفس، وانجلت مرآة القلب، وبان قبح الدنيا فيها، فيحصل الزهد، والزاهد يتحقق فيه التوكل، لأنه لا يزهد فى الموجود إلا لاعتماد على الموعود، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين

---

(١) سورة البقرة : آية رقم : ١٩٥.

التوكل، وكلما بقى على العقد بقية في تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه بزهده في الدنيا، وهو ثالث الأربعة.

اخبرنا شيخنا قال انا ابو منصور محمد بن عبد الملك بن حيرون، قال انا ابو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال انا ابو عمرو محمدُ بن العباس قال انا ابو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا الهيثم بن جميل قال انا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال، قدم رسول الله ﷺ من سفر فبدأ بفاطمة رضي الله عنها فرآها قد أحدثت في البيت سترا وزوائد في يديها، فلما راى ذلك رجع ولم يدخل، ثم جلس، فجعل ينكت في الأرض ويقول، مالي وللدنيا، مالي وللدنيا، فرأت فاطمة أنه إنما رجع من أجل ذلك الستر.

فأخذت الستر والزوائد وارسلت بهما مع بلال وقالت له اذهب إلى النبي ﷺ فقل له قد تصدقت به فضعه حيث شئت، فاتى بلال إلى النبي ﷺ فقال، قالت فاطمة قد تصدقت به فضعه حيث شئت، فقال النبي ﷺ بأبي وأمي قد فعلت بأبي وأمي قد فعلت اذهب فبعه.

وقيل في قوله تعالى، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1] قيل الزهد في الدنيا.

سئل امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه عن الزهد فقال، هو أن لا تبالي بمن أكل الدنيا مؤمن أو كافر.

وسئل الشبلي عن الزهد فقال، ويلكم أي مقدار لجناح بعوضة أن يزهد فيها.

وقال ابو بكر الواسطي، إلى متى تصول بترك كنيف، وإلى متى تصول بإعراضك عما لا تزن عند الله جناح بعوضة.

---

(١) سورة الكهف ـ الآية ٧

فإذا صح زهد العبد صح توكله أيضا، لأن صدق توكله مكنه من زهده في الموجود، فمن استقام في التوبة وزهد في الدنيا وحقق هذين المقامين، استوفى سائر المقامات وتكون فيها وتحقق بها.

وترتيب التوبة مع المراقبة وارتباط إحداهما بالأخرى أن يتوب العبد ثم يستقيم في التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا، ثم يرتق من تطهير الجوارح عن المعاصي إلى تطهير الجوارح عما لا يعني، فلا يسمح بكلمة فضول ولا حركة فضول، ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن، وتستولي المراقبة على الباطن، وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه ثم خواطر الفضول، فإذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح وتستقيم توبته.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ..﴾[١] أمره الله تعالى بالاستقامة في التوبة أمرا له ولأتباعه وأمته.

وقيل: لا يكون المريد مريدا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال عشرين سنة. ولا يلزم من هذا وجود العصمة، ولكن الصادق التائب في النادر إذا ابتلي بذنب يمحي أثر الذنب من باطنه في الطف ساعة لوجود الندم في باطنه على ذلك، والندم توبة، فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا.

فإذا تاب توبة نصوحا ثم زهد في الدنيا حتى لا يهتم في غذائه لعشائه، ولا في عشائه لغذائه، ولا يرى الادخار، ولا يكون له تعلق هم بغد، فقد جمع في هذا الزهد والفقر، والزهد أفضل من الفقر، وهو فقر وزيادة، لأن الفقير عادم للشيء اضطرارا، والزاهد تارك للشيء اختيارا، وزهده يحقق توكله، وتوكله يحقق رضاه، ورضاه يحقق الصبر، وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة، وحبس النفس لله يحقق خوفه، وخوفه يحقق رجاءه، ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات.

---

(١) سورة هود، الآية ١١٢

والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع صحة الإيمان وعقوده وشروطه يعوز هذه الثلاثة رابع به تمامها، وهو دوام العمل، لأن الأحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة، وتيسير بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام العمل.

وكثير من الزهاد المتحققين بالزهد المستقيمين في التوبة تخلفوا عن كثير من سني الأحوال لتخلفهم عن هذا الرابع، ولا يراد الزهد في الدنيا إلا لكمال الفراغ المستعان به على إدامة العمل لله تعالى، والعمل لله أن يكون العبد لا يزال ذاكرا أو تاليا أو مصليا أو مراقبا لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعي، أو مهم لا بد منه طبيعي، فإذا استولى العمل على القلب مع وجود الشغل الذي أداه إليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل، فإذا كان مع الزهد والتوقي متمسكا بدوام العمل فقد أكمل الفضل وما آلى جهدا في العبودية.

قال أبو بكر الوراق: من خرج من قالب العبودية صنع به ما يصنع بالآبق.

وسئل سهل بن عبد الله التستري: أي منزلة إذا قام العبد بها مقام العبودية؟ قال: إذا ترك التدبير والاختيار.

فإذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتي، ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار، ثم يصل إلى أن يملك الاختيار، فيكون اختيار الله تعالى لزوال هواه، ووفور علمه، وانقطاع مادة الجهل عن باطنه.

قال يحيي بن معاذ الرازي: ما دام العبد يتعرف يقال له لا تختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف، فإذا عرف وصار عارفا يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختر، لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت، وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار، فإنك بنا في الاختيار وفي ترك الاختيار.

والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالي والحال العزيز الذي هو الغاية والنهاية وهو ان يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار إلا بإحكامه هذه الأربعة التي ذكرناها، لأن ترك التدبير فناء، وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده، ورده إلى الاختيار تصرف بالحق، وهو مقام البقاء، وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق، وهذا العبد ما بقي عليه من الإعوجاج ذرة، واستقام ظاهره وباطنه في العبودية، وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه، وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدي الله عز وجل، متمسكة بالاستكانة والافتقار، متحققة بقول رسول الله ﷺ : «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأهلك، ولا إلى أحد من خلقك فأضيع، اكلأني كلاءة الوليد ولا تخل عني».

الباب الستون
في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب

قولهم في التوبة:

قال رويم: معنى التوبة أن يتوب من التوبة.

قيل معناه قول رابعة: استغفر الله العظيم من قلة صدقي في قولي: استغفر الله.

وسئل الحسن المغازلي عن التوبة؟ فقال: تسألني عن توبة الإنابة أو عن توبة الاستجابة؟ فقال السائل: ما توبة الإنابة؟ فقال: أن تخاف من الله عز وجل من أجل قدرته عليك.

قال: فما توبة الاستجابة؟ قال: أن تستحي من الله لقربه منك.

وهذا الذي ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب في صلاته من كل خاطر يلم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه. وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

قال ذو النون: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم.

سئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه، ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجدُ حلاوته، فقال: الحلاوة طبع البشرية ولا بد من الطبع، وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه، ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه، ويدعو الله أن ينسيه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته.

قال: وإن غفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة في قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن فإنه لا يضره.

وهذا الذى قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته.

والعارف القوى الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه، ويسهل عليه ذلك.

وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف. ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين فأى حلاوة تبقى في قلبه، وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله.

وسئل السوسي عن التوبة فقال: التوبة من كل شيء ذمة العلم إلى ما مدحه العلم.

وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم، لأنه لا بقاء للجهل مع العلم، كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس. وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام.

وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأعم أوصافها.

وقال أبو الحسن النوري: التوبة أن تتوب عن كل شيء سوى الله تعالى.

قولهم في الورع:

قال رسول الله ﷺ «ملاك دينكم الورع».

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف عن أبي عبد الرحمن السلمي إجازة قال أنا أبو سعيد الخلاف قال حدثني ابن قتيبه قال حدثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن حبيب بن

عبيد عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ توضأ على نهر، فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله في النهر وقال يبلغه الله عز وجل قوما ينفعهم.

قال عمر بن الخطاب: لا ينبغي لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا.

قال معروف الكرخي: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم

نقل عن الحارث بن أسد المحاسبي أنه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق.

سئل الشبلي عن الورع، فقال: الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك من الله طرفة عين.

وقال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة طرف من الرضى.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل.

سئل الخواص عن الورع، فقال: أن لا يتكلم العبد إلا بالحق، غضب أو رضي، وأن يكون اهتمامه بما يرضي الله تعالى.

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلمي قال: سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينوري يقول سمعت ابن الجلاء يقول: أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاه بركوته ورشائه، ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئا.

وقال الخواص: الورع دليل الخوف، والخوف دليل المعرفة، والمعرفة دليل القربة

قولهم في الزهد:

قال الجنيد: الزهد خلو الأيدي من الأملاك، والقلوب من التتبع

وسئل الشبلي عن الزهد فقال: لا زهد في الحقيقة، لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد، أو يزهد فيما هوله فكيف زهد فيه وهو معه وعنده، فليس إلا ظلف النفس وبذل مواساة. يشير إلى الأقسام التي سبقت بها الأقلام، وهذا لو اطرد هدم قاعدة الاجتهاد والكسب، ولكن مقصود الشبلي أن يقلل الزهد في عين المتقد بالزهد لئلا يغتر به.

قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهدا في الدنيا ومنطقا فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة».

وقد سمى الله عز وجل الزاهدين علماء في قصة قارون، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ..﴾[1] قيل: هم الزاهدون.

وقال سهل بن عبد الله: للعقل ألف اسم، ولكل اسم منه ألف اسم، وأول كل اسم منه ترك الدنيا.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا..﴾[2] قيل عن الدنيا.

وفي الخبر: العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم.

---

(١) سورة القصص، الآية ٨٠.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٧٣

وجاء في الأثر: لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا لا إله إلا الله، قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين.

وقال سهل: أعمال البر كلها في موازين الزهاد، وثواب زهدهم زيادة لهم.

وقيل: من سمي باسم الزهد في الدنيا فقد سمي بألف اسم محمود، ومن سمي باسم الرغبة في الدنيا فقد سمي بألف اسم مذموم.

قال السري: الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا، ويجمع هذه الحظوظ المالية والجاهية، وحب المنزلة عند الناس، وحب المحمدة والثناء.

وسئل الشبلي عن الزهد فقال: الزهد غفلة لأن الدنيا لا شيء، والزهد في لا شيء غفلة.

وقال بعضهم: لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا في زهدهم في الدنيا لهوانها عندهم.

وعندي أن الزهد في الزهد غير هذه وإنما الزهد في الزهد بالخروج من الاختيار في الزهد، لأن الزاهد اختار الزهد وإرادته وإرادته تستند إلى علمه، وعلمه قاصر، فإذا أقيم في مقام ترك الإرادة وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده، فيترك الدنيا بمراد الحق لا بمراد نفسه فيكون زهده بالله تعالى حينئذ، أو يعلم أن مراد الله منه التلبس بشيء من الدنيا، فما يدخل بالله في شيء من الدنيا لا ينقص عليه زهده، فيكون دخوله في الشيء من الدنيا بالله وبإذن منه زهداً في الزهد.

والزاهد في الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها، إن تركها تركها بالله، وإن أخذها أخذها بالله، وهذا هو الزهد في الزهد. وقد رأينا من العارفين من أقيم في هذا المقام.

وفوق هذا مقام آخر في الزهد، وهو لمن يرد الحق إليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه في مقام آخر في الزهد، فيزهد زهدا ثالثا، ويترك الدنيا بعد أن مكن من ناصيتها، وأعيدت عليه موهوبة، ويكون تركه الدنيا في هذا المقام باختياره، واختياره من اختيار الحق، فقد يختار تركها حبنا تأسيا بالأنبياء والصالحين، ويرى أن أخذها في مقام الزهد رفق أدخل عليه لموضع ضعفه عن درك شأو الأقوياء من الأنبياء والصديقين، فيترك الرفق من الحق بالحق للحق، وقد يتناوله باختياره رفقا بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم.

وهذا مقام التصرف لأقوياء العارفين، زهدوا ثالثا بالله كما رغبوا دنيا بالله، كما زهدوا أولا لله.

قولهم في الصبر:

قال سهل: الصبر انتظار الفرج من الله، وهو أفضل الخدمة وأعلاها

وقال بعضهم: الصبر أن تصبر في الصبر، أي لا تطالع فيه الفرج.

قال الله تعالى: ﴿... وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.[1]

وقيل: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر، فالصبر عرك النفس، وبالعرك تلين، والصبر جار في الصابر مجرى الأنفاس، لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منهي ومكروه ومذموم ظاهرا وباطنا، والعلم يدل والصبر يقبل، ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر، ومن كان العلم

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٧

سائسه في الظاهر والباطن لا يتم ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه

والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر، ومصدرهما الغريزة العقلية، وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما، وبالصبر يتحامل على النفس، وبالعلم يترقى الروح، وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس، ليستقر كل واحد منهما في مستقره، وفي ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال، وبانفصال أحدهما عن الآخر أعني العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر، أعني النفس والروح، وبيان ذلك يدق.

وناهيك بشرف الصبر قوله تعالى: ﴿ ...إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1] كل أجير أجره بحسابه، وأجر الصابرين بغير حساب.

وقال الله تعالى لنبيه ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ... ﴾[2] أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به.

قيل: وقف رجل على الشبلي، فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله، فقال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، فغضب الشبلي وقال: ويحك أي شيء هو؟ فقال الرجل: الصبر عن الله. قال: فصرخ الشبلي صرخة كاد أن تتلف روحه.

وعندي في معنى الصبر عن الله وجه، ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه، وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخص مقدمات المشاهدة، يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا، وتنطبق بصيرته خجلا وذوبانا، ويتغيب في مفاوز استكانته وتخفيه لإحساسه بعظيم أمر التجلي، وهذا من أشد الصبر، لأنه يود استدامة هذه الحال، تأدية لحق الجلال.

---

(١) سورة الزمر، الآية ١٠.
(٢) سورة النحل، الآية ١٢٧

والروح تود أن تكتحل بصيرتها باستلماع نور الجمال. وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر، فالروح في هذا الصبر منازعة، فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك.

وقال أبو الحسن بن سالم: هم ثلاثة، متصبر، وصابر، وصبار. فالمتصبر من صبر في الله فمرة يصبر، ومرة يجزع. والصابر من يصبر في الله ولله ولا يجزع، ولكن يتوقع منه الشكوى، وقد يمكن منه الجزع. وأما الصبار فذاك الذي صبره في الله ولله وبالله، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة لا من جهة الرسم والخلقة، وإشارته في هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة.

وكان الشبلي يتمثل بهذين البيتين:

إن صوت المحب من ألم الشو ق وخوف الفراق يورث ضرا

صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب للصبر صبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله: أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر، وجعل الحظ الأعلى للرسول ﷺ، حيث جعل صبره بالله لا بنفسه، فقال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[1]

وسئل السرى عن الصبر فتكلم فيه، فدب على رجله عقرب فجعل يضربه بإبرته، فقيل له: لم لا تدفعه؟ قال: استحي من الله تعالى أن أتكلم في حال ثم أخالف ما أتكلم فيه.

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن أبي عبد الرحمن قال: سمعت محمد بن خالد يقول: سمعت الرغاني يقول: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالإيمان، وأكرم الإيمان

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢٧

بالعقل، واكرم العقل بالصبر، فالإيمان زين المؤمن، والعقل زين الإيمان، والصبر زين العقل.

وانشد عن ابراهيم الخواص رحمه الله:

صبرت على بعض الأذى خوف كله ودافعت عن نفسي لنفسي فعزت

وجرعتها المكروه حتى تدربت ولو لم اجرعها إذا لاشمأزت

الا رب ذل ساق للنفس عزة ويارب نفس بالتذلل عزت

إذا ما مددت الكف التمس الغنى إلى غير من قال اسألوني فشلت

ساصبر جهدي إن في الصبر عزة وارضى بدنياي وإن هي قلت

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما انعم الله على عبد من نعمة ثم انتزعها فعاضه مما انتزع منه الصبر إلا كان ما عاضه خيرا مما انتزعه منه. وانشد لسمنون:

تجرعت من حاليه نعمى وابؤسا زمانا إذا أجرى عز إليه احتسى

فكم غمرة قد جرعتني كؤسها فجرعتها من بحر صبر اكؤسا

تدرعت صبري والتحفت صروفه وقلت لنفسي الصبر أو فاهلكي أسى

خطوب لو ان الشم زاحمن خطبها لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

قولهم في الفقر:

قال ابن الجلاء: الفقر ان لا يكون لك فإذا كان لك لا يكون لك حتى تؤثر.

وقال الكتاني: إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر.

وقال النوري: نعت الفقراء السكون عند العدم، والبذل عند الوجود.

وقال غيره: والاضطراب عند الوجود.

وقال الدراج: فتشت ككنف استاذي اريد مكحلة، فوجدت فيها قطعة فتحيرت، فلما جاء قلت له: إني وجدت في ككنفك هذه القطعة، قال: قد رايتها ردها، ثم قال: خذها واشتر بها شيئا، فقلت: ما كان امر هذه القطعة بحق معبودك؟ فقال: ما رزقني الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها، فاردت ان اوصى أن تشد في ككنفي فاردها إلى الله.

وقال إبراهيم الخواص: الفقر رداء الشرف، ولباس المرسلين، وجلباب الصالحين.

وسئل سهل بن عبد الله عن الفقير الصادق، فقال: لا يسأل، ولا يرد، ولا يحبس.

وقال ابو علي الروذباري رحمه الله: سألني الزقاق فقال: يا ابا علي لم ترك الفقراء أخذ البلغة في وقت الحاجة؟ قال: قلت: لأنهم مستغنون بالمعطي عن العطاء، قال: نعم ولكن لي شيء آخر، فقلت: هات افدني ما وقع لك، قال: لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود، إذ الله فاقتهم ولا تضرهم الفاقة، إذ الله وجودهم.

قال بعضهم: الفقر وقوف الحاجة على القلب، ومحوها عما سوى الرب.

وقال السوسي: الفقير الذي لا تغنيه النعم، ولا تفقره المحن.

وقال يحيى بن معاذ: حقيقة الفقر ان لا يستغني إلا بالله، ورسمه عدم الأسباب كلها.

وقال ابو بكر الطوسي: بقيت مدة اسأل من معنى اختيار اصحابنا لهذا الفقر على سائر الاشياء، فلم يجبني احد بجواب يقنعني، حتى سألت نصر ابن الحمامي فقال له: لأنه اول منزل من منازل التوحيد، فقنعت بذلك.

وسئل ابن الجلاء عن الفقر فسكت حتى صلى، ثم ذهب ورجع ثم قال إني لم اسكت إلا درهم كان عندي فذهب فأخرجته واستحيت من الله تعالى ان أتكلم في الفقر وعندي ذلك ثم جلس وتكلم.

قال ابو بكر بن طاهر: من حكم الفقير ان لا يكون له رغبة، فإن كان ولا بد لا تجاوز رغبته كفايته.

قال فارس: قلت لبعض الفقراء مرة وعليه أثر الجوع والضر: لم لا تسأل فيطعموك؟ فقال: إني أخاف ان أسألهم فيمنعوني، فلا يفلحون. وانشد لبعضهم:

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه ... فقلت خلعة ساق عبده الجرعا

فقر وصبر هما ثوبان تحتهما ... قلب يرى ربه الأعياد والجمعا

أحرى الملابس ان تلقى الحبيب به ... يوم التزاور في الثوب الذي خلعا

الدهر لي ما تم ان غبت يا أملي ... والعيد ما دمت لي مرأى ومستمعا

قولهم في الشكر:

قال بعضهم: الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: لست بشاكر ما دمت تشكر، وغاية الشكر التحير، وذلك ان الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها.

وفي أخبار داود عليه السلام: إلهي كيف أشكرك وأنا لا استطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك فأوحى الله إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتني.

ومعنى الشكر في اللغة هو الكشف والإظهار، يقال شكر وكشر إذا كشف عن ثغره وأظهره.

فنشر النعم وذكرها وتعدادها باللسان من الشكر، وباطن الشكر أن تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على المعصية، فهو شكر النعمة.

وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم:

أوليتنــي نعمــا أبــوح بشـــكرها ... وكفيتنــي كــل الأمــور بأســرها
فلأشــكرنك مــا حييــت وإن أمــت ... فلتشــكرنك أعظمــي في قبرهــا

قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء».

وقال رسول الله ﷺ: «من ابتلى فصبر، وأعطى فشكر، وظلم فغفر، وظلم فاستغفر، قيل فما باله؟ قال: أولئك لهم الأمن وهم مهتدون».

قال الجنيد: فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان.

وفي الحديث: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿...وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1]

قال: الظاهرة العوافي والغنى، والباطنة البلاوى والفقر، فإن هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء.

وحقيقة الشكر أن يرى جميع المقضي له به نعما غير ما يضره في دينه، لأن الله تعالى لا يقضي للعبد المؤمن شيئا إلا وهو نعمة في حقه، فإما عاجلة يعرفها ويفهمها، وإما آجلة بما يقضي له من المكاره، فإما أن تكون درجة له أو تمحيصا أو تكفيرا. فإذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه، وأعلم بمصالحه، وأن كل ما منه نعم فقد شكر.

---

(١) سورة لقمان، الآية ٢٠.

قولهم في الخوف :

قال رسول الله ﷺ: «رأس الحكمة مخافة الله».

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كان داود النبي عليه السلام يعوده الناس يظنون أن به مرضا وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه».

قال أبو عمر الدمشقي: الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وقال بعضهم: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه، ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه.

وقيل: الخائف الذي لا يخاف غير الله. قيل: أي لا يخاف لنفسه إنما يخاف إجلا له، والخوف للنفس خوف العقوبة.

وقال سهل: الخوف ذكر والرجاء انثى، أي منهما تتولد حقائق الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ...﴾ [1]

قيل: هذه الآية قطب القرآن، لأن مدار الأمر كله على هذا.

وقيل إن الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين، وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان، فقال تعالى: ﴿...هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [2]، وقال: ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ...﴾ [3]

---

(١) سورة النساء الآية ١٣١

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٤.

(٣) سورة فاطر الآية ٢٨

وقال: ﴿... رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[1]

وقال سهل: كمال الإيمان بالعلم، وكمال العلم بالخوف.

وقال أيضا: العلم كسب الإيمان، والخوف كسب المعرفة.

وقال ذو النون: لا يسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه.

وقال فضيل بن عياض: إذا قيل لك تخاف الله فاسكت فإنك إن قلت لا كفرت، وإن قلت نعم كذبت، فليس وصفك وصف من يخاف.

قولهم في الرجاء:

قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ثم يقول: وعزتي وجلالي لا أجعل من آمن بي في ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن بي».

قيل: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال من يلي حساب الخلق؟ فقال: الله تبارك وتعالى. قال: هو بنفسه؟ قال: نعم. فتبسم الأعرابي. فقال النبي ﷺ مم ضحكت يا أعرابي؟ فقال: إن الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح».

وقال شاه الكرماني: علامة الرجاء حسن الطاعة.

وقيل: الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال.

وقيل: قرب القلب من ملاطفة الرب.

قال أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه.

قال أبو عبد الله بن خفيف: الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو.

---

(١) سورة البينة، الآية ٨.

قال مطرف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

والخوف والرجاء للإيمان كالجناحين، ولا يكون خائفا إلا وهو راج، ولا راجيا إلا وهو خائف، لأن موجب الخوف الإيمان، وبالإيمان رجاء، وموجب الرجاء الإيمان، ومن الإيمان خوف، ولهذا المعنى روى عن لقمان انه قال لابنه: خف الله تعالى خوفا لا تأمن فيه مكره، وارجه أشد من خوفك.

قال: فكيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد؟ قال: أما علمت أن المؤمن لذو قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر وهذا لأنهما من حكم الإيمان.

قولهم في التوكل:

قال السري: التوكل الانخلاع من الحول والقوة.

وقال الجنيد: التوكل أن تكون لله كما لم تكن، فيكون الله لك كما لم يزل.

وقال سهل: كل المقامات لها وجه وقفا غير التوكل فإنه وجه بلا قفا.

قال بعضهم: يريد توكل العناية لا توكل الكفاية.

والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال: ﴿...وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]

وقال: ﴿...وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2]

وقال لنبيه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ...﴾[3]

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢٣.
(٢) سورة التوبة، الآية ٥١.
(٣) سورة الفرقان، الآية ٥٨.

وقال ذو النون: التوكل ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة.

وقال أبو بكر الدقاق: التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد.

وقال أبو بكر الواسطي: أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار، وأن لا يفارق التوكل في أمانيه، ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة في عمره.

وقال بعضهم: من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه، وينس الدنيا وأهلها، لأن حقيقة التوكل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله.

وقال سهل: أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد، ولا يكون له حركة ولا تدبير.

وقال حمدون القصار: التوكل هو الاعتصام بالله.

وقال سهل أيضا: العلم كله باب من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل.

وقال: التقوى واليقين مثل كفتي الميزان، والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان.

ويقع لي أن التوكل على قدر العلم بالوكيل، فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلا، ومن كمل توكله غلب في رؤية الوكيل عن رؤية توكله.

ثم إن قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل في القسمة، وإن الأقسام نصبت بإزاء المقسوم لهم عدلا وموازنة، فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس، وكل ما أحس بشيء يقدح في توكله يراه من منبع النفس،

فنقصان التوكل يظهر بظهور النفس، وكماله يثبت بغيبة النفس، وليس للأقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم، وإنما شغلهم في تغييب النفس بتقوية مواد القلب، فإذا غابت النفس انحسمت مادة الجهل، فصح التوكل، والعبد غير ناظر إليه، وكلما تحرك من النفس بقية يرد على ضميرهم سر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ ﴾[1] فيغلب وجود الحق الأعيان والأكوان، ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه، ويصير التوكل حينئذ اضطرارا، ولا يقدح في توكل مثل هذا المتوكل ما يقدح في توكل الضعفاء في التوكل من وجود الأسباب والوسائط، لأنه يرى الأسباب مواتا لا حياة لها إلا بالتوكل، وهذا توكل خواص خواص أهل المعرفة.

قولهم في الرضى:

قال الحارث: الرضى سكون القلب تحت جريان الحكم.

وقال ذو النون: الرضى سرور القلب بمر القضاء.

وقال سفيان عند رابعة: اللهم ارض عنا، فقالت له: أما تستحي أن تطلب رضى من لست عنه براض؟ فسألها بعض الحاضرين متى يكون العبد راضيا عن الله تعالى؟ فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة

وقال سهل: إذا اتصل الرضى بالرضوان اتصلت بالطمانينة، فطوبى لهم وحسن مآب.

وقال رسول الله ﷺ: ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا)).

وقال عليه السلام: ((إن الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)).

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٢.

وقال الجنيد: الرضى هو صحة العلم الواصل إلى القلوب.

فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداة إلى الرضى، وليس الرضى والمحبة كالخوف والرجاء، فإنهما حالان لا يفارقان العبد في الدنيا والآخرة، لأنه في الجنة لا يستغنى عن الرضى والمحبة.

وقال ابن عطاء: الرضى سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، أنه اختار له الأفضل فيرضى له، وهو ترك السخط.

وقال أبو ترب: ليس ينال الرضى من الله من للدنيا في قلبه مقدار.

وقال السري: خمس من أخلاق المقربين: الرضى عن الله فيما تحب النفس وتكره، والحب له بالتحبب إليه، والحياء من الله، والأنس به، والوحشة مما سواه.

وقال الفضيل: الراضي لا يتمنى فوق منزلته شيئا.

وقال ابن شمعون: الرضى بالحق، والرضى له، والرضى عنه، فالرضى به مدبرا ومختارا، والرضى عنه قاسما ومعطيا، والرضى له إلها وربا.

سئل أبو سعيد: هل يجوز أن يكون العبد راضيا ساخطا؟ قال: نعم يجوز أن يكون راضيا عن ربه، ساخطا على نفسه وعلى كل قاطع يقطعه عن الله.

وقيل للحسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنهما: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إلى من الغنى، والسقم أحب إلى من الصحة، قال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختار الله له.

وقال على رضى الله عنه: من جلس على بساط الرضى، لم ينله من الله مكروه أبدا، ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال.

وقال يحيى: يرجع الأمر كله إلى هذين الأصلين: فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى بما عمل، وتخلص فيما تعمل.

وقال بعضهم: الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا، ولم يتأسف عليها.

وقيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى؟ قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به، بقولك إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت.

قال الشبلي رحمه الله بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله. قال الجنيد: قولك ذا ضيق صدر. فقال: صدقت. قال: فضيق الصدر ترك الرضى بالقضاء.

وهذا إنما قاله الجنيد رحمه الله تنبيها منه على أصل الرضى، وذلك أن الرضى يحصل لإنشراح القلب وانفساحه، وانشراح القلب من نور اليقين. قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ... ﴾[1]

فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر، وانفتحت عين البصيرة، وعاين حسن تدبير الله تعالى، فينتزع السخط والتضجر، لأن اتساع القدرة يتضمن حلاوة الحب، وفعل المحبوب بموقع الرضى عن المحب الصادق، لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره، فيفنى في لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه، كما قيل: وكل ما يفعل المحبوب محبوب.

---

(١) سورة الزمر، الآية ٢٢.

الباب الحادي والستون
في ذكر الأحوال وشرحها

حدثنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله قال، أنا أبو طالب الزيني قال، أخبرتنا كريمة المروزية، قالت أنا أبو الهيثم الكشميهني قال أنا أبو عبد الله الفربري، قال أنا أبو عبد الله البخاري، قال حدثنا سليمان بن حرب، قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال، «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار».

وأخبرنا شيخنا أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل، قال، أنا أبو بكر بن خلف، قال أنا أبو عبد الرحمن، قال أنا أبو عمر بن حيوة، قال حدثني أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه، قال حدثني بشر بن محمد، قال حدثنا عبد الملك بن وهب عن إبراهيم بن عبلة عن العرباض بن سارية قال، كان رسول الله ﷺ يدعو، «اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وسمعي وبصري وأهلي ومالي ومن الماء البارد».

فكان رسول الله ﷺ طلب خالص الحب، وخالص الحب هو أن يحب الله تعالى بكليته، وذلك أن العبد قد يكون في حال قائما بشروط حاله بحكم العلم، والجبلة تتقاضاه بضد العلم، مثل أن يكون راضيا، والجبلة قد تكره، ويكون النظر إلى الانقياد لا إلى الاستعصاء بالجبلة، فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان، ويحب الأهل والولد بحكم الطبع

وللمحبة وجوه وبواعث للحبة في الإنسان متنوعة.

فمنها محبة الروح، ومحبة القلب، ومحبة النفس، ومحبة العقل.

فقول رسول الله ﷺ وقد ذكر الأهل والمال والماء البارد، معناه استئصال عروق المحبة بمحبة الله تعالى، حتى يكون حب الله تعالى غالبا، فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكليته، حتى يكون حب الله تعالى أغلب في الطبع أيضا والجبلة من حب الماء البارد، وهنا يكون حبا صافيا لخواص تنغمر به وبنوره نار الطبع والجبلة، وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بعكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته، فالهاء راجعه إلى الذات دون النعوت والصفات.

وقال بعضهم: المحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة، فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة.

فإذا الحب حبان: حب عام وحب خاص، فالحب العام مفسر بامتثال الأمر، وربما كان حبا من معدن العلم بالآلاء والنعماء، وهذا الحب مخرجه من الصفات. وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات، فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد في مدخل.

وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح، وهو الحب الذي فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه، وهذا الحب يكون من الأحوال، لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل، وهو مفهوم في قول النبي ﷺ: «أحب إلي من الماء البارد» لأنه كلام عن وجدان روح تلتذ بحب الذات.

وهذا الحب روح، والحب الذي يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإيمان قالب هذا الروح. ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾[1]

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.

لأن المحب يذل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه، وينشد:

لعين تفدى ألف عين وتتقي ويكرم ألف للحبيب المكرم

وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها، وهو في الأحوال كالتوبة في المقامات، فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات، من الزهد والرضى والتوكل على ما شرحناه أولاً، ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك.

والتوبة لهذا الحب بمثابة الجسمان لأنها مشتملة على الحب العام الذي هو لهذا الحب كالجسد، ومن أخذ في طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يكمل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذي تشتمل عليه التوبة النصوح، وعند ذلك لا يتقلب في أطوار المقامات، لأن التقلب في أطوار المقامات والترقي من شيء منها إلى شيء طريق المحبين، ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾[1]، ومن قوله تعالى: ﴿...وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2] أثبت كون الإنابة سبباً للهداية في حق المحب، وفي حق المحبوب صرح بالاجتباء غير معلل بالكسب، فقال تعالى: ﴿...ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ...﴾[3].

فمن أخذ في طريق المحبوبين، يطوى بساط أطوار المقامات، ويندرج فيه صفوها وخالصها بأتم وصفها، والمقامات لا تقيده ولا تحبسه بترقيه منها وانتزاعه صفوها وخالصها، لأنه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها، والمقامات كلها مصفية للنعوت والصفات النفسانية، فالزهد يصفيه عن الرغبة، والتوكل يصفيه عن قلة

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.
(٢) سورة الشورى، الآية ١٣.
(٣) سورة الشورى، الآية ١٣.

الاعتماد المتولد عن جهل النفس، والرضى يصفيه عن ضربان، عرق المنازعة، والمنازعة لبقاء جمود النفس ما أشرق عليها شموس المحبة الخاصة، فبقي ظلمتها وجمودها.

فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جمودها، فماذا ينزع الزهد منه من الرغبة، ورغبة الحب أحرقت رغبته، وماذا يصفي منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته، وماذا يسكن فيه الرضى من عروق المنازعة، والمنازعة ممن لم تسلم كليته.

قال الروذباري: ما لم تخرج من كليتك لا تدخل في حد المحبة.

وقال أبو يزيد: من قتلته محبته فديته رؤيته، ومن قتله عشقه فديته منادمته.

أخبرنا بذلك أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أحمد ابن علي بن جعفر يقول سمعت الحسين بن علوية يقول: قال أبو زيد ذلك، فإذا التقلب في أطوار المقامات لعوام المحبين وطي بساط الأطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون، تخلف عن هممهم المقامات، وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات، وهي مواطن من يتعثر في أذيال بقاياه.

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص: إلى ماذا أدى بك التصوف؟ قال: إلى التوكل. فقال: تسعى في عمران باطنك أين أنت من الفناء في التوكل برؤية الوكيل.

فالنفس إذا تحركت بصفتها متلفتة من دائرة الزهد يردها الزاهد إلى الدائرة بزهده، فالمتوكل إذا تحركت نفسه يردها بتوكله، والراضي يردها برضاه، وهذه الحركة من النفس بقايا وجودية تفتقر إلى سياسة العلم، وفي ذلك تتسم روح القرب من بعيد، وهو أداء حق العبودية مبلغ العلم، وبحسبه الاجتهاد والكسب.

ومن أخذ في طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتستر بأنوار فضل الحق، ومن اكتسى ملابس نور القرب بروح دائمة العكوف محمية عن الطوارق والصروف، لا يزعجه طلب ولا يوحشه سلبه فالزهد والتوكل والرضى كائن فيه وهو غير كائن فيها، على معنى أنه كيف تقلب كان زاهدا وإن رغبه لأنه بالحق لا بنفسه، وإن رؤي منه الالتفات إلى الأسباب فهو متوكل، وإن وجد منه الكراهة فهو راض، لأن كراهته لنفسه، ونفسه للحق، وكراهته للحق لعهد إليه نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة محمولة ملطوف بها، صار عين الداء دواءه، وصار الإعلال شفاءه، وناب طلب الله له مناب كل طالب من زهد وتوكل ورضى، أو صار مطلوبه من الله ينوب عن كل مطلوب من زهد وتوكل ورضى.

قالت رابعة: محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه.

وقال أبو عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببت كلك، ولا يبقى لك منك شيء.

وقال أبو الحسين الوراق: السرور بالله من شدة المحبة له، والمحبة في القلب نار تحرق كل دنس.

وقال يحيى بن معاذ: صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين، واعجبا كيف يصبر الإنسان عن حبيبه.

وقال بعضهم: من ادعى محبة الله من غير تورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى محبة الجنة من غير إنفاق ملكه فهو كذاب، ومن ادعى حب رسول الله ﷺ من غير حب الفقراء فهو كذاب. وكانت رابعة تنشد:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وإذا كان الحب للأحوال كالتوبة للمقامات، فمن ادعى حالا يعتبر حبه، ومن ادعى محبة تعتبر توبته، فإن التوبة قالب روح الحب، وهذا الروح قيامه بهذا القلب، والأحوال أعراض قوامها بجوهر الروح.

وقال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة، لأن النبيَّ ﷺ قال: «المرء مع من أحب» فهو مع الله تعالى.

وقال أبو يعقوب السوسي: لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب، بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هذا بالمحبة، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة.

سئل الجنيد عن المحبة قال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب.

قيل: هذا على معنى قوله تعالى: ﴿فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا﴾ وذلك أن المحبة إذا صفت وكملت لا تزال تجذب بوصفها إلى محبوبها، فإذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت، والرابطة متاصلة متأكدة، وكمال وصف المحبة أزال الموانع من المحب، وبكمال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفا على المحب المخلص من موانع قادحة في صدق الحب، ونظرا إلى قصوره بعد استنفاد جهده، فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب، فيقول عند ذلك:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا	نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته	وإذا أبصرته أبصرتنا

وهذا الذي عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله» لأنه بنزاهة النفس وكمال التزكية يستعد للمحبة، والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية، ولكن سنة الله جارية أن يزكي نفوس أحبائه بحسن توفيقه وتأييده، وإذا منح نزاهة للنفس وطهارتها ثم جذب روحه بجانب

المحبة خلع عليه خلع الصفات والأخلاق، ويكون ذلك عنده رتبة في الوصول، فتارة ينبعث الشوق من باطنه إلى ما وراء ذلك، لكون عطايا الله غير متناهية، وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذي يسكن نيران شوقه. وبباعث الشوق تستقر الصفات الموهوبة المحققة رتبة الوصول عند المحب، ولولا باعث الشوق رجع القهقرى، وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه.

ومن ظن من الوصول غير ما ذكرناه أو تخايل له غير هذا القدر فهو متعرض لمذهب النصارى في اللاهوت والناسوت.

وإشارات الشيوخ في الاستغراق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة، باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب، وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا، وامتت الوث الوجودي من بقاء صفات النفس، وإذا صحت المحبة ترتبت عليها الأحوال وتبعتها.

سئل الشبلي عن المحبة فقال: كأس لها وهج إذا استقر في الحواس وسكن في النفوس تلاشت.

وقيل: للمحبة ظاهر وباطن، ظاهرها اتباع رضى المحبوب، وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء، ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه.

فمن الأحوال السنية في المحبة الشوق، ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا، أن أمر الحق تعالى لا نهاية له، فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأتم.

حزني كحسنك لا لها أمد ... ينتهي إليه ولا لها أمد

ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس كسبه، وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين.

قال أحمد بن أبي الحواري: دخلت على أبي سليمان الداراني فرأيته يبكي، فقلت ما يبكيك رحمك الله ؟ قال: ويحك يا أحمد، إذا جن هذا الليل افترشت أهل المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وأشرف الجليل جل جلالة عليهم يقول: بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى مناجاتي، وإني مطلع عليهم في خلواتهم، أسمع أنينهم، وأرى بكاءهم، يا جبريل ناد فيهم ما هذا البكاء الذي أراه فيكم، هل أخبركم مخبر أن حبيبا يعذب أحبابه بالنار، كيف يجمل بي أن أعذب قوما إذا جن عليهم الليل تملقوا إلي، فبي حلفت إذا وردوا القيامة على أن أسفر لهم عن وجهي وأبيحهم رياض قدسي.

وهذه أحوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشوق، والشوق في المحبة كالزهد من التوبة، إذا استقرت التوبة ظهر الزهد، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿ ...وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[1]. قال شوقا واستهانة بمن وراءه ﴿ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي... ﴾[2] من شوقه إلى مكالمة الله، ورمى بالألواح لما فاته من وقته.

وقال أبو عثمان: الشوق ثمرة المحبة، فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه.

وقال أيضا في قوله تعالى: ﴿ ...فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ... ﴾[3] تقريبه للمشتاقين معناه إني أعلم أن شوقكم إلي غالب، وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه.

---

(١) سورة طه، الآية ٨٤.
(٢) سورة طه، الآية ٨٤.
(٣) سورة العنكبوت، الآية ٥.

وقال ذو النون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه، ورجاء للقائه والنظر إليه.

وعندي أن الشوق الكائن في المحبين إلى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت، والله تعالى يكاشف أهل وده بعطايا يجدونها علما، ويطلبونها ذوقا، فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقا وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت، وربما الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى، كما قال الجليل لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [1]

فمن كانت حياته لله منحه الكريم لذة المناجاة والمحبة، فتمتلئ عينه من النقد، ثم يكاشفه من المنح والعطايا في الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق إلى ما بعد الموت.

وأنكر بعضهم مقام الشوق وقال إنما يكون الشوق لغائب، ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق؟

ولهذا سئل الأنطاكي عن الشوق فقال: إنما يشتاق إلى الغائب وما غبت عنه منذ وجدته.

وإنكار الشوق على الإطلاق لا أرى له وجها، لأن رتب العطايا والمنح من أنصبة القرب إذا كانت غير متناهية. كيف ينكر الشوق من المحب فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد، ولكن يكون مشتاقا إلى ما لم يجد من أنصبة القرب، فكيف يمنع حال الشوق والأمر هكذا.

ووجه آخر، أن الإنسان لا بد له من أمور يردها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته، وعدم وقوفه على حد العلم الذي يقتضيه حكم الحال، ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق، ولا نعني بالشوق إلى مطالبة تنبعث من

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٢.

الباطن إلى الأولى والأعلى من أنصبة القرب هذه المطالبة كائنة في المحبين، فالشوق إذا كائن لا وجه لإنكاره، وقد قال قوم: شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبوبة، فيكون في حال الغيبوبة مشتاقا إلى اللقاء، ويكون في حال اللقاء والمشاهدة مشتاقا إلى زوائد ومبار من الحبيب وأفضاله، وهذا هو الذي أراه واختاره.

وقال فارس: قلوب المشتاقين منورة بنور الله، فإذا تحركت اشتياقا أضاء النور ما بين المشرق والمغرب، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول: هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أني إليهم أشوق.

وقال أبو يزيد: لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار.

سئل ابن عطاء عن الشوق فقال: هو احتراق الحشا، وتلهب القلوب، وتقطع الأكباد من البعد بعد القرب.

سئل بعضهم: هل الشوق أعلى أم المحبة، فقال: المحبة، لأن الشوق يتولد منها، فلا مشتاق إلا من غلبة الحب، فالحب أصل والشوق فرع.

وقال النصر اباذي: للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق، ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار.

ومنها الأنس، وقد سئل الجنيد عن الأنس فقال: ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة.

وسئل ذو النون عن الأنس فقال: هو انبساط المحب إلى المحبوب.

قيل: معناه قول الخليل (أرني كيف تحيي الموتى) وقول موسى (أرني أنظر إليك) وأنشد لرويم:

شغلت قلبي بما لديك فلا	ينفك طول الحياة عن فكر
انستني منك بالوداد فقد	اوحشتني من جميع ذا البشر
ذكرك لي مؤنس يعارضني	يوعدني عنك منك بالظفر
وحيثما كنت يا مدى همسي	فأنت مني بموضع النظر

وروى أن مطرف بن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز: ليكن انسك بالله، وانقطاعك إليه، فإن لله عبادا استأنسوا بالله وكانوا في وحدتهم اشد استئناسا من الناس في كثرتهم، واوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون، وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون.

قال الواسطي: لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها.

وقال ابو الحسين الوراق: لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم، لأن كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا الله تعالى فإنك لا تتزايد به أنسا إلا ازددت منه هيبة وتعظيما.

قالت رابعة: كل مطيع مستانس، وانشدت:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي	وابحت جسمي من اراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس	وحبيب قلبي في الفؤاد انيسي

وقال مالك بن دينا (من لم يانس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه، وعمي قلبه، وضيع عمره).

قيل لبعضهم: من معك في الدار؟ قال: الله تعالى معي، ولا يستوحش من أنس بربه.

وقال الخراز: الأنس محادثة الأرواح مع المحبوب في مجالس القرب.

ووصف بعض العارفين صفة أهل المحبة الواصلين فقال: جدد لهم الود في كل طرفة بدوام الاتصال، وآواهم في كنفه بحقائق السكون إليه، حتى أنت قلوبهم، وحنت أرواحهم شوقا، وكان الحب والشوق منهم إشارة من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله، فذهبت مناهم، وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم.

ولو أن الحق تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم ما سألوه عن بعض ما أعد لهم من قدمه وحدانيته ودوام أزليته، وسابق علمه، وكان نصيبهم معرفتهم به، وفراغ همهم عليه، واجتماع أهوائهم فيه، فصار يحسدهم من عبيدهم العموم أن رفع عن قلوبهم جميع الهموم.

وأنشد في معناه:

كانت لقلبي أهواء مفرقة	فاستجمعت إذ رآتك النفس أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده	وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم	شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

وقد يكون من الأنس الأنس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه، وسائر أبواب القربات، وهذا القدر من الأنس نعمة من الله تعالى ومنحة منه، ولكن ليس هو حال الأنس الذي يكون للمحبين.

والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن، وكنسه بصدق الزهد، وكمال التقوى، وقطع الأسباب والعلائق، ومحو الخواطر والهواجس، وحقيقته عندي كنس الوجود بثقل لائح العظمة، وانتشار الروح في ميادين الفتوح، وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب، فيجمعه به عن الهيبة، وفي الهيبة اجتماع الروح ورسوبه إلى محل النفس.

وهذا الذي وصفناه من أنس الذات وهيبة الذات كون في مقام البقاء بعد العبور على ممر الفناء، وهما غير الأنس والهيبة اللذين يذهبان بوجود

الفناء، لأن الهيبة والأنس قبل الفناء ظهرا من مطالعة الصفات من الجلال والجمال، وذلك مقام التلوين، وما ذكرناه بعد الفناء في مقام التمكين والبقاء من مطالعة الذات. ومن الأنس خضوع النفس المطمئنة، ومن الهيبة خشوعها والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك بإيماء الروح.

ومنها القرب. قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿واسجد واقترب﴾.

وقد ورد «أقرب ما يكون العبد من ربه في سجوده» فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب، لأنه يسجد ويطوي بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون، ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب.

قال بعضهم: إني لا أجد الحضور فأقول يا الله أو يا رب فأجد ذلك على أثقل من الجبال. قيل: ولم؟ قال: لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليسا ينادي جليسه، وإنما هي إشارات وملاحظات ومناغات وملاطفات.

وهذا الذي وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب، ولكنه مشعر بمحو، ومؤذن بسكر، يكون ذلك لمن غابت نفسه في نور روحه، لغلبة سكره، وقوة محوه، فإذا صحا وأفاق تتخلص الروح من النفس، والنفس من الروح، ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه، فيقول يا الله ويا رب بلسان النفس المطمئنة، العائدة إلى مقام حاجتها ومحل عبوديتها.

والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الأقوال، وهذا أتم وأقرب من الأول، لأنه وفي حق القرب باستقلال الروح بالفتوح، وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى محل الافتقار، وحظ القرب لا يزال يتوفر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس.

وقال الجنيد: إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه، فانظر ماذا يقرب من قلبك.

وقال أبو يعقوب السوسي: ما دام العبد يكون بالقرب لم يكن قريباً حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب، فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقُرب فذلك قرب. وقد قال قائلهم:

قــد تحققتــك في السـر	فناجـاك لسـاني
فاجتمعنـا لمعـان	وافترقنـا لمعـان
إن يكـن غيبـك التعـ	ـظيم عـن لحـظ عيـاني
فلقـد صـيرك الوجـد	مـن الأحشـاء دانـي

قال ذو النون: ما ازداد أحد من الله قربة إلا ازداد هيبة.

وقال سهل: أدنى مقام من مقامات القرب الحياء.

وقال النصر اباذي: باتباع السنة تنال المعرفة، وبأداء الفرائض تنال القربة، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة

ومنها الحياء، والحياء على الوصف العام والوصف الخاص، فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله ﷺ في قوله: «استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: إنا نستحي يا رسول الله، قال: ليس ذلك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».

وهذا الحياء من المقامات.

وأما الحياء الخاص فمن الأحوال، وهو ما نقل عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: إني أغتسل في البيت المظلم فانطوي حياء من الله.

اخبرنا ابو زرعة عن ابن خلف عن لبي عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادي يقول سمعت أحمد السقطي بن صالح يقول سمعت محمد بن عبدون يقول سمعت أبا العباس المؤدب يقول: قال لي سري: احفظ عني ما اقول لك: عن الحياء والأنس يطوفان بالقلب فإذا وجدا فيه الزهد والورع حطا، وإلا رحلا.

والحياء إطراق الروح إجلالاً لعظم الجلال، والأنس التذاذ الروح بكمال الجمال، فإذا اجتمعنا فهو الغاية في اللنى والنهاية في العطاء.

وأنشد شيخ الإسلام:

شــتانه فـإذا بـدا أطرقــت مــن إجلالـــه	لا خيفة بل هيبة وصيانة لجمالـه
الـمــوت في إدبــــاره، والعيـــش في إقبالـــه	واصد عنه إذا بدا، وأروم طيف خياله

قال بعض الحكماء: من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج.

وقال ذو النون: الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك.

وقال ابن عطاء: العلم الأكبر الهيبة والحياء، فإن ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه.

وقال ابو سليمان: إن العباد عملوا على اربع درجات: على الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء، وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء، لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال ستحيا من حسناته اكثر مما استحيا العاصون من سيآتهم.

وقال بعضهم: الغالب على قلوب المستحيين الإجلال والتعظيم دائماً عند نظر الله إليهم.

ومنها الاتصال.

قال النوري: الاتصال مكاشفات القلوب، ومشاهدات الأسرار.

وقال بعضهم: الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول.

وقال بعضهم: الاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه، ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه.

وقال سهل بن عبد الله : حركوا بالبلاء فتحركوا، ولو سكنوا اتصلوا.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: العمال أربعة: تائب، وزاهد، ومشتاق، وواصل، فالتائب محجوب بتوبته، والزاهد محجوب بزهده، والمشتاق محجوب بحاله، والواصل لا يحجبه عن الحق شيء.

وقال أبو سعيد القرشي: الواصل الذي يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبدا، المتصل الذي بجهده يتصل، وكلما دنا انقطع. وكأن هذا الذي ذكره حال المريد والمراد، لكون أحدهما مبادأ بالكشوف، وكون الآخر مردود إلى الاجتهاد.

وقال أبو يزيد: الواصلون في ثلاثة أحرف: همهم لله، وشغلهم في الله، ورجوعهم إلى الله.

وقال السياري: الوصول مقام جليل، وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبدا أن يوصله اختصر عليه الطريق، وقرب إليه البعيد.

وقال الجنيد: الواصل هو الحاصل عند ربه.

وقال رويم: أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظو القوى، ممنوعون من الخلق أبدا.

وقال ذو النون: ما رجع من رجع إلا من الطريق، وما وصل إليه أحد فرجع عنه

واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليه الشيوخ. وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول، ثم يتفاوتون، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، وهو رتبة في التجلي، فيفنى فعله وفعل غيره، لوقوفه مع فعل الله، ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار، وهذه رتبة في الوصول.

ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال، وهذا تجلي طريق الصفات، وهو رتبة في الوصول.

ومنهم من ترقى لمقام الفناء، مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيبا في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين، وهذا المقام رتبة في الوصول.

وفوق هذا حق اليقين، ويكون ذلك في الدنيا للخواص لمح، وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد، حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه، وهذا من أعلى رتب الوصول، فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل، فأين الوصول، هيهات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي، فكيف في العمر القصير الدنيوي.

ومنها القبض والبسط، وهما حالان شريفان. قال الله تعالى: ﴿... وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ...﴾[١] وقد تكلم فيهما الشيوخ وأشاروا بإشارات هي علامات القبض والبسط، ولم أجد كشفا عن حقيقتهما لأنهم اكتفوا بالإشارة.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٥

والإشارة تقنع الأهل. وأحببت أن أشبع الكلام فيها لعله يتشوق إلى ذلك طالب ويحب بسط القول فيه والله أعلم.

واعلم أن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم، لا يكونان قبله ولا يكونان بعده، ووقتهما وموسمهما في أوائل حال المحبة الخاصة لا في نهايتها، ولا قبل حال المحبة الخاصة. فمن هو في مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط، وإنما يكون له خوف ورجاء، وقد يجد شبه حال القبض وشبه حال البسط ويظن ذلك قبضا وبسطا وليس هو ذلك، وإنما هو هم يعتريه فيظنه قبضا، واهتزاز نفساني ونشاط طبيعي يظنه بسطا.

والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها، وما دامت صفة الإمارة فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز، والنشاط والهم وهج سأجور النفس، والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع، فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال وذا قلب وذا نفس لوامة، ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك، لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان وحال المحبة الخاصة، فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى.

قال الواسطي: يقبضك عما لك ويبسطك فيما له.

وقال النوري: يقبضك بإياك ويبسطك لإياه.

واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها، وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته، والنفس ما دامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة. والقبض والبسط باعتبار ذلك منها، وصاحب القلب تحت حجاب نوراني لوجود قلبه، كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلماني لوجود نفسه، فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيده الحال ولا يتصرف

فيه، فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ، فلا يقبض ولا يبسط ما دام متخلصا من الوجود النوراني الذي هو القلب، ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب، فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء يعود إلى الوجود النوراني الذي هو القلب، فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك، ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط.

قال فارس: أولا القبض ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط، لأن القبض والبسط يقع في الوجود، فأما مع الفناء والبقاء فلا.

ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإفراط في البسط، وذلك أن الوارد من الله تعالى، يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحا وفرحا واستبشارا، فتسترق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها، فإذا وصل أثر الوارد إلى النفس طغت بطبعها، وأفرطت في البسط حتى تشاكل البسط نشاطا، فتقابل بالقبض عقوبة، وكل القبض إذا فتش لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها، ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى، ما وجد صاحب القلب القبض، وما دام روحه وأنسه ورعاية الاعتدال الذي يسد باب القبض ملتقى من قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ... ﴾ [١]

فوارد الفرح ما دام موقوفا على الروح والقلب لا يكثف ولا يستوجب صاحبه القبض، لا سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالإيواء إلى الله، وإذا لم يلتج بالإيواء إلى الله تعالى، تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح، وهو الفرح بما أتى المنوع منه، فمن ذلك القبض في بعض الأحايين، وهذا من الطف الذنوب الموجبة للقبض، وفي النفس من حركاتها وصفاتها وذبات متعددة موجبة للقبض، ثم الخوف والرجاء لا يعدمهما صاحب القبض والبسط، ولا صاحب الأنس والهيبة، لأنهما من ضرورة الإيمان فلا ينعدمان.

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٣.

وأما القبض والبسط فينعدمان عند صاحب الإيمان لنقصان الحظ من القلب، وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب. وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف بسببهما، ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذى لم يحكم علم الحال ولا علم المقام.

ومن احكم علم الحال والمقام لا يخفى عليه سبب القبض والبسط، وربما يشتبه عليه سبب القبض والبسط، كما يشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط، وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه، ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة، لا تتقدح من جوهرها نار توجب القبض، ولا يتلاطم بحر طبعها من اهوية الهوى حتى يظهر منه البسط، وربما صار لمثل هذا القبض والبسط في نفسه لا من نفسه، فتكون نفسه المطمئنة بطبع القلب فيجرى القبض والبسط في نفسه المطمئنة وما لقلبه قبض ولا بسط، لان القلب متحصن بشعاع نور الروح، مستقر في دعة القرب، فلا قبض ولا بسط

ومنها الفناء والبقاء،

قد قيل: الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ، بل يفنى عن الأشياء كلها شغلا بمن فنى فيه.

وقد قال عامر بن عبد الله : لا أبالى امرأة رأيت أم حائطا.

ويكون محفوظا فيما لله عليه، مصروفا عن جميع المخالفات، والبقاء يعقبه، وهو أن يفنى عما له ويبقى بما لله تعالى.

وقيل: الباقى أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا، فيكون كل حركاته في موافقة الحق دون مخالفته، فكان فانيا عن المخالفات، باقيا في الموافقات. وعندى أن هذا الذي ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح، وليس من الفناء والبقاء في شيء.

ومن الإشارة إلى الفناء ما روى عن عبد الله بن عمر أنه سلم عليه إنسان وهو في الطواف فلم يرد عليه، فشكاه إلى بعض أصحابه، فقال له: كنا نتراءى الله في ذلك المكان.

وقيل: الفناء وهو الغيبة عن الأشياء، كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل.

وقال الخراز: الفناء هو التلاشي بالحق، والبقاء هو الحضور مع الحق.

وقال الجنيد: الفناء استعجام الكل عن أوصافك، واشتغال الكل منك بكليته.

وقال إبراهيم بن شيبان: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة.

وسئل الخراز : ما علامة الفاني؟ قال: علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى.

وقال أبو سعيد الخراز: أهل الفناء في الفناء صحتهم أن يصحبهم علم البقاء، وأهل البقاء في البقاء صحتهم أن يصحبهم علم الفناء.

واعلم أن أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرة، فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات، وهذا تقتضيه التوبة النصوح، فهو ثابت بوصف التوبة، وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل، وهذا يقتضيه الزهد، وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة، وهذا يقتضيه تزكية النفس.

وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق، وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه، ولكن الفناء المطلق هو ما يستولي من أمر الحق سبحانه

وتعالى على العبد، فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن.

فأما الفناء الظاهر فهو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال، ويسلب عن العبد اختياره وإرادته، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا إلا بالحَق، ثم يأخذ في المعاملة مع الله تعالى بحسبه، حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء كان يبقى أياما لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه، ويقيض الله تعالى له من يطعمه، ومن يسقيه كيف شاء وأحب، ولهذا لعمري فناء، لأنه فنى عن نفسه وعن الغير، نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله.

والفناء الباطن أن يكاشف تارة بالصفات، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات، فيستولى على باطنه أمر الحق، حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس. وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق.

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري وقلت له، هل يكون بقاء المتخيلات في السر ووجود الوسواس من الشرك الخفي؟ وكان عندى أن ذلك من الشرك الخفي، فقال لي، هذا يكون في مقام الفناء، ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفي أم لا.

ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان في الصلاة فوقعت أسطوانة في الجامع فانزعج لهدتها أهل السوق، فدخلوا المسجد فرأوه في الصلاة ولم يحس بالأسطوانة ووقوعها، فهذا هو الاستغراق والفناء باطنا.

ثم قد يتسع وعاؤه حتى لعله يكون متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا، ولا يغيب عن كل ما يجرى عليه من قول وفعل، ويكون من أقسام

الفناء ان يكون في كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الإذن في كليات اموره ليكون في الأشياء بالله لا بنفسه.

فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان، وصاحب الانتظار لإذن الحق في كليات اموره راجع إلى الله بباطنه في جزئياتها فان، ومن ملكه الله تعالى اختياره واطلقه في التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للإذن، هو باق، والباقي في مقام لا يحجبه الحق عن الخلق، ولا الخلق عن الحق، والفاني محجوب بالحق عن الخلق والفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال والفناء الباطن لمن اطلق عن وثاق الأحوال وصار بالله لا بالأحوال، وخرج من القلب فصار مع مقلبه لا مع قلبه.

الباب الثاني والستون
في شرح كلمات مشيرة
إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن سليمان إجازة قال، أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال، أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال، حدثنا محمد ابن إبراهيم قال، حدثنا أبو مسلم الكشي قال، حدثنا مسور بن عيسى قال، حدثنا القاسم بن يحيى قال، حدثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: «إن من معادن التقوى تعلمك إلى ما قد علمت علم ما لم تعلم، والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه».

وإنما يزهد الرجل في علم ما لم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم. فمشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى، وتعلموا العلم لله تعالى، وعملوا بما علموا لموضع تقواهم، فعلمهم الله تعالى ما لم يعلموا من غرائب العلوم ودقيق الإشارات، واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار، وترسخ قدمهم في العلم.

قال أبو سعيد الخراز: أول الفهم لكلام الله العمل به لأن فيه العلم والفهم والاستنباط، وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١)

وقال أبو بكر الواسطي: الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب، وفي سر السر، فعرفهم ما عرفهم، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم، وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات، فانكشف لهم من مدخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص، فاستخرجوا الدرر والجواهر، ونطقوا الحكمة.

---

(١) سورة ق: الآية ٣٧.

وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ فيما رواه سفيان بن عيينه عن ابن جريج عن عطاء عن ابي هريرة انه قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله».

أخبرنا ابو زرعة قال: أنا ابو بكر بن خلف قال: حدثنا ابو عبد الرحمن قال: سمعت النصراباذى يقول سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشي يقول: هي أسرار الله تعالى يبديها إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة، وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص.

وقال ابو سعيد الخراز: للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارة الأزلية، وهي من العلم بالمجهول.

فقوله بلسان الأبدية وعبارة الأزلية، إشارة إلى أنهم بالله ينطقون.

وقال قال تعالى على لسان نبيه ﷺ: «بي ينطق» وهو العلم اللدني الذي قال الله تعالى فيه في حق الخضر ﴿...ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [١]

فما تداولته ألسنتهم من الكلمات تفهيما من بعضهم للبعض، وإشارة منهم أحوال يجدونها، ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم: الجمع والتفرقة.

قيل: أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾ [٢] فهذا جمع، ثم فرق فقال ﴿...وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ...﴾ [٣]

---

(١) سورة الكهف، الآية ٦٥

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٨

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٨.

وقوله تعالى: ﴿آمنا بالله﴾ جمع، ثم فرق بقوله ﴿وما أنزل إلينا﴾ والجمع أصل والتفرقة فرع، فكل جمع بلا تفرقة زندقة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل.

وقال الجنيد: القرب بالوجد جمع، وغيبته في البشرية تفرقة.

وقيل: جمعهم في المعرفة وفرقهم في الأحوال. والجمع اتصال لا يشاهد صاحبه إلا الحق، فمتى شاهد غيره فما جمع، والتفرقة شهود لمن شاء بالمباينة. وعباراتهم في ذلك كثيرة.

والمقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد، وأشاروا إلى الاكتساب، فعلى هذا لا جمع إلا بتفرقة.

ويقولون: فلان في عين الجمع، يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه، فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة، فصحة الجمع بالتفرقة، وصحة التفرقة بالجمع. فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله، والتفرقة من العلم بأمر الله ولا بد منهما جميعا.

قال المزين: الجمع عين الفناء بالله، والتفرقة العبودية متصل بعضها بالبعض.

وقد غلط قوم وادعوا أنهم في عين الجمع، وأشاروا إلى صرف التوحيد، وعطلوا الاكتساب فتزندقوا، وإنما الجمع حكم الروح، والتفرقة حكم القالب، وما دام هذا التركيب باقيا فلا بد من الجمع والتفرقة.

وقال الواسطي: إذا نظرت إلى نفسك فرقت، وإذا نظرت إلى ربك جمعت، وإذا كنت قائما بغيرك فأنت فان بلا جمع ولا تفرقة.

وقيل: جمعهم بذاته، وفرقهم في صفاته.

وقد يريدون بالجمع والتفرقة أنه إذا أثبت لنفسه كسبا ونظر إلى أعماله فهو في التفرقة، وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع.

ومجموع الإشارات ينبئ أن الكون بفرق، والكون بجمع، فمن أفرد الكون جمع، ومن نظر إلى الكون فرق، فالتفرقة عبودية، والجمع توحيد، فإذا أثبت طاعته نظرا إلى كسبه فرق، وإذا أثبتها بالله جمع، وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع، ويمكن أن يقال: رؤية الأفعال تفرقة، ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع.

سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال: أفنى موسى عن موسى، فلم يكن لموسى خبر من موسى، ثم كلم فكان المتكلم والمكلم هو، وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب ورد الجواب لولا بإياه سمع. ومعنى هذا أن الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع، ولولا تلك القوة ما قدر على السمع. ثم أنشد القائل متمثلا:

وبدا لـه مـن بعدمـا اندمـل الهوى	بـرق تـألق موهنـا لمعانـه
يبـدو كحاشـية الـرداء ودونـه	صعـب الـذرى متمنـع أركانـه
فبدا لينظـر كيـف لاح فلـم يطـق	نظـرا إليـه ورده أشـجانه
فالنـار مـا اشـتملت عليـه ضلوعـه	والمـاء مـا سمحـت بـه أجفانـه

ومنها قولهم: التجلي والاستتار.

قال الجنيد: إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام، والتهذيب للخواص وهو التجلي، والتذويب للأولياء وهو للمشاهدة. وحاصل الإشارات في الاستتار والتجلي راجع إلى ظهور صفات النفس، ومنها الاستتار، وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب.

ومنها التجلي، ثم التجلي قد يكون طريق الأفعال، وقد يكون بطريق الصفات، وقد يكون بطريق الذات، والحق تعالى أبقى على الخواص موضع

الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم، فأما لهم فلأنهم به يرجعون إلى مصالح النفوس، وأما لغيرهم فلأنه لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقه في جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار.

قال بعضهم: علامة تجلي الحق للأسرار هو أن لا يشهد السر ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم، فمن عبر أو فهم فهو صاحب استدلال لا ناظر إجلال.

وقال بعضهم: التجلي رفع حجبة البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل، والاستتار أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب.

ومنها التجريد والتفريد. الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله، لا يأتي بما يأتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة، بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادا، والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي به، بل يرى منة الله عليه.

فالتجريد ينفي الأغيار، والتفريد ينفي نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه.

ومنها الوجد والتواجد والوجود. فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا، ويغيره عن هيئته ويتطلع إلى الله تعالى، وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه، ينظر منها إلى الله تعالى.

والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكر. والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان، فلا وجد مع الوجدان، ولا خبر مع العيان، فالوجد بعرضية الزوال، والوجود ثابت بثبوت الجبال. وقد قيل:

قد كان يطربني وجدي فأقعدني ... عن رؤية الوجد من في الوجد موجود

والوجد يطرب من في الوجد راحته ... والوجد عند حضور الحق مفقود

ومنها الغلبة. الغلبة وجد متلاحق، فالوجد كالبرق يبدو، والغلبة كتلاحق البرق وتواتره يغيب عن التمييز، فالوجد ينطفئ سريعا، والغلبة تبقى للأسرار حرازا منيعا.

ومنها المسامرة، وهي تفرد الأرواح بخفي مناجاتها ولطيف مناغاتها في سر السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرد الروح بها، فتلتذ بها دون القلب.

ومنها السكر والصحو، فالسكر استيلاء سلطان الحال، والصحو العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال.

قال محمد بن خفيف، السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب.

وقال الواسطي، مقامات الوجد أربعة، الذهول، ثم الحيرة، ثم السكر، ثم الصحو، كمن سمع بالبحر ثم دنا منه، ثم دخل فيه، ثم أخذته الأمواج، فعلى هذا من بقي عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر، ومن عاد كل شيء منه إلى مستقره فهو صاح، فالسكر لأرباب القلوب، والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب.

ومنها المحو والإثبات، المحو بإزالة أوصاف النفوس، والإثبات بما أدير عليهم من آثار الحب كؤوس، أو المحو محو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى نفسه وما منه، والإثبات إثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به، فهو بالحق لا بنفسه بإثبات الحق إياه مستأنفا بعد أن محاه عن أوصافه.

قال ابن عطاء، يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم.

ومنها علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فعلم اليقين ما كان من طريق النظر والاستدلال، وعين اليقين ما كان من طريق الكشوف والنوال، وحق اليقين ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال بورود رائد الوصال.

قال فارس: علم اليقين لا اضطراب فيه، وعلم اليقين هو العلم الذى أودعه الله الأسرار، والعلم إذا انفرد عن نعت اليقين كان علما بشبهة، فإذا انضم إليه اليقين كان علما بلا شبهة، وحق اليقين هو حقيقة ما أشار إليه علم اليقين، وعين اليقين.

وقال الجنيد: حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك، وهو أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان، ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق كما أخبر الصديق حين قال لما قال له رسول الله ﷺ: «ماذا أبقيت لعيالك». قال: الله ورسوله.

وقال بعضهم: علم اليقين حال التفرقة، وعين اليقين حال الجمع، وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد.

وقيل لليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق، فالاسم والرسم للعوام، وعلم اليقين للأولياء، وعين اليقين لخواص الأولياء، وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا محمد ﷺ.

ومنها الوقت، والمراد بالوقت ما هو غالب على العبد، وأغلب ما على العبد وقته، فإنه كالسيف يمضى الوقت بحكمه ويقطع، وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا يكسبه فيتصرف به فيكون بحكمه، يقال فلان بحكم الوقت بمعنى مأخوذا عما منه بما للحق.

ومنها الغيبة والشهود. فالشهود هو الحضور وقتا بنعت المراقبة، ووقتا بوصف المشاهدة، فما دام العبد موصوفا بالشهود والرعاية فهو حاضر، فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب، وقد يعبرون بالغيبة عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء.

ومنها الذوق والشرب والري. فالذوق إيمان، والشرب علم، والري حال. فالذوق لأرباب البوادر، والشرب لأرباب الطوالع واللوائح واللوامع، والري لأرباب الأحوال، وذلك أن الأحوال هي التي تستقر، فما لم يستقر فليس بحال، وإنما هي لوامع وطوالع. وقيل الحال لا تستقر لأنها تحول، فإذا استقرت تكون مقاما.

ومنها المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة. فالمحاضرة لأرباب التلوين، والمشاهدة لأرباب التمكين، والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر. فالمشاهدة والمحاضرة لأهل العلم، والمكاشفة لأهل العين، والمشاهدة لأهل الحق أي حق اليقين.

ومنها الطوارق والبوادي والبادة والواقع والقادح والطوالع واللوامع واللوائح وهذه كلها ألفاظ متقاربة المعنى، ويمكن بسط القول فيها، ويكون حاصل ذلك راجعا إلى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة به. والمقصود أن هذه الأسماء كلها مبادئ الحال ومقدماته، وإذا صح الحال ستوعب هذه الأسماء كلها ومعانيها.

ومنها التلوين والتمكين. فالتلوين لأرباب القلوب، لأنهم تحت حجب القلوب، وللقلوب تخلص إلى الصفات، وللصفات تعدد بتعدد جهاتها، فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات، ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات.

وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الأحوال، وخرقوا حجب القلوب، وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات فارتفع التلوين لعدم التغير في الذات، إذاجلب ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات، فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلي الذات ارتفع عنهم التلوين.

فالتلوين حينئذ يكون في نفوسهم، لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتلوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبه عن حال التمكن، لأن جريان التلوين في النفس لبقاء رسم الإنسانية، وثبوت القدم في التمكين كشف حق الحقيقة، وليس المعنى بالتمكين أن لا يكون للعبد تغير فإنه بشر، وإنما المعنى فيه أن ما كوشف من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا يتناقص بل يزيد. وصاحب التلوين قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه، وتغيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال، ويكون ثبوته على مستقر الإيمان، وتلوينه في زوائد الأحوال.

ومنها النفس. ويقال النفس للمنتهي، والوقت للمبتدئ، والحال للمتوسط، فكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدئ يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر، والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه، والمنتهي صاحب نفس متمكن من الحال، لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور، بل تكون المواجيد مقرونة بأنفاسه، مقيمة لا تتناوب عليه، وهذه كلها أحوال لأربابها، ولهم منها ذوق وشرب، والله ينفع ببركتهم آمين.

الباب الثالث والستون
في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام ابو النجيب السهروردي قال انا الشريف ابو طالب الحسين بن محمد الزينبي قال اخبرتنا كريمة المروزية قالت اخبرنا ابو الهيثم محمد بن مكي الكشميهني قال لنا ابو عبد الله محمد بن يوسف الفربري قال حدثنا ابو عبد الله محمد بن إسماعيل بن ابراهيم البخاري قال حدثنا الحميدي قال حدثنا سفيان بن عيينة قال حدثنا يحيى بن سعيد الانصاري قال اخبرني محمد بن ابراهيم التيمي انه سمع علقمة بن وقاص قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها او إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

النية اول العمل، وبحسبها يكون العمل، وأهم ما للمريد في ابتداء أمره في طريق القوم ان يدخل طريق الصوفية، ويتزيا بزيهم، ويجالس طائفتهم لله تعالى، فإن دخوله في طريقهم هجرة حاله ووقته.

وقد ورد «المهاجر من هجر ما نهاه الله عنه».

وقد قال الله تعالى: ﴿...وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ...﴾ [1]

فالمريد ينبغي ان يخرج إلى طريق القوم لله تعالى، فإنه ان وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل، وإن ادركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فاجره على الله وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم.

---

(١) سورة النساء الآية ١٠٠

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغدادي عن جعفر الخلدي قال سمعت الجنيد يقول: أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء.

فالمريد في أول سلوك هذا الطريق يحتاج إلى إحكام النية، وإحكام النية تنزيهها من دواعي الهوى وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل حتى يكون خروجه خالصا لله تعالى.

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك.

وكتب بعض الصالحين إلى أخيه: أخلص النية في أعمالك يكفك قليل من العمل.

ومن لم يهتد إلى النية بنفسه يصحب من يعلمه حسن النية.

قال سهل بن عبد الله التستري: أول ما يؤمر به المريد المبتدئ التبري من الحركات المذمومة، ثم النقل إلى الحركات المحمودة، ثم التفرد لأمر الله تعالى، ثم التوقف في الرشاد، ثم الثبات، ثم البيان، ثم القرب، ثم المناجاة، ثم المصافاة، ثم الموالاة، ويكون الرضا والتسليم مراده، والتفويض والتوكل حاله، ثم يمن الله تعالى بعد هذه بالمعرفة، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة، وهذا مقام حملة العرش، وليس بعده مقام.

هذا من كلام سهل جمع فيه ما في البداية والنهاية.

ومتى تمسك المريد بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر الشرع، وقطع النظر عن الخلق. فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم إلى الخلق.

وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر، ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغر» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق، والخروج منهم، وترك التقيد بعاداتهم.

قال أحمد بن خضرويه: من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصدق، فإن الله تعالى مع الصادقين.

وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ: «الصدق يهدي إلى البر».

ولا بد للمريد من الخروج من المال والجاه، والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه، فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس.

وأنفع شيء للمريد معرفة النفس، ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات، أو عليه من الهوى بقية.

قال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك: تصبح لا تهم لله بمعصية، وتمسي ولا تهم لله بمعصية. فإذا أحكم الزهد والتقوى، انكشفت له النفس، وخرجت من حجبها، وعلم طريق حركتها، وخفي شهواتها، ودسائسها وتلبيساتها. ومن تمسك بالصدق فقد تمسك بالعروة الوثقى.

قال ذو النون: لله تعالى في أرضه سيف ما وضع على شيء إلا قطع وهو الصدق.

ونقل في معنى الصدق أن عابدا من بني إسرائيل راودته ملكة عن نفسه، فقال اجعلوا لي ماء في الخلاء لأتنظف به، ثم صعد على موضع في القصر فرمى بنفسه، فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبدي، قال فلزمه ووضعه على الأرض وضعا رفيقا، فقيل لإبليس: ألا أغويته؟ فقال: ليس لي سلطان على من خالف هواه، وبذل نفسه لله تعالى.

وينبغي للمريد أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى، حتى في أكله وشربه وملبوسه، فلا يلبس إلا لله، ولا يأكل إلا لله، ولا يشرب إلا لله، ولا ينام إلا له، لأن هذه كلها أرفاق لدخلها على النفس كانت لله لا تستعصي النفس، وتجيب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص، وإنما دخل في شيء من رفق النفس لا لله بغير نية صالحة صار ذلك وبالا عليه.

وقد ورد في الخبر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر، ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة».

وقيل: كان أنس يقول: طيبوا كفي بمسك فإن ثابتا يصافحني ويقبل يدي.

وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك إلى الله بنيتهم.

فالمريد ينبغي أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله، ولا يسامح نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى. وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوي عند كل لقمة ويقول بلسانه أيضا آكل هذه اللقمة لله تعالى.

ولا ينفع القول إذا لم تكن فنية في القلب، لأن النية عمل القلب، وإنما اللسان ترجمان، فما لم تشتمل عليها عزيمة القلب لله لا تكون نية.

ونادى رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال: هات المدرى، أراد الميل ليفرق شعره، فقالت له امرأته: أجيء بالمدرى والمرآة؟ فسكت ثم قال: نعم، فقال له من سمعه: سكت وتوقفت عن المرآة ثم قلت نعم، فقال: إني قلت لها هات المدرى بنية، فلما قالت والمرآة لم يكن لي في المرآة نية فتوقفت حتى هيأ الله تعالى لي نية فقلت نعم.

وكل مبتدئ لا يحكم أساس بدايته، بمهاجرة الإلاف والأصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحدة لا تستقر بدايته. وقد قيل: من قلة الصدق كثرت الخلطاء، وأنفع ماله لزوم الصمت، وأن لا يطرق سمعه كلام الناس، فإن باطنه يتغير ويتأثر بالأقوال المختلفة.

وكل من لا يعلم كمال زهده في الدنيا وتمسكه بحقائق التقوى لا يعرفه أبدا، فإن عدم معرفته لا يفتح عليه خيرا. وبواطن أهل الابتداء كالشمع تقبل كل نقش.

وربما استضر المبتدئ بمجرد النظر إلى الناس، ويستضر بفضول النظر أيضا وفضول المشي، فيقف من الأشياء كلها على الضرورة، فينظر ضرورة حتى لو مشى في بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذي يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره، ثم يتقي موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالرعاية والاحتراز، فإن علم الناس منه بذلك أضر عليه من فعله. ولا يستحقر فضول المشي، فإن كل شيء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة جر إلى الفضول، ثم يجر إلى تضييع الأصول.

قال سفيان: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول.

فكل من لا يتمسك بالضرورة في القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم، ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه، وانحلت شيئا بعد شيء.

قال سهل بن عبد الله : من لم يعبد الله اختيارا يعبد الخالق اضطرارا.

وينفتح على العبد أبواب الرخص والاتساع، ويهلك مع الهالكين.

ولا ينبغي للمتبدئ أن يعرف أحدا من أرباب الدنيا، فإن معرفته لهم سم قاتل. وقد ورد «الدنيا مبغوضة لله فمن تمسك بحبل منها قادته إلى

النار»، وما حبل من حبالها إلا كاتباتها والطالبين لها والمحبين، فمن عرفهم انجذب إليها شاء أو أبى.

ويحترز المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار، فإنه يدخل عليه منهم أشر ما يدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا، وربما يشيرون إلى أن الأعمال شغل للتعبدين وأن أرباب الأحوال ارتقوا عن ذلك.

وينبغي للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان فحسب، ولا ينبغي أن يدخل هذا الكلام سمعه رأسا، فإنا اختبرنا ومارسنا الأمور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين، ورأينا الذين يقولون هذا القول، ويرون الفرائض دون الزيادات، والنوافل تحت القصور مع كونهم أصحاء في أحوالهم. فعلى العبد التمسك بكل فريضة وفضيلة فبذلك يثبت قدمه في بدايته.

ويراعي يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصا لا يمزجه بشيء من أحوال نفسه وماربها، ويبكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة، وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك فحسن.

قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة اغتسل للجمعة، ولو اشتريت الماء بعشائك».

وما من نبي إلا وقد أمره الله أن يغتسل للجمعة، فإن غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين، ويشتغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع الأذكار من غير فتور إلى أن يصلي الجمعة، ويجلس معتكفا في الجامع إلى أن يصلي فرض العصر، وبقية النهار يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ، فإنه يرى بركة ذلك في جميع الأسبوع، حتى يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة.

وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الأسبوع لأنه يوم المزيد لكل صادق، ويكون ما يجده يوم الجمعة معيارا يعتبر به سائر الأسبوع الذي مضى، فإنه إذا كان الأسبوع سليما يكون يوم الجمعة فيه مزيد الأنوار والبركات، وما يجد في يوم الجمعة من الظلمة وسآمة النفس وقلة الانشراح، فلما ضيع في الأسبوع، يعرف ذلك ويعتبره.

ويتقي جدا أن يلبس للناس المرتفع من الثياب أو ثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد، ففي لبس المرتفع للناس هوى، وفي لبس الخشن رياء، فلا يلبس إلا لله.

بلغنا أن سفيان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس، فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال لبسته بنية لله فلا أغيره فألبسه بنية للناس.

فليعلم العبد ذلك وليعتبره.

ولا بد للمبتدئ أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه، فيحفظ من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن، ولا يصغي إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن، فإنه يجد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى.

وإنما اختار بعض المشايخ أن يديم المريد ذكرا واحدا ليجتمع الهم فيه. ومن لازم التلاوة في الخلوة، وتمسك بالوحدة، تفيده التلاوة والصلاة أو في ما يفيده الذكر الواحد، فإذا سئم في بعض الأحايين يصانع النفس على الذكر مصانعة، وينزل من التلاوة إلى الذكر، فإنه أخف على النفس.

وينبغي أن يعلم أن الاعتبار بالقلب، فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد، فإنه عمل

ناقص، ولا يحقر الوساوس وحديث النفس فإنه مضر وداء عضال، فيطالب نفسه أن تصير في تلاوة معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه

فكما أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر، هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس. وإن كان أعجميا لا يعلم معنى القرآن يكون لمراقبة جلية باطنه، فيشتغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس، فإن بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة.

قال مالك: قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة.

فليتمسك المريد بهذه الأصول، وليستعن بدوام الافتقار إلى الله، فبذلك ثبات قدمه.

قال سهل: على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء، وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقار إلى الله.

فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير، ومفتاح كل علم دقيق في طريق القوم، وهذا الافتقار مع كل الأنفاس لا يتشبث بحركة، ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها، وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيرا قطعا، علمنا ذلك وتحققناه.

وقال سهل: من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله، وأدنى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يعنيه وتركه ما يعنيه.

وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم: لمن هذه الدار؟ ثم رجع إلى نفسه وقال: مالي وهذا السؤال، وهل هذه إلا كلمة لا تعنيني، وهل هذا إلا لاستيلاء نفسي وقلة أدبها، وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة.

فبالصدق نالوا ما نالوا، وبقوة العزائم، عزائم الرجال، بلغوا ما بلغوا.

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال لنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الانماطي يقول سمعت الجنيد يقول: لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته من الله أكثر مما ناله.

وهذه الجملة يحتاج المبتدئ أن يحكمها، والمنتهي عالم بها عامل بحقائقها. فالمبتدئ صادق والمنتهي صديق.

قال أبو سعيد القرشي: الصادق الذي ظاهره مستقيم، وباطنه يميل أحيانا إلى حظ النفس، وعلامته أن يجد الحلاوة في بعض الطاعة ولا يجدها في بعض، وإذا اشتغل بالذكر نور الروح، وإذا اشتغل بحظوظ النفس يحجب عن الأذكار.

والصديق الذي استقام ظاهره وباطنه يعبد الله تعالى بتلوين الأحوال لا يحجبه عن الله وعن الأذكار أكل ولا نوم ولا شرب ولا طعام. والصديق يريد نفسه لله، وأقرب الأحوال إلى النبوة الصديقية.

وقال أبو يزيد: آخر نهايات الصديقين أول درجات الأنبياء.

واعلم أن أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفوس، ووطئت بساط القلوب، ونفوسهم منقادة مطاوعة صالحة مع القلب مجيبة إلى كل ما تجيب إليه القلوب، أرواحهم متعلقة بالمقام الأعلى، انطفأت فيهم نيران الهوى، وتخمر في بواطنهم صريح العلم، وانكشفت لهم الآخرة كما قال رسول الله ﷺ في حق أبي بكر رضى الله عنه: «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر» إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ما كوشف به من صريح العلم

الذى لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.[1]

فأرباب النهايات ماتت أهويتهم، وخلصت أرواحهم.

قال يحيى بن معاذ، وقد سئل عن وصف العارف فقال: رجل معهم بائن منهم. وقال مرة: عبد كان فبان.

فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم، موقفين بتوقيت الأجل، جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه، بهم يهدى، وبهم يرشد، وبهم يجذب أهل الإرادة، كلامهم دواء، ونظرهم دواء، ظاهرهم محفوظ بالحكم، وباطنهم معمور بالعلم.

قال ذو النون: علامة العارف ثلاثة: لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم، ولا يجعله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار محارم الله.

فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية، وكلما ازدادوا دينا ازدادوا قربا، وكلما ازدادوا جاها ورفعة ازدادوا تواضعا وذلة ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.[2]

وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفس استخرجت منهم شكرا صافيا يتناولون الشهوات تارة رفقا بالنفوس، لأنها معهم كالطفل الذى يلطف بالشيء، ويهدي له شيء، لأنه مقهور تحت السياسة، مرحوم ملطوف به.

وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيا بالأنبياء، واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية.

---

(١) سورة ق، الآية ٢٢.

(٢) سورة المائدة، الآية ٥٤.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا عروس تطلبها ماشطتها، والزاهد فيها يسخم وجهها، وينتف شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف بالله مشتغل بسيده، ولا يلتفت إليها.

واعلم ان المنتهى مع كمال حاله لا يستغني ايضا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات، واخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وانواع البر.

وقد غلط في هذا خلق، وظنوا أن المنتهي استغنى عن الريادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال في تناول الملاذ والشهوات، وهذا خطأ لا من حيث انه يحجب العارف عن معرفته، ولكن يوقف مقام المزيد.

وقوم لما راوا ان هذه الأشياء لا تؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجبة ركنوا اليها واسترسلوا فيها، وقنعوا بأداء الفرائض، واتسعوا في المآكل والمشرب، وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال، وتقيد بنور الحال، وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق.

ومن تخلص من نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر، ويوقف نفسه مقام العبيد، كأحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وانواع البر حتى بإماطة الأذى عن الطريق، ولا يستكبر ولا يستنكف أن يعود في صور عوام المؤمنين من إظهار الإرادة بكل بر وصلة، فيتناول الشهوات وقتا، رفقا بالنفس المطهرة المزكاة المنقادة الطواعة لأنها أسيرته، ويمنعها الشهوات وقتا، لأن في ذلك صلاحها.

واعبر هذا سواء بحال الصبي، فإنه إن جاوز حد الاعتدال من إعطاء المراد وقتا ومنعه وقتا، لفسد طبعه، لأن الجبلة لا بد من قمعها بسياسة العلم، وما دامت الجبلة باقية لا بد من سياسة العلم، وهذا باب غامض دخله في النهايات على المنتهي من ذلك دواخل، ووقع الركون، وانسد به باب المزيد

فالمنتهى ملك ناصية الاختيار في الأخذ والترك، ولا بد له من أخذ وترك في الأعمال والحظوظ. ففي الأعمال لا بد له من أخذ وترك، فتارة يأتي الأعمال كآحاد الصادقين، وتارة يترك زيادة الأعمال رفقا بالنفس، وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رفقا بالنفس، وتارة يتركها انتقادا للنفس بحسن السياسة، فيكون في ذلك كله مختارا.

فمن ساكن ترك الحظوظ بالكلية فهو زاهد تارك بالكلية، ومن استرسل في أخذها فهو راغب بالكلية. والمنتهى شمل الطرفين، فإنه على غاية الاعتدال، واقف على الصراط بين الإفراط والتفريط.

فمن ردت إليه الأقسام في النهاية فأخذها زاهدا في الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار، وتارك الاختيار، الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال.

وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار، فكذلك الزاهد في الزهد الأخذ من الدنيا ما سبق إليه لرؤيته فعل الله مقيدا بالأخذ، وإذا استقرت النهاية لا يتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتا، واختياره من اختيار الله ويأخذه وقتا، واختياره من اختيار الله، وهكذا صومه النافلة، وصلاته النافلة، يأتي بها وقتا ويسمح للنفس وقتا، لأنه مختار صحيح في الاختيار في الحالتين، وهذا هو الصحيح. ونهاية النهاية وكل حال يستقر ويستقيم يشاكل حال رسول الله ﷺ.

وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله، ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان، ويتناول الشهوات.

ولما قال الرجل إنني عزمت أن لا آكل اللحم قال: «فإني آكل اللحم وأحبه ولو سألت ربي أن يطعمني كل يوم لأطعمني» وذلك يدلك على أن

رسول الله ﷺ كان مختارا في ذلك إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل، وكان يترك الأكل اختيارا.

وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم إن رسول الله ﷺ فعل كذا يقولون كان رسول الله ﷺ مشرعا، وهذا إذا قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل محض، فإن الرخصة الوقوف على حد قوله، والعزيمة التأسي بفعله، وقول رسول الله ﷺ لأرباب الرخص، وفعله لأرباب العزائم.

ثم إن المنتهي يحاكي حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق إلى الحق، فكل ما كان يعتمده رسول الله ﷺ ينبغي أن يعتمده، فكان قيام رسول الله ﷺ وصيامه الزائد لا يخلو إما أنه كان ليقتدى به، وإما أنه كان لمزيد كان يجده بذلك، فإن كان ليقتدى به فالمنتهي أيضا مقتدى به ينبغي أن يأتي بمثل ذلك، والصحيح الحق أن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء، بل كان يجد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الجبلة.

قال الله تعالى خطابا له: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[1] لأنه بذلك ازداد استمدادا من الحضرة الإلهية، وقرع باب الكرم.

والنبي ﷺ مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى، غير مستغن عن ذلك.

ثم في ذلك سر غريب، وذلك أن رسول الله ﷺ برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق، ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انتفعوا به. وبين نفسه الطاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف، أن النفوس ألفت آنفا كما أن الأرواح ألفت أولا،

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩٩.

ولكل روح مع نفسه تاليف خاص، والسكون والتاليف والامتزاج واقع بين الأرواح والنفوس.

وكان رسول الله ﷺ يديم العمل لتصفية نفسه ونفس الاتباع، فما احتاج إليه نفسه من ذلك ناله، وما فضل من ذلك وصل الى نفوس الامة.

وهكذا المنتهى مع الأصحاب والاتباع على هذا المعنى ، فلا يتخلف عن الزيادت والنوافل، ولا يسترسل في الشهوات واللذات إلا بدلالة تخص النفس، ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك إلا بتايد الله تعالى ونور الحكمة.

وكل من يحتاج إلى صحة الجلوة للغير لا بد له من خلوة صحيحة بالحق، حتى تكون جلوته في حماية خلوته. ومن يتراءى له ان اوقاته كلها خلوة، وانه لا يحجبه شيء، وان اوقاته بالله ولله، ولا يرى نقصانا، لأن الله ما فطنه لحقيقة المزيد فهو صحيح في حاله غير انه تحت قصور، لأنه ما نبه لسياسة الجبلة، وما عرف سر تمليك الاختيار، وما وقف من البيان على البيضاء النقية.

وقد نقلت عن المشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه، فقد يسمعها الإنسان ويبنى عليها، والأولى ان يفتقر إلى الله تعالى في اي كلمة يسمعها، حتى يسمعه الله من ذلك الصواب.

نقل عن بعضهم انه سئل عن كمال المعرفة فقال: إذا اجتمعت المتفرقات، واستوت الأحوال والأماكن، وسقطت رؤية التمييز.

ومثل هذا القول يوهم ان لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة، وبين القيام بصور الاعمال وبين تركها، ولم يفهم منه ان القائل اراد بذلك معنى خاصا، يعنى ان حظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال، وهذا صحيح، لأن حظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر إلى التمييز، وتستوى الاحوال فيه، ولكن حظ

المريد يتغير ويحتاج إلى التمييز، وليس في هذا الكلام وأمثاله ما ينافي ما ذكرناه.

قيل لمحمد بن الفضل: حاجة العارفين إلى ماذا؟ قال: حاجتهم إلى الخصلة التي كملت بها المحاسن كلها ألا وهي الاستقامة.

وكل من كان أتم معرفة كان أتم استقامة، فاستقامة أرباب النهاية على التمام. والعبد في ابتداء مأخوذ في الأعمال محجوب بها عن الأحوال، وفي التوسط محفوظ بالأحوال، فقد يحجب عن الأعمال.

وفي الانتهاء لا تحجبه الأعمال عن الأحوال، ولا الأحوال عن الأعمال، وذلك هو الفضل العظيم.

سئل الجنيد عن النهاية فقال: هي الرجوع إلى البداية.

وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال: معناه أنه كان في ابتداء أمره في جهل، ثم وصل إلى المعرفة، ثم رد إلى التحير والجهل، وهو كالطفولية يكون جهل، ثم علم، ثم جهل. قال الله تعالى: ﴿...لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا...﴾[1].

وقال بعضهم: أعرف الخلق بالله أشدهم تحيرا فيه.

ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه يبادئ الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال، ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال، وهذا يكون للمنتهى المراد المأخوذ في طريق المحبوبين، تنجذب روحه إلى الحضرة الإلهية، وتستتبع القلب، والقلب يستتبع النفس، والنفس تستتبع القالب فيكون بكليته قائما بالله، ساجدا بين يدى الله تعالى، كما قال رسول الله ﷺ: «سجد لك سوادى وخيالى».

---

(١) سورة النحل الآية ٧٠ .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾[1] والظلال والقوالب تسجد بسجود الأرواح، عند ذلك تسرى روح المحبة في جميع أجزائهم وأبعاضهم، فيتلذذون ويتنعمون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه محبة وودا، فيحبهم الله تعالى، ويحببهم إلى خلقه، نعمة منه عليهم وفضلا، على ما أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي رحمه الله قال أنا أبو طالب الزيني قال أخبرتنا كريمة المرزوية قالت أنا أبو الهيثم الكشميهني قال لنا عبد الله الفربرى قال أنا أبو عبد الله البخاري قال حدثني إسحاق قال حدثنا عبد الصمد قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل إن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى جبريل في السماء إن الله قد أحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض».

وبالله العون والعصمة والتوفيق.

★ ★ ★ ★

تم بحمد الله وعونه

كتاب عوارف المعارف للإمام السهروردى

وفى الختام نقول:

إننا فى كل ما نحقق من كتب التراث نضع نصب أعيننا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فما وافقهما أخذنا به وما خالفهما علقنا عليه ورددناه.

---

(١) سورة الرعد الآية ١٥.

الفهرس

الموضوع	الصفحة